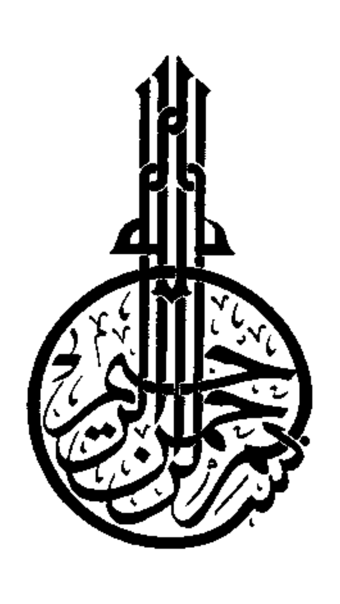


العشرة المبشرون بالجنة

تأليف
عبد الستار الشيخ

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم


العشرة
المبشرون بالجنة

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم ـ دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية ـ بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير ـ جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدّمة

الحمد لله واهب النِّعَم ومُسْبِغِها، وهادي الأمم ومُسْعِدِها، الذي تفضَّل على عباده بالهداية والرشاد، وأكرمهم برسالة سيدنا محمد ﷺ سيد القادة وإمام الدعاة، وخير العِبَاد وقدوة العُبَّاد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغُرِّ المَيَامين، الذين آمنوا به واتَّبَعوا النور الذي أُنزل معه، وعزَّروه ونَصَروه وسانَدُوه، ونَقَلوا للناس رسالتَه، وبلَّغوا أمانته، ونَهَضوا بنشر هذا الدين في جَنَبات الأرض؛ وبذلوا في سبيل ذلك المُهَج والأرواح والأموال والطارِفَ والتَّليد، وغادروا الأوطان، وفارقوا الأهل والخُلَّان، وزرعوا في الدنيا بذور الخير، وشيَّدوا حضارة العدل، ورفعوا رايات المجد، ونشروا ألوية الحرية والمساواة، وأعلوا إنسانية الإنسان، وعطَّروا البلاد بسِيَرِهم الطاهرة، ورَوَّوا البِقاع بدمائهم الزكية، فكانت جلائلُ أعمالهم وطهارةُ شمائلهم شهادةَ صِدقٍ على نُبْلِ رسالتهم، وكانوا بحق ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وبعد:

فإنَّ الصحابة العشرة الكبار: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، وأبا عبيدة ابن الجَرَّاح، وعبد الرحمن بن عوف، وطَلْحة بن عُبيد الله، والزبير بن العوام، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص؛ المبشَّرين بالجنة؛ هم أفضلُ قريش، وأفضلُ السابقين المهاجرين، وأفضل البدريين، وأفضل أصحاب الشجرة، وسادة هذه الأمة في الدنيا والآخرة.

وهؤلاء الصحابة العشرة الأجلّاء كانوا في الذُّؤابة من قومهم مجداً وشَرفاً، ونَسَباً ومَحْتِداً، أُصولاً وفروعاً، كما كانوا بين أصحاب رسول الله ﷺ في الذُّرْوة من قوّة الإيمان، ورسوخ اليقين، وشجاعة النفس، وبطولة الروح، وروعة المواقف، والجهاد المتواصل في المواقع الفاصلة في عصر النبوة وعهد الخلافة الراشدة.

من هؤلاء العشرة وثُلَّة قليلة من السابقين تكوَّنت نواة الدعوة الأولى، فكانوا عُمُدَ الدعوة، وركائزَ تبليغ الرسالة، وسَبَقوا العالمين إلى الإيمان بالله ونصرة رسوله ﷺ وحملِ رسالته، ونالوا شرفَ الهجرتين، وبُشرى النبي ﷺ بأنهم من أهل الجنة ومن الصدّيقين، وجاهدوا تحت لوائه، وحضروا أيامه وغزواته وسراياه، وتوفِّي ﷺ وهو عنهم راضٍ، وكان منهم أربعة عُرفوا عبر الزمن بالخلفاء الراشدين، والستة الآخرون كانوا من رؤوس أصحاب الشورى، وأهلِ الحل والعَقْد، ووزراءَ صِدقٍ للخلفاء، وأمراءَ هدايةٍ، وقادةَ جيوشٍ، وأئمةَ فتوحٍ، وصانعي أمجادٍ، وروَّاد خيرٍ للمسلمين وعامة العالمين.

وتنوَّعت مجالات العَظَمة ومنابعُ المكرمات وجلائلُ الأعمال وفضائلُ الخصال في حياة هؤلاء العشرة السادة، وتركوا بصماتهم المُشرِقة في شتّى جوانب الحضارة الإسلامية الزاهرة. وسطَّروا في سِنِي حياتهم بل في أيامهم وساعاتهم أروعَ الملاحم الخالدة الصادقة، التي تشكل مَعيناً لا يَنْضُب للقدوة الصالحة والأسوة الحسنة في الحياة العامة والخاصة.

ويُعتبر هؤلاء الأماجد من أَخْصَبِ النماذج الحيَّة في الإسلام، المليئة بالخصائص الإنسانية القوية الذين تجلَّت في شخصياتهم آثارُ التربية الإسلامية على عَيْن المربي الأعظم ﷺ، فكانوا في سِيَرهم عنواناً على واقعية تلك التربية كما نزلت من السماء، وبُرهاناً على جلالة الرسالة وعظمة الرسول ﷺ!.

وتاريخُ الإسلام من أوفر التواريخ حظّاً من تلك النماذج الإنسانية العالية، ونماذجُه من أوفر النماذج حظّاً في خصائص المُثُل العليا، التي تتمثَّل فيها مجموعة من الفضائل الكريمة الحية في القيادة والريادة، والعلم والعمل، والزهد والورع، والعطاء والبذل، والرأفة والرحمة، والفداء والنجدة، والقوة والتضحية، والاستبسال في حمل الدعوة وإبلاغ الرسالة، والإخلاص في السر والعلن، والحرص على سلامة المنهج، والاستمساك بعُرى العِزَّة والأَنَفة، وإرغام آناف المستكبرين في الأرض، وإخضاع المتجبِّرين لسلطان الحق، وإقامةِ العدل، والحفاظ على حَيَوات البشر، وإنصافِ المظلومين، وكسرِ جبروت القوى الضاغطة على كواهل المستضعفين.

(لقد ازدحمتْ فترة تاريخية قصيرة في صدر الإسلام بَحشْدٍ من النماذج الإنسانية الفائقة في كل اتجاه، ولا بدَّ من تعليلٍ شاملٍ لهذه الظاهرة الغريبة، ولا مناصَ من اعتبار الفكرة الإسلامية بكل حيويتها وبكل فاعليتها سبباً رئيساً لهذا الانبعاث! فعنصرُ الفكرة الإسلامية هو الجديدُ على هذه البيئة التي ازدحمت بهذا الحشد من النماذج الفريدة في تاريخ البشرية كلها. وعندئذٍ يتحتَّم على الباحث في تاريخ هذه الفترة، وعلى الدارس لهذه النماذج المحشودة فيها؛ أن يُحسِنَ إدراكَ الفكرة التي بَعثت وجَمعت هذه الثروة الضخمة من المواهب والعبقريات والكفايات.

ولن يُحْسِنَ إدراكها إلا مَن يدركها من الداخل بكيانه كلّه؛ وهذا لا يتأتى إلا لباحثٍ مؤمنٍ بها مستجيبٍ لها، باحث من هذا الطراز يختلف في شعوره وفي تفكيره اختلافاً بيِّناً عن المؤرِّخين الغربيين الذين تناولوا الحياةَ الإسلاميةَ والشخصيات الإسلامية بالدراسة، كما يختلف اختلافاً بيِّناً عن المؤرِّخين المتتلمذين على المنهج الغربي في الدراسات التاريخية كذلك، ومنهم معظم مَنْ كتبوا حديثاً في التاريخ الإسلامي وعن الشخصيات الإسلامية على وجه العموم)[1].

وما مِن شخصية من شخصيات رجالات الإسلام الكبار الذين لهم في الحياة أَثَرٌ مشهودٌ إلا وقد كتب الباحثون عنها فأَطْنَبوا أو أوجَزوا، فكتبوا عن الخلفاء الراشدين، والعشرة المبشَّرين، وأسبق السابقين، وأبطال الغزوات، وقادة الفتوحات، وولاة الأمصار، وعلماء الصحابة، ومشاهير الشهداء، وأئمة الزهَّاد والعُبَّاد، وغيرهم.

ومع كل ما كُتِب عن هؤلاء فإنَّ هذه الشخصيات مَثلُها مَثَلُ الأرضِ المُخصبة يزورها الغيث فتزدادُ على كثرة التقليب إثماراً، وكلما حرَّكْتَها آتتكَ ثمراً أخصب ومذاقاً أطيب، فهي كالشمس تطلع على الناس في إشراقها كل يوم وهم لا يزالون

---

(١) من تقديم الأستاذ الشهيد سيد قطب لكتاب (خالد بن الوليد) للعلامة المؤرِّخ الناقد محمد الصادق عرجون، رحمهما الله وأجزل مثوبتهما، ص٥ ـ ٦.

منها في جديد مطلوب وأثر مرغوب[١].

وعلى كثرة ما كُتب في حياة العشرة المبشَّرين لا يستطيع كاتب أن يحيط بمقومات شخصية كل عَلَمٍ منها إحاطةً تكشف عن عوامل النبوغ كلِّها، فَثَمَّةَ عوامل تتكشَّف للبعض دون الآخر، وعوامل أخرى لا يَجْلوها إلا الزمن، فيستطيع الباحث اللاحق أن يلتقطها، وقد فاتت الكاتب السابق. ولكلّ عصر أسلوبه في التعبير، ولكلّ مفكِّر طريقته في التفكير، ولكلّ كاتبٍ منهجه في العَرض والتحليل والاستنتاج والتنبيه على مواطن العِبْرة ومكامن القدوة. وبمقدار ما تعطيه للعَلَم الذي تكتب عنه من الاحترام والتقدير والقناعة بالمبدأ الذي يعتقده وينافح عنه؛ بمقدار ما يُحالفك التوفيق في تقديم أصدق صورة عنه، وأقرب بيان لحقيقته، وبمقدار ـ كذلك ـ ما تقذف في رَوْع القارئ من اقتناع بمنهجك وإيمان بمسلكك، ومن وراء هذا وذاك تحقيق الهدف الأسمى من الكتابة عن هؤلاء الرجال الذين هم الترجمة الحية لمبادئ الإسلام؛ فيُحالفك في ذلك رضا الله وحبُّ المؤمنين والأجرُ الجزيل يوم الدين.

وإنَّ من أدنى درجات المروءة أن تلهج ألسنتُنا بالذِّكْر الحَسن والثَّناءِ الجميل على أولئك الأكابر الذين تفانَوا في خدمة هذا الدين ونشر رسالته في العالمين، وسجَّلوا في بُرْهَة يسيرة من عمر الزمان نَعْيَ إمبراطورية الروم في بلاد الشام، ونعيَ إمبراطورية آل ساسان في فارس والعراق.

ومن أسس استقلال شخصيتنا أن نُعيد من جديد تثقيفَ أبنائنا وتنشئتهم على سِيَر هؤلاء السادة الذين افتخرت بهم الدنيا وازدانَ بهم جبينُ التاريخ على مرِّ السنين.

ومن أهم عوامل عودة نهضتنا أن نتصدَّى لتلك الهجمة الشرسة اللَّدود الحقود، التي تريد تشويه صورة تاريخنا، وتعبث بسير أئمتنا، وتتكاثر السهام علينا، وتتناوشنا شياطين الشرق والغرب فيوحون إلى أجيالنا زُخرف القول

(١) اقتبستُ بعض العبارات من مقدمة محمد الصادق عرجون لكتابه الفذّ (خالد بن الوليد).

غُروراً؛ ليصدُّونا عن منهج آبائنا، ويبتروا حاضرنا عن ماضينا، ويقطعوا أواصر القربى بيننا وبين أجدادنا أمثال العشرة المبشَّرين وإخوانهم من الصحابة، ذلك الجيل القرآني الفريد!.

وقد سبقَ لي أن كتبتُ كتاباً كبيراً ترجمتُ فيه للخلفاء الراشدين الأربعة، وفصَّلْتُ القولَ في سِيَرِهم الطيبة، وأيام خلافتهم الراشدة، التي كانت على منهاج النبوّة، وألقيتُ أضواءً كاشفةً تُظهِرُ حياتهم الماجدة وأعمالهم الخالدة. ووقفتُ طويلاً عندما اعْتَوَرَ النصف الثاني من عهد عثمان وكاملَ عهد علي من فتن عاصفة، وأوضحتُ ـ بمقدار ما كُتب لي من التوفيق ـ وجْهَ الحقّ في تلك الحقبة العصيبة، وأمطتُ اللِّثام عن الأيدي الخبيثة والنفوس الحاقدة التي عملت في الظلام على كيد الإسلام وأهله، فأثارتْ تلك الفتن، وتسبَّبتْ في سفك هاتيك الدماء.

وتوجَّهَتْ عزيمتي للكتابة عن الصحابة الستة الآخرين تتمة العشرة المبشَّرين بالجنة، فسلكتُ المنهج نفسه في كتابي (الخلفاء الراشدون)، وسطَّرتُ كتاباً حافلاً عن أولئك الستة الكرام رضي الله عنهم.

ثم تقدَّم إليَّ أستاذي محمد علي دولة ـ صاحب دار القلم العامرة ـ بأن أكتب مختصراً موجزاً عن الخلفاء الأربعة، أضمُّه إلى هذا الكتاب، فتلتئم سيرة العشرة في كتاب واحد جامع.

فاستحسنتُ الفكرةَ، وعُدْتُ من جديد فكتبتُ سيراً مختصرةً وافية غير مخلَّة للخلفاء الأربعة وأعمالهم في خلافتهم، وضممتُها إلى سِيَرِ الصحابة الستة الكرام، فكان من ذلك هذا الكتاب.

فمن ابتغى التوسّع في حياة الخلفاء الراشدين؛ فدونه كتابي المستقل عنهم، ومَن أرادَ بُلْغَةً عن حياتهم فسيجد بُغيته في هذا الكتاب الذي بين يديه، مع تفصيل القول في حياة الصحابة الستة الآخرين وأعمالهم الماجدة المباركة.

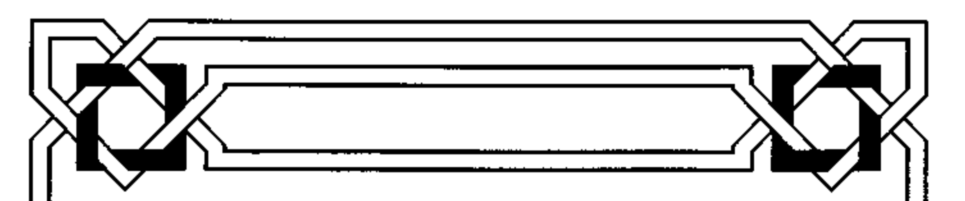
وإنني لأرجو من الله تعالى أن يكون هذا الكتاب إسهاماً خيِّراً ودراسة جادة ومنهجاً هادفاً موفّقاً، في تقديم صورة متكاملة عن العشرة الكرام المبشَّرين

بالجنة، يقرِّبُ سِيرهم إلى ذلك الجيل المبارك من فتيان وفتيات الإسلام، الذين تعقد بهم الآمال، وعليهم تعوِّل الأمة في حَمْل الراية خفّاقة من جديد!.

فاللهمَّ إني أستلهمُك محامدَ تبلُغ من شُكْرِكَ ذُرى نعمتك، وأَستمنحُكَ توفيقاً أستظلُّ به في ظلّ رحمتك، وأستهديك فُرقاناً أميز به الحق من الباطل، وإياك أسألُ أن تنفعَني والمسلمين بهذا العمل، وتكتبَ له القبول، وتجعلَه في كِفَّةِ الحسنات عندك ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

عبد الستار الشيخ



الباب الأول

أبو بكر الصّدّيق

سَيِّدُ المُسْلِمِينَ . الصَّاحِبُ فِي الغَار وَالخَلِيفَةُ المختَار

٥٠ ق.هـ - ١٣ هـ

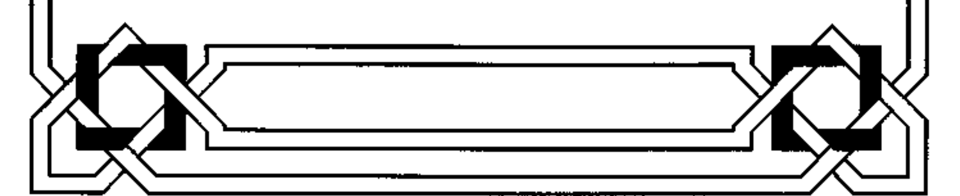
الفصل الأول : نبعته، وحليته، وإسلامه

الفصل الثاني : صحبته، وهجرته، ومشاهده

الفصل الثالث : أخلاقه وشمائله، وعلمه ومكانته

الفصل الرابع : خلافته، وجلائل أعماله

الفصل الخامس : وفاته، وأسرته





الفَصلُ الأوَّل

نبعته وحليته وإسلامه

اسمه ونسبته ولقبه وولادته:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سَعْد بن تَيْم بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب، القرشي التيمي، أبو بكر الصدّيق بن أبي قُحافة.

كان يقال له: (عَتيق) لحُسنِ وجهه وجماله، وطيب أصله، وطهارة نسبه، وأنه لم يكن في نسبه شيء يُعاب.

وذات يوم كان رسول الله ﷺ وأصحابه جالسين بفناء البيت، إذ أقبل أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلى عتيقٍ من النارِ، فلينظرْ إلى أبي بكرٍ». فغلب عليه لقبه، واشتهر به.

صفتُه وحِلْيَتُه:

ولد بعد حادثة الفيل بسنتين وستة أشهر، وكان رجلاً أبيض نحيفاً، خفيف العارضين[1]، أجنأ[2]، لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حَقْويه[3]، معروقَ[4] الوجه، غائرَ العينين، ناتئ الجبهة، يخضب بالحناء والكَتَم[5].

أبواه وإسلامهما:

نشأ أبو بكر في كنف والده أبي قُحافة ـ الذي أسلم يوم الفتح ـ، وأمه أم

---

(١) **العارض**: صفحة الخدّ.
(٢) **أجنأ**: أي في ظهره انحناء يسير.
(٣) **الحَقْوُ**: الخصر.
(٤) **معروق الوجه**: أي لحم وجهه قليل.
(٥) **الكتم**: نبتٌ يُصبغ به الشعر أسود.

الخير سلمى بنت صخر بن عامر، ابنة عم أبي قحافة، التي أسلمت، وصحبتْ مع ابنها رسولَ الله ﷺ.

عمله ومكانته في قريش:

ونأى الشابُّ الطاهرُ عن رجس الجاهلية ودنسها، وتحلَّى بالأخلاق العربية الأصيلة، فكان ذا خُلُق ومعروف، محبَّباً سهلاً، صادقَ الحديث، طيّبَ العِشْرة، حسن المجالسة، حرَّم على نفسه الخمر في الجاهلية.

وكان أنسبَ العرب، وأنسب قريش لقريش، وأعلمهم مما كان منها من خير أو شرّ، وبلغ الغاية في علم تعبير الرؤيا، وتوَّج ذلك بأنَّه تاجر مجرِّب، ذو حنكة ودربة؛ فأحبَّه قومه، ووثقوا به، وعرفوا له منزلته، فأصبح من رؤسائهم في الجاهلية، وأهل مشاورتهم، وأَحَدِ عَشَرةِ رجال من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام. وأسندوا إليه أمر الديات، فإذا حمل منها شيئاً صدَّقوه، وأمضوا ذلك.

إسلامه:

وكان أبو بكر يجلس طويلاً إلى أولئك الثلاثة الأحناف، والنفر الصالح: قُسّ بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عَمْرو بن نُفيل، وورقة بن نوفل؛ يصغي إلى كلماتهم النديّة، ويلقي إليها سمعه.

ولكن هؤلاء كانوا عاكفين على أنفسهم، لا يحملون دعوة منظَّمة، ولا ديناً يهدّد قريشاً ووثنيتها وتقاليدها. ثم هم في مرتفعات أعمارهم، قد أوشكت حياتهم على الأفول، فماذا يفعل؟!

والتمعت في خاطره صورة محمد بن عبد الله ﷺ؛ فمحمد ﷺ في ربيع العمر، حسيب نسيب، وهو في قومه كألمع درّة في التاج، قد عزفت نفسه عن الأصنام، يقضي أيامه بعيداً عن عبث الجاهلية وسخافاتها، ويمضي يومه بالتأمّل في هذا الملكوت في غار حراء، فيرى أنَّ له خالقاً ومبدعاً، يجب أن يُعظَّم دون سواه. صحيح أنه لا يذكر الأصنام بسوء، لكنه كذلك لا يمدحها، ولا يسجد لها

مع الساجدين، قد جرّد من نفسه أمة وحده، ومضى يبحث عن الحق واليقين.

وأبو بكر صديق محمد ﷺ، تجمعهما سنٌّ واحدة، ويرى فيه المَثَل الأعلى والقدوة التي تدعو إلى الثقة والاطمئنان. ويجيل خاطره، ويُعمِل فكره في الحوادث العِظَام التي تُحْدِّث بها في جنبات مكة؛ فيقع على الحدث الجلل الذي رآه منذ أعوام قليلة، حين أتمت قريشٌ تجديد بناء الكعبة، وهمُّوا بأن يعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه، فاشتجر الخلاف بينهم، وأنذر بحرب كحرب الفِجَار، واحتدم الخلاف، فأشار أحدهم أن يحكِّموا بينهم أول قادم، وجاء محمد ﷺ، فقال الجميع: (هذا الأمين محمد... نِعم الحكَم هو)!.

وينظر أبو بكر إلى وثنيات الجاهلية، وعباداتها المختلفة، فمنهم مَن يسجد للأصنام، وآخرون يعبدون الشمس، وثمّة مَن يعبد الملائكة، بل كان فيهم الدهريون، ومَن يعبد الجنّ والكواكب!.

وضاعت الحنيفية السمحة في زحمة هذا الشرك المبرقع، فيتساءل أبو بكر: أوَلا يجيء رجل يحسم هذا الخلاف العقائدي، كما جاء (الأمين) وحسم الخلاف بين بطون قريش، فجنّبها وادياً من الدم كاد يجري!.

وتطلّع أبو بكر إلى (الأمين) الذي كان له تِرْباً وحميماً، وصَحِبَه في رحلته إلى الشام، وسمع كلام (بَحيرا الراهب)، مع ما كان يسرُّ إليه من بعض ما يراه من إرهاصات النبوّة... فأحبَّه أبو بكر، وتعلّقت به نفسه، ورأى فيه المخلِّص والمنقذ.

وزاد من ذلك ما حدث معه في إحدى خرجاته إلى اليمن، قبل مبعث النبي ﷺ، فيحدثنا عنها قائلاً: (نزلتُ على شيخ من الأَزْد عالمٍ، قد قرأ الكتب، وعَلِم من عِلْم الناس علماً كثيراً، فلما رآني قال:

أجدُ في العلم الصحيح الصادق أنَّ نبيّاً يُبعث في الحَرم، يعاونه على أمره فتى وكهل، فأما الفتى فخوّاض غمرات، ودفّاع معضِلات، وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة، وعلى فخذه اليسرى علامة.

وطلب إليّ أن أكشف له عن بطني.

قال أبو بكر: فكشفتُ له عن بطني، فرأى شامة سوداء فوق سرَّتي.

فقال: أنت هو وربِّ الكعبة، وإني متقدِّم إليك في أمر فاحذره!.

قال أبو بكر: قلت: وما هو؟.

قال: إياك والميلَ إلى الهوى، وتمسَّكْ بالطريقة المُثلى الوسطى، وخَفِ الله فيما خوَّلك وأعطاك).

وعاد أبو بكر إلى مكة، وهو ينتظر مبعث النبي المنتظَر، وما إنْ سمع النبأ العظيم، وأنَّ صديقه الحميم محمداً ﷺ قد نزل عليه الوحي، وحُمِّل رسالة السماء، حتى أسرع إليه، وقال له: أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد، من تَرْكِك آلهتنا، وتسفيهك عقولَنا، وتكفيرك آباءنا؟.

فقال رسول الله ﷺ: «بلى، إني رسول الله ونبيُّه، بعثني لأبلِّغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته». وقرأ عليه القرآن، فأسلم وكفر بالأصنام دون تردد أو توقف، وخلع الأنداد وأقرَّ بحقِّ الإسلام، ورجع وهو مؤمن مصدِّق.

فبادر أبو بكر وسابقَ، وكان أول الناس إسلاماً، وأشدَّهم تصديقاً برسول الله ﷺ ودعوته، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلاَّ وكانت له عنه كَبْوَة، وتردُّدٌ ونظرٌ، إلا أبا بكر، ما عَكَمَ[1] عنه حين ذكرته، وما تردَّد فيه».

شهرته بـ(الصِّدِّيق):

فكان رسول الله ﷺ إذا أخبر بشيء سابق أبو بكر إلى تصديقه، والإيمان به، لأنه لا ينطق عن الهوى، فلُقِّبَ بـ(الصِّدِّيق). واشتَهر ذلك بعد حادثة (الإسراء والمعراج)، حيث جاء المشركون إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في

---

(١) ما عكم: أي ما تلبَّث بل أجاب بسرعة.

صاحبك؟! يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أَوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لقد صدق؛ إنّي لأصدِّقه بأبعد من ذلك، بخبر السماء في غدوة أو رَوْحة!

فلذلك سُمِّي الصدّيق.

وحسبُ رسول الله ﷺ أن تنفرج شفتاه الكريمتان عن شيء، حتى يقول أبو بكر: صدق. فمن شاء فليبحث، ولينظر، وليتحرَّ، وليتشكَّك... أما أبو بكر فلا، فلقد أصبح شعاره منذ أسلم: (إن كان قال فقد صدق).

ولقد أعلن النبيُّ ﷺ ذلك بين الناس، عندما صعد جبل أُحد مع أبي بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اثبُتْ أُحد، فإنَّما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان».

* * *

الفصل الثاني

صحبته وهجرته ومشاهده

صحبته وثبوتها في القرآن والسنّة:

صحب أبو بكر رسول الله ﷺ من حين أسلم إلى أن لحق النبيُّ ﷺ بربِّه، فلم يفارقه في حضر ولا سفر، وهذا ما تقوله السيدة عائشة الصدّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما: (لم أعقِل أبويَّ إلا وهما يَدِينان الدِّين، ولم يمر علينا يوم، إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَي النهار بُكْرةً وعشيةً). وبذلك استحقَّ ذلك الثناء العظيم من الله سبحانه، فسمَّاه في القرآن صاحباً: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. ولهذا قال العلماء: من أنكر صحبته كفر، لأن القرآن العزيز نطق أنه صاحبه! وسمَّاه النبيُّ ﷺ صاحباً، فقال له: «أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار».

دعوته الناسَ إلى الإسلام، وعتقه العبيد:

ولم يكتفِ أبو بكر بأن دخل بنفسه في الإسلام، بل استخدم جاهه ومكانته في قريش لصالح دعوته، فقام يدعو من يثق بهم إلى الإسلام، متحرّياً في ذلك مَن يكون إسلامه عوناً لنشر الدعوة وحمايتها.. فأسلم على يديه عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم جميعاً.

ثم جاء من الغد بعثمان بن مَظْعون، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سَلَمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، فأسلموا جميعاً رضي الله عنهم.

ووضع أبو بكر ماله لنصرة دين الله تعالى، فلقد كان له أربعون ألفاً أنفقها على رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، حتى قال النبي ﷺ: **«ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر»**!.

وكان يمرُّ على العبيد وهم يُعذَّبون، فيؤرِّقه حالهم، فبذل لتحريرهم حُرَّ ماله، فأعتق سبعة؛ منهم: عامر بن فُهيرة، وبلال بن رباح مؤذّن النبي ﷺ.

تحمُّله في سبيل الدعوة، ودفاعه عن النبي ﷺ:

ومضى أبو بكر ينصر دين الله بكل وسيلة يملكها، بالدعوة إليه حيناً، وبعتق الرقاب حيناً آخر، وبالدفاع عن نبيّه ﷺ أبداً.

فبينا كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام، يتذاكرون رسول الله ﷺ، وما يقول في آلهتهم، إذ دخل النبي ﷺ المسجد، فقاموا إليه، فقالوا: ألستَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟! قال: «بلى»! فتشبَّثوا به بأجمعهم، فأتى الصريخُ إلى أبي بكر، فقيل له: أدرك صاحبك. فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد، فوجد رسولَ الله ﷺ، والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]؟! فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر يضربونه، فرجع إلى أهله، لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام!!.

ويحدّث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ في خلافته ـ عن واحد من مواقف الصدّيق تلك فيقول: (ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يَجْبَؤُه[1]، وهذا يُتَلْتِله[2]، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلـٰهاً واحداً؟! فوالله ما دنا منّا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾؟! ثم رفع عليٌّ بُرْدةً كانت عليه فبكى حتى اخضلَّت[3] لحيته، ثم قال للناس: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم.

فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعةٌ من أبي بكر خيرٌ من ألف ساعة من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه!!).

---

(١) يجبؤه: يبغته ويفجؤه.
(٢) يتلتله: يحركه ويقلقله ويزعزعه من مكانه ويزلزله.
(٣) اخضلَّت: أي ابتلَّت.

وما إن بلغ أصحاب النبيِّ ﷺ ثمانية وثلاثين رجلاً حتى طلب أبو بكر إلى رسول الله ﷺ أن يظهروا بدعوتهم، ويجهروا بها، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحُّ عليه حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته. وقام أبو بكر خطيباً، ورسول الله ﷺ جالسٌ، فكان أولَ خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ. وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئَ أبو بكر وضُرب ضرباً مبرِّحاً وبخاصة على وجهه، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه! وجاء بنو تَيْم[1] يتعادَون، فأجْلَوا المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكُّون في موته! وجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلِّمونه حتى أجاب، فتكلَّم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟! فمَسُّوا منه بألسنتهم ولاموه، ثم قاموا.

وألحَّت عليه أمه أم الخير أن يأكل ويشرب، فقال: إنَّ لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً حتى آتي رسولَ الله ﷺ!.

فمكث قليلاً، حتى إذا هدأت الرِّجْلُ، وسكن الناس، خرج الصدِّيق يتكئ على أمه وأم جميل بنت الخطاب، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس، إلا ما نال الفاسقُ عتبة بن ربيعة من وجهي، وهذه أمي بَرَّة بولدها، وأنت مبارك، فادعُها إلى الله، وادعُ لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسولُ الله ﷺ، ودعاها إلى الله، فأسلمتْ وشهدت شهادة الحق.

هجرته مع النبي ﷺ إلى المدينة:

ولبث في مكة مع أصحاب رسول الله ﷺ، يناله ما ينالهم من أذى قريش[2] واضطهادها لدين الله والمؤمنين به، حتى أذِن النبيُّ ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى

---

(١) بنو تيم: هم قبيلة أبي بكر.

(٢) قريش: إن أُريد بها الحي صُرفت، وإن أُريد بها القبيلة مُنعت من الصرف. انظر: (اللسان) «قريش».

المدينة المنورة، فهاجر مَنْ هاجر إليها، وهمَّ الصدّيق بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِكَ، فإنّي أرجو أن يؤذَن لي». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَفَ راحلتين كانتا عنده ورقَ السَّمُر أربعة أشهر.

وبينا أبو بكر جالس في بيته في نَحْرِ الظهيرة واشتداد الحرّ، إذا بقائل يقول: هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً؛ في ساعةٍ لم يكن يأتي أبا بكر فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ.

وجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأُذن له، فَدَخلَ، فقال لأبي بكر: «أَخْرِجْ مَنْ عندك». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! قال: «فإنّي أُذِنَ لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحابة يا رسول الله؟!. قال رسول الله ﷺ: «نعم»، فبكى أبو بكر من الفرح، وتهلَّل وجهه لهذه الصحبة.

وجاءت الساعةُ التي انتظرها أبو بكر طويلاً، وقد أَعدَّ لهذا الحدث الجليل ما يناسبه، لأنه ليس أمراً عادياً، بل سيغير وجه التاريخ. وأراد لأهل بيته جميعاً أن ينالوا شرف خدمة رسول الله ﷺ والحفاظ على نفسه الكريمة، واستمرار دعوته حتى تبلغ ما أراده الله لها. فأعدَّ لكلّ فردٍ مهمة يقوم بها، فقامت عائشة وأسماء وصنعتا سُفرة في جِرَاب[1]، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمِّيت (ذاتَ النطاقين). ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكَمَنَا فيه ثلاث ليالٍ، وعبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما، ويخرج وقت السَّحَر إلى مكة، يتسمَّع ما يقول الناس في النهار من كيد للنبي ﷺ وصاحبه، فيأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. وعامر بن فُهيرة ـ مولى أبي بكر ـ يرعى غنمه نهاره، ثم يريح على فم الغار إذا أمسى، يعفّي بذلك أثر أقدام عبد الله بن أبي بكر، ويشرب النبيُّ ﷺ والصدّيق اللبن، ويذبحان من الشاء. يفعلان ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

وما إنْ وصل النبيُّ ﷺ وصاحبه إلى فم الغار حتى قال أبو بكر: (يا رسول الله، دعني فلأدخل قبلك، فإن كانت فيه حيّة أو شيء كانت بي قبلك! قال:

(١) **الجراب**: هو وعاء يحفظ فيه الزاد.

«ادخل» . فدخل أبو بكر ، فجعل يلتمس بيده ، كلَّما رأى جُحراً جاء بثوبه فشقَّه ثم ألقمه الجُحر ، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، فبقي جُحر ، فوضع عَقِبَه عليه ، ثم أدخل رسولَ الله ﷺ . فلما أصبح ، قال له النبي ﷺ : «فأين ثوبك يا أبا بكر»؟! فأخبره بالذي صنع ، فرفع النبي ﷺ يده فقال : «اللهمَّ اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة» . فأوحى الله تعالى إليه : إنَّ اللهَ قد استجابَ لك) .

وحمي الطلبُ على رسول الله ﷺ وصاحبه ، واشتدَّ المشركون يبحثون عنه في كل حَدَب وصَوْب ، حتى وصلوا إلى فم الغار الذي فيه النبي ﷺ وأبو بكر ، فأعمى الله أبصارهم ، وصرف قلوبهم ، والصدِّيق في الغار ينظر إلى أقدامهم ، وقد بلغ الخوف منه كل مبلغ ، إشفاقاً من أن يهتدوا إليهما ، فيبطشوا برسول الله ﷺ ، ويقول للنبي ﷺ : لو أنَّ أحدَهم نظر تحت قدميه لأبصَرنا ، فيقول له رسول الله ﷺ : «ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟! .

ورجع المشركون خائبين خاسرين لم ينالوا خيراً ، وكفى اللهُ رسولَه شرَّهم ، وانطلق الرسول ﷺ وصاحبه من الغار متجهَيْن إلى المدينة المنورة ، ويصوّر لنا الصدّيق ذلك المشهد المثير فيقول :

(سَرَيْنا[١] ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة[٢] ، وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحد ، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه ، فإذا صخرة طويلة لها ظل ، لم تأتِ عليه الشمس ، فنزلنا عنده ، وسوَّيتُ للنبيِّ ﷺ مكاناً بيَدي ينام عليه ، وبسطتُ فيه فروة ، وقلت : نَمْ يا رسول الله . ثم انطلقتُ أنظر ما حولي ، هل أرى من الطلب أحداً؟ ، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة ، يريد منها الذي أردنا ، فسألته فقلت له : لمن أنت يا غلام؟ قال : لرجل من قريش ، سمّاه فعرفته . فقلت : هل في غنمك من لبن؟ قال : نعم . قلت : فهل أنت حالب لبناً؟ قال : نعم . فأخذ شاة فحلب في قَعْبٍ[٣] كُثْبَةً من لبن[٤] ، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ

(١) **سرينا** : سرنا من الليل
(٢) **قام قائم الظهيرة** : أي نصف النهار حال استواء الشمس .
(٣) **قعب** : قدح من خشب .
(٤) **كثبة من لبن** : مقدار من لبن قدر ملء القدح .

يرتوي منها، يشرب ويتوضأ. فأتيت النبيَّ ﷺ فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيتُ، ثم قال: «ألمْ يأنِ للرحيل»؟ قلت: بلى. فارتحلنا بعدما مالت الشمسُ، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم، غير سراقة بن مالك على فرس له؛ فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله! فقال: «لا تحزن إنَّ الله معنا»!!حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قَدْر رمح ـ أو رمحين ـ قلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لَحِقنا، وبكيت! قال: «لِمَ تبكي»؟! قلت: أَمَا والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك! فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهمَّ اكفناه بما شئتَ»، فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلبة).

واستمرَّ المهاجران المؤمنان في سيرهما قِبَل المدينة المنورة، وأبو بكر الصديق يحمي رسول الله ﷺ بنفسه، فتارةً يمشي أمامه يخاف عليه الرَّصَد، وحيناً يسير خلفه يخشى عليه الطَّلَب. ووصل الركب الميمون إلى المدينة، حيث كانت الأنصار في انتظار رسول الله ﷺ.

مشاهده:

وابتدأ النبي ﷺ بإقامة الدولة، وإرساء قواعدها، وتشييد دعائمها، فأضحى ذلك غصة في حلوق المشركين.

وجاءت (غزوة بدر) لتسجل أعظم انتصار لجيش الحق وكُماته على جند الباطل وحماته!.

وكان لأبي بكر فيها موقف مشهود، فقد بنى الصحابة لرسول الله ﷺ عريشاً يشرف منه على القتال، وانتدبوا رجلاً يحمي النبي ﷺ من المشركين. ويحدِّث علي بن أبي طالب عن ذلك في خلافته، عندما وقف في الناس خطيباً، فيقول: (أخبروني من أشجع الناس؟

فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين.

قال: أما إني ما بارزتُ أحداً إلا انتصفتُ منه. ولكن أخبروني بأشجع الناس؟

فقالوا: لا نعلم، فَمَنْ؟

قال: هو أبو بكر، إنَّه لما كان يوم بدر، فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: مَنْ يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يَهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دَنَا منا أحد إلا أبو بكر، شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، فهو أشجع الناس).

وشهد الصدّيق (غزوة أُحد)، وكان أحدَ الذين ثبتوا مع النبي ﷺ، كما شهد (غزوة الخندق)، و(بيعة الرضوان) تحت الشجرة. وعندما أبرم رسول الله ﷺ (صلح الحديبية) مع قريش، عزَّ على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة دونما اعتمار، وقام عمر بن الخطاب فأتى رسولَ الله ﷺ ليبثَّ إليه همَّه وغمَّه من قسوة الشروط ـ فيما يرى ـ على المسلمين.

قال عمر: (فأتيتُ نبيَّ الله ﷺ فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقّاً؟

قال: «بلى».

قلتُ: ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟

قال: «بلى».

قلت: فلِمَ نُعطي الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟

قال: «إني رسولُ الله، ولستُ أَعْصِيهِ، وهو ناصري».

قلتُ: أَوَليس كنتَ تحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ فَنَطُوفَ به؟

قال: «بلى، فَأَخبرتُكَ أنَّا نأتيهِ العامَ»؟

قال: قلتُ: لا.

قال: «فإنك آتيهِ ومُطَّوِّفٌ به».

قال: فأتيتُ أبا بكر فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقاً؟

قال: بلى.

قلت : أَلَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟

قال : بلى .

قلت : فلِمَ نُعطي الدَّنيّة في ديننا إذاً؟

قال : أيها الرَّجُلُ، إنه لَرَسولُ الله ﷺ، وليس يَعْصي ربَّه، وهو ناصِرُه، فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِه، فوالله إنه على الحقِّ .

قلت : أليسَ كان يُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ ونَطُوفُ به؟

قال : بلى، أَفَأَخبركَ أنك تأتيه العامَ؟

قلت : لا .

قال : فإنك آتيه ومُطَّوِّفٌ به) .

وهذا من عجائب الإلهام، حيث تطابقت إجابة الصدّيق مع إجابة النبي ﷺ حتى في الكلمات! .

وكان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في خَيبر، وفتح مكة، وحُنين، والطائف، وتبوك، وحجة الوداع. وثبت مع النبي ﷺ في حُنين حيث فرَّ الناس، ودفع رسول الله ﷺ إليه رايته العظمى يوم تبوك.

وبعثه رسول الله ﷺ أميراً على الحج سنة تسع ليُقيم للناس حَجَّتهم، وأرسل عليَّ بن أبي طالب بصدر سورة براءة، وأمره أن يؤذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمِنًى: «أنَّه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

وخرج عليٌّ على ناقة رسول الله (العَضْباء)، وأدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور؟ فقال : بل مأمور. ثم مضيا، فأقام الصدّيق للناس الحج، وقام علي بن أبي طالب فأذَّنَ في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ

* * *

الفَصـلالثالث

أخـلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

عبادته وتقواه:

كان أبو بكر على درجةٍ رفيعة من التقوى والورع، والتبتل والتضرّع، يخشى الله في سرّه، ويديم مراقبته في جهره، يتحرى الحلال، وينأى عن الشبهات.

ذات يوم صلّى النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على أصحابه بوجهه فقال: «مَنْ أصبَحَ منكم اليومَ صائماً»؟

فقال عمر: يا رسول الله، لم أحدّثْ نفسي بالصومِ البارحةَ؛ فأصبحتُ مفطراً.

فقال أبو بكر: ولكنّي حدَّثتُ نفسي بالصومِ البارحةَ، فأصبحتُ صائماً.

فقال ﷺ: «هل أحدٌ منكم اليومَ عادَ مريضاً»؟

فقال عمر: يا رسولَ اللهِ، لم نَبْرَحْ فكيفَ نعودُ المريضَ؟!

فقال أبو بكر: بلغني أنَّ أخي عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ شاكٍ، فجعلتُ طريقي عليه لأنظرَ كيفَ أصبحَ.

فقال ﷺ: «هل منكمْ اليومَ أحدٌ أطعمَ مسكيناً»؟

فقال عمر: صلَّينا يا رسولَ اللهِ، ثم لم نبرحْ.

فقال أبو بكر: دخلتُ المسجدَ فإذا بسائلٍ، فوجدتُ كسرةً من خبزِ شعيرٍ في يدِ عبدِ الرحمنِ، فأخذتُها ودفعتُها إليه.

فقال ﷺ: «أنت، فأبشرْ بالجنَّةِ».

وفي واحد من مجالس النبي ﷺ سمع أبو بكر رسول الله ﷺ يقول : «من أنفق زوجين في سبيل الله[١] ، نودي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرَّيَّان ، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة» .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي وأمي يا رسول الله ، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة[٢] ، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟

قال : «نعم ، وأرجو أن تكون منهم» .

وكان رضي الله عنه يضبط لسانه ، ويحاسب نفسه ، اطَّلع عمر عليه ذات يوم فرآه آخذاً بلسانه وهو يقول : (هذا الذي أوردني الموارد)! .

وتحدِّث ابنته الصدّيقة عائشة رضي الله عنها فتقول : (لبستُ مرةً دِرْعاً لي جديداً ، فجعلتُ أنظر إليه ، وأُعجبت به . فقال أبو بكر : ما تنظرين؟ إنَّ اللهَ ليس بناظر إليك!

قلتُ : ممَّ ذاك؟

قال : أمَا علمتِ أن العبدَ إذا دخله العُجب بزينة الدنيا مَقَته ربُّه عزَّ وجلَّ حتى يفارقَ تلك الزينة؟!

قالت : فنزعتُه ، فتصدقتُ به .

فقال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفِّرَ عنك) .

لذلك كان يخشى من الدنيا وزينتها أن تلحق به ، فيقصر عن مقام الصديقين الذي كأنما نفسه جُبلت لنواله ؛ فقد دعا بشراب ذات مرة ، فأُتي بإناء فيه ماء

---

(١) من أنفق زوجين : يعني شيئين في أيِّ صنف من أصناف المال من نوع واحد ، مثل : فرسين ، بعيرين .

(٢) من ضرورة : أي من مضرّة ، أي : قد سَعِدَ من دُعي من الأبواب جميعاً ، ودعوته منها جميعاً أن يخيَّر في الدخول من أيها شاء ، وهذا مزيد تكريم وفضل .

وعسل، فلما أدناه من فيه نحَّاه، ثم بكى حتى بكى أصحابه من حوله، فسكتوا وما سكت، ثم عاد فبكى، حتى ظنوا أنهم لا يقوون على مسألته، ثم مسح وجهه وأفاق، فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ ما أبكاك؟.

قال: (كنتُ مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ويقول: «إليكِ عني، إليكِ عني»، ولم أرَ معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما هذا الذي تدفع ولا أرى أحداً معك؟ قال: «هذه الدنيا تمثَّلتْ لي بما فيها، فقلت لها: إليكِ عني، فتنحَّت وقالت: أما والله إنك إن أفلتَّ فلن يفلتَ مني مَن بعدك»؛ فخشيت أن تكون قد لحقتني، فذاك الذي أبكاني)!!.

ومع هذا التبتّل والورع، كان يتحرّى الحق حتى في اللقمة التي يدخلها بطنه، فقد كان لا يسيغها إذا دنَّسَتْها شبهة. (هذا غلام لأبي بكر مملوك، يُخْرج له الخَراج[1]، وكان أبو بكر يأكل من خَرَاجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تَكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية، وما أُحْسِن الكِهانة[2]، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه. فأدخل أبو بكر يده فقاءَ كلَّ شيء في بطنه. فقيل له: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة؟! فقال: لو لم تخرج إلا مع نَفْسي لأخرجتها؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فالنَّارُ أَوْلَى بِهِ». فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة)!.

وما اغترَّ أبو بكر يوماً بعمله، بل كان يخشى الله تعالى ويقول: (لوددتُ أني شعرة في جنب عبد مؤمن).

وإذا مُدح قال: (اللهمَّ أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمَّ اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون).

إنفاقه في سبيل الله:

وفي ميدان البذل والعطاء كان أبو بكر يتقدّم الصحابة جميعاً، ولنصغِ إلى

---

(١) **يخرج له الخراج**: يأتي له بما يكسبه من الخراج، وهو ما كان يقرره السيد على عبده من مال يدفعه من كسبه.

(٢) **الكهانة**: هي الإخبار عما سيكون من غير دليل شرعي أو عقلي أو حسّي

عمر بن الخطاب يحدّثنا فيقول:

(أمَرَنا رسول الله ﷺ أن نتصدَّق، ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أَسْبِقُ أبا بكر ـ إن سبقتُه ـ، فجئتُ بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك»؟ قلت: مثلَه. وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده. فقال: «يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلك»؟ قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه!!. قلتُ: لا أسبقه إلى شيء أبداً).

ولما بُعث رسول الله ﷺ كان عند أبي بكر أربعون ألفاً، أنفقها كلّها على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، يعتق منها، ويعول المسلمين، فكان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه، حتى قال النبي ﷺ:

«ما لأحَدٍ عندنا يَدٌ إلاّ وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر، فإنَّ له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قطُّ ما نفعني مالُ أبي بكر».

علمه ومروياته ومن روى عنه:

وأبو بكر كان رأس الصدّيقين من الصحابة الكرام، وأسبق السُّبَّق إلى الإسلام، وأشجع الناس، وأكثرهم إنفاقاً في سبيل الله، وأعظمهم حبّاً وإجلالاً لرسول الله ﷺ، أوّاهاً أوّاباً، يخشى الله في السر والعَلَن.

كذلك كان أعلمَ الناس وأفْقَهَهم. فقد كان يفتي في زمن رسول الله ﷺ، ولما سئل ابن عمر: (مَنْ كان يفتي الناس في زمن رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ما أعلم غيرهما).

ولذلك لمّا مرض النبي ﷺ قدَّم أبا بكر على من سواه ليصلّي بالناس، ولا يصلّي بهم إلا من كان أقرأَهم وأعلَمَهم، وكذلك حجُّه بالناس في السنة التاسعة للهجرة، ولا يحجّ بهم إلا أفقههم وأعلمهم.

ولمّا مات رسول الله ﷺ، ومنع قوم الزكاة، وقف الصدّيق وقفته المشهورة، وقال: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

ووقف الصحابة عن فهم الحُكْم في المسألة إلا هو، فناظرهم وحَجَّهم

بالدلائل، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أنَّ قوله هو الصواب، فشرح الله صدورهم لِما شرح له صدره من الحق، وهو قتال أهل الردة.

ولا أدلَّ على سعة علمه بالقرآن، وكثرة محفوظه من السُّنَّة، من موقفه في (سَقيفة بني ساعدة)، لمّا قام خطيباً، فلم يترك شيئاً أُنزل في الأنصار، أَوْ قد ذكره رسول الله ﷺ في شأنهم؛ إلا ذكره على ملأ من الناس.

وقد روى عنه جلَّة الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن ابن عوف، وابن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عَمرو، وابن عباس، وحذيفة رضي الله عنهم جميعاً.

وحدَّث عنه أولاده: عبد الرحمن، ومحمد، وعائشة.

وروى عنه خلائق من التابعين.

ومع هذا العلم الواسع فلم يُرْوَ له عن رسول الله ﷺ سوى مئة حديث واثنين وأربعين حديثاً. وسببُ قلَّة ما روي عنه: أنه تقدَّمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها، وانشغاله أعظم الشغل بحروب المرتدّين، وإرساء قواعد الدولة الإسلامية، وقيامه بمهام الخلافة وما أكثرها، فلم يمكنه كل ذلك من التفرُّغ للجلوس في حلقات العلم ونشره.

تعبيره الرؤيا:

واشتهر الصدّيق بتعبير الرؤيا، حتى قال محمد بن سيرين: كان أبو بكر أَعبرَ هذه الأمة بعد النبي ﷺ.

روى ابن عباس رضي الله عنهما: (أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أرى الليلة في المنام ظُلَّةً تَنْطُفُ السَّمْن والعسل، فأرى الناسَ يَتكَفَّفُونَ منها بأيديهم، فالمستكثِرُ والمستقِلُّ، وأرى سبباً واصلاً من السماء إلى الأرض، فأراكَ أخذتَ به فَعَلوْتَ، ثم أخذ به رجل من بعدك فَعَلا، ثم أخذ به رجلٌ آخرُ فَعَلاَ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به، ثم وُصِلَ له فعلا.

قال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت والله لَتَدَعَنِّي فَلأَعْبُرَنَّها. قال رسول الله

ﷺ: «اعبُرْهَا». قال أبو بكر: أما الظلة: فظلة الإسلام. وأما الذي يَنْطُفُ من السَّمن والعسل: فالقرآن، حلاوته وَلِينُهُ. وأما ما يتكفَّفُ الناس من ذلك: فالمستكثِرُ من القرآن والمستقِلُّ. وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحقُّ الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعْلِيكَ الله به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت، أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال رسول الله ﷺ: «أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً». قال: فوالله يا رسول الله لتُحدِّثَني ما الذي أخطأتُ؟ قال: «لا تُقْسِمْ»)[١].

ورأت ابنته عائشة رضي الله عنها كأنه وقع في بيتها ثلاثة أقمار، فقصَّتها على أبي بكر، فقال: (إن صدقتْ رؤياكِ ليُدْفَنَنَّ في بيتك خير أهل الأرض ثلاثة. فلمَّا قُبض النبي ﷺ قال: يا عائشة، هذا خيرُ أقمارك)[٢].

وجاء ذات يوم رجل فقال له: رأيتُ في النوم أني أبول دماً! فقال أبو بكر: أنت رجل تأتي امرأتك وهي حائض، فاستغفر الله ولا تَعُدْ!!.

مكانته عند النبي ﷺ وأصحابه:

●● وكانت لأبي بكر عند رسول الله ﷺ المكانة السامقة، والمرتبة الأولى التي تستشرف لها كل نفس، حتى قال النبي ﷺ: «لو كنتُ متخذاً خليلاً[٣] غير ربي لأتَّخذنَّ أبا بكر، ولكن أُخوَّة الإسلام وموَدَّتُهُ، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر».

ولما جاء عَمْرو بن العاص إلى النبي ﷺ يسأله: أي الناس أحبُّ إليك؟

---

(١) ظُلَّة: سحابة. تَنْطُف: تقطر قليلاً قليلاً. يتكفَّفُون: يأخذون بأكفهم. سبباً: حَبْلاً.

(٢) والآخران هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٣) **الخُلّة**: الصداقة والمحبة التي تخلَّلت القلب فصارت خلاله، **والخليل**: الصديق. وإنما قال ﷺ ذلك لأنَّ خُلَّته مقصورة على حب الله تعالى، فليس فيها لغيره مُتَّسع ولا شَرِكَة من محابِّ الدنيا والآخرة. وهذه حال شريفة يختص الله بها من يشاء من عباده مثل رسول الله ﷺ.

قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها». قلت: ثم مَنْ؟ قال: «عمر ابن الخطاب». فعدَّ رجالاً.

وعندما قدم رسول الله ﷺ من حجة الوداع، صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس! إنَّ أبا بكر لم يسؤني قط، فاعرفوا له ذلك. أيها الناس إني راضٍ عنه، وعن عمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وسعد وعبد الرحمن بن عوف، والمهاجرين الأولين، فاعرفوا ذلك لهم».

وحتى في حلقة النبي ﷺ كان له المكان المميَّز، فإذا تأخر عن الحضور لأمر عارض لم يبح أحدٌ لنفسه الجلوس فيه، ينقل ذلك أحد الأنصار فيقول: (إنْ كانت حلقة رسول الله ﷺ لتشتبك حتى تصيرَ كالإسْوار، وإنَّ مجلسَ أبي بكر منها لفارغٌ، ما يطمعُ فيه أحد من الناس، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس، وأقبل عليه النبي ﷺ بوجهه، وألقى إليه حديثه، وسمع الناس).

وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يقول: «آمنتُ بذلك وأبو بكر وعمر» أمام الناس وليس ثَمَّ هما، تبياناً لعظيم إيمانهما، وثقة رسول الله ﷺ بهما.

●● لهذا كان الصحابة يعظِّمون أمر الصدّيق، ويكرهون مخاصمته حتى لا يغضب النبي ﷺ لغضبه.

يحدّثنا أبو الدرداء عن واحدٍ من تلك المواقف فيقول: (كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامَرَ»!.

فسلَّم وقال: إني بيني وبين ابن الخطاب شيءٌ، فأسرعتُ إليه، ثم ندمتُ، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ، فأقبلتُ إليك.

فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر»، ثلاثاً.

ثم إنَّ عمر نَدِمَ، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى النبيَّ ﷺ، فسلَّم، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر، حتى أشفقَ أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، واللهِ أنا كنتُ أظلمَ، مرتين.

فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَقَ. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي»، مرتين. فما أوذِيَ بعدها)(١).

وذات مرة استَبَّ عقيل بن أبي طالب وأبو بكر - وكان أبو بكر نسَّاباً، غير أنه تحرَّج من قرابته من النبي ﷺ - فأعرض عنه، وشكاه إلى النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ في الناس فقال: «ألا تَدَعُون لي صاحبي؟ ما شأنكم وشأنه؟! فوالله ما منكم رجل إلا على باب بيته ظُلْمة، إلا باب أبي بكر، فإنَّ على بابه النور. فوالله لقد قلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ. وأمسكتم الأموال، وجادَ لي بماله. وخذلتموني، وواساني واتَّبعني»!!.

●● ولقد عرف الصحابة جميعاً منزلة أبي بكر من رسول الله ﷺ، ومكانته في الإسلام في حياة النبي ﷺ، وأثناء خلافة الصدّيق، وبعد موته.

يقول عبد الله بن عمر: (كنَّا نُخَيِّر بين الناس في زمن النبي ﷺ، فنخيِّر أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، رضي الله عنهم)(٢).

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء نفر فقالوا له: والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط، ولا أقوَل بالحق، ولا أشدَّ على المنافقين منك يا أمير المؤمنين؛ فأنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ!.

فقال عوف بن مالك رضي الله عنه: كذبتم(٣) - والله - لقد رأينا خيراً منه بعد النبي ﷺ!. فقالوا: من هو يا عوف؟. فقال: أبو بكر. فقال عمر: صدق عوف وكذبتم، والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا أضلّ من بعير

---

(١) غامر: خاصَمَ. فأسرعتُ إليه: أي أسرعتُ إليه بالكلام الغليظ. يتمعَّر: يتغيَّر لونه من الضجر. أشفق: خاف على عمر، فجلس يستعطف النبيَّ ﷺ.

(٢) نُخَيِّر: أي نقول: فلان خير من فلان.

(٣) كذب بلغة قريش: ما كان بخلاف الصواب سواء كان عمداً أم خطأً، وهو هنا بمعنى أخطأتم.

أهلي[(١)]!! .

ووفد أناس من أهل الكوفة وأهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونزلوا المدينة، وتحدَّث القوم بينهم، إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر، ففضَّلَ بعض القوم أبا بكر على عمرَ، وفضَّل بعض القوم عمرَ على أبي بكر .

وعلم عمر بالأمر، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : ألا إنَّ أفضل هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفترٍ، عليه ما على المفتري .

ولما سأل محمد ابن الحنفية أباه علي بن أبي طالب، فقال: (قلت لأبي : أي الناس خيرٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم مَنْ؟ قال: عمر. وخشيت أن يقول عثمان، فقلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين)! .

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية : فلما جلس قال له معاوية : ما تقول في أبي بكر؟ . فقال ابن عباس :

(رحم الله أبا بكر، كان ـ والله ـ للقرآن تالياً، وعن الميل نائياً، وعن الفحشاء ساهياً، وعن المنكر ناهياً، وبدينه عارفاً، ومن الله خائفاً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، ومن دنياه سالماً، وعلى عدل البرية عازماً، وبالمعروف آمراً، وإليه صائراً، وفي الأحوال شاكراً، ولله في الغدو والروْح ذاكراً، ولنفسه بالمصالح قاهراً. فاق أصحابه ورعاً وكفافاً، وزهداً وعفافاً، وبرّاً وحِياطة، وزهادة وكفاءة، فأعقبَ الله مَنْ ثَلَبَه اللعائنَ إلى يوم القيامة)

أوَّليـاته:

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه بين الناس كالقَطْر، أينما وقع نفع، وحاز أشياء ما سبقه إليها أحد؛ فهو :

أول من أسلم من الرجال الأحرار الذين قويت بهم الدعوة، وأول من حجَّ

---

(١) أي : حين كان مشركاً .

أميراً في الإسلام؛ حيث سيَّره رسول الله ﷺ ليحج بالناس أميراً سنة تسع، وأول من سُمِّي خليفة رسول الله ﷺ، وأول من جمع القرآن وسمَّاه مصحفاً، وأول من اتخذ بيت المال.

من أهل الجنة:

ونال الصدّيق بشرى النبي ﷺ بأنه من أهل الجنة، بل هو من أصحاب الدرجات العلى، وأرفع درجات الصديقين.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الدرجات العُلى ليراهم مَنْ تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم».

وروى عبد الرحمن بن عوف، عن رسول الله ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، . . .»، وذكر تمام العشرة.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «هذانِ سيِّدا كُهولِ أهل الجنة من الأوَّلين والآخِرين، إلا النَّبِيِّينَ والمُرسَلينَ».

* * *

الفَصـل الرابـع

خـلافته وجـلائل أعماله

موقفه عندما مات رسول الله ﷺ:

لقد كان أبو بكر في حياة النبي ﷺ يعيش في الظلّ، ويُؤْثر ذلك، فيكون بين المسلمين واحداً منهم، ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، قام أبو بكر في الناس، يكشف لهم الطريق، ويقودهم إلى الحقّ. وبرزت للناس عَظَمَتُه، في الوقت الذي كان فيه الصحابة بل الدعوة الإسلامية بحاجة إلى تلك الوقفات الفذّة حتى تهديها السبيل.

ففي آخر يوم من أيام رسول الله ﷺ، وبعد أن صلَّى أبو بكر بالناس، دخل فعادَ النبيَّ ﷺ في حجرته، واستأذنه أن يغيب بعض الوقت، وذهب إلى داره (بالسُّنْح)[1]، وبينا هو هناك أتاه الناعي ليلقي عليه النبأ المهول: (لقد مات رسول الله ﷺ).

واختلطت دموعه الهاطلة بصوته المتهدج، وهو يقول: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون). فأغذَّ السير رابطَ الجأش إلى بيت رسول الله ﷺ.

ولندع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصدمة الأولى، فيقول: (وأقبل أبو بكر مكروباً حزيناً، فاستأذن في بيت ابنته عائشة، فأذِنت له فدخل، ورسول الله ﷺ مسجًّى في ناحية البيت، فكشف عن رسول الله ﷺ، فجثا عليه يقبِّله ويبكي ويقول: ليس ما يقول ابن الخطاب شيئاً، توفي رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده. رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبَك حياً وميتاً!! ثم غشاه بالثوب.

---

(١) السنح: إحدى محالّ المدينة، كان بها منزل أبي بكر حين تزوّج حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاري.

ثم خرج سريعاً إلى المسجد، يتخطَّى رقاب الناس، حتى أتى المنبر، وجلس عمرُ حين رأى أبا بكر مقبلاً إليه، وقام أبو بكر إلى جانب المنبر، ونادى الناسَ فجلسوا، وأنصتوا، فتشهّد أبو بكر بما عَلِمه من التشهد، وقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلّ نَعَى نبيَّه إلى نفسه وهو حيٌّ بين أظهركم، ونَعَاكم إلى أنفسكم ـ وهو الموت ـ حتى لا يبقى منكم أحد إلا الله عزَّ وجل. قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ـ فقال عمر: هذه الآية في القرآن؟! والله ما علمتُ أنَّ هذه الآية أُنزلت قبل اليوم!! ـ وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال الله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إنَّ اللهَ عمَّرَ محمداً وأبقاه، حتى أقام دين الله، وأظهرَ أمرَ الله، وبلَّغَ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفَّاه الله على ذلك. وقد ترككم على الطريقة، فلم يَهلك هالك إلا من بعد البيِّنة والشفاء، فمن كان الله ربه، فإن الله حيّ لا يموت، ومن كان يعبد محمداً، ويُنْزِله إلـٰهاً، فقد هلك إلـٰهُهُ! فاتّقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكَّلوا على ربّكم، فإنَّ دين الله قائم، وإنَّ كلمة الله تامة، وإنَّ اللهَ ناصرٌ من نصره، ومعزّ دينه.

وإنَّ كتاب الله بين أظهرنا، وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً ﷺ، وفيه حلاله وحرامه. والله ما نبالي من أجْلَبَ علينا من خلق الله، إنَّ سيوفنا لمسلولة، ما وضعناها بعدُ، ولنجاهدنَّ من خالفنا، كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ، فلا يبغينَّ أحدٌ إلا على نفسه)!!.

أيُّ عَظَمة وثبات ورسوخ وبهاء، هذا الذي صدر من الصدِّيق؟! وأية بصيرة نافذة، وحكمة بالغة، واستكشافٍ مُلْهَم للمستقبل بلَغه أبو بكر؟!.

الإشارة النبوية إلى خلافته:

ولقد كان لموقف أبي بكر هذا، مع ماضيه الحافل بكل مكرمة وكل بطولة؛

الأثر الأكبر في تطلّع الأنظار إليه، وأنه الرجل الذي سيملأ الفراغ الكبير الذي تركه رسول الله ﷺ برحيله إلى جوار ربه.

انضمَّ إلى ذلك إرهاصات واضحة بخلافته، تشير حتى تكاد تنطق بدوره المُقبِل، وتُقدِّمه وتزكِّيه.

ففي مرض النبي ﷺ اختار أبا بكر ليصلّي بالناس، يروي ذلك عبد الله بن زمعة فيقول: (لما استُعِزَّ[1] بالنبي ﷺ، وأنا عنده في نفرٍ من الناس، دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مُروا أبا بكر يصلِّي بالناس». قال: فخرجنا فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: يا عمر، قم فصلِّ للناس، فتقدَّم فكبَّر، فلما سمع النبي ﷺ صوته ـ وكان عمر رجلاً مُجْهِراً[2] ـ قال: «فأين أبو بكر؟! يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون»! فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلَّى عمر تلك الصلاة، فصلّى بالناس).

ولما راجعتْ أمُّ المؤمنين عائشة رسولَ الله ﷺ في ذلك، قال: «ليصلِّ بالناس أبو بكر، فإنكنَّ صواحبُ يوسف»[3].

وجاءت امرأة فسألت رسولَ الله ﷺ شيئاً، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، أرأيتَ إن جئتُ فلم أجدك؟! ـ كأنها تعني الموت ـ قال: «فإن لم تجديني فأتي أبا بكر».

وفي أواخر أيامه ﷺ قال: «لو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي لاتّخذتُ أبا بكر، ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّتُه، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر».

وأعظم من ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة، قالت: (لمَّا ثَقُل رسول الله، دعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: «ائتني بكتفٍ حتى أكتبَ لأبي بكر كتاباً لا يُخْتَلَفُ

---

(١) **استُعِزَّ**: أي اشتدَّ به المرض، وأشرف على الموت.

(٢) **مجهراً**: أي صاحب جَهْر ورفعٍ لصوته.

(٣) **فإنكن صواحب يوسف**: أي من التظاهر على ما تُرِدْن، وكثرة إلحاحكنَّ في طلب ما ترِدْنه وتمِلْن إليه.

عليه» . فذهب عبد الرحمن ليقوم، فقال: «اجلس، أبى الله والمؤمنون أن يُخْتَلَفَ على أبي بكر») .

بيعته وقصة السقيفة:

وما إن علم باجتماع الأنصار في (سَقيفة بني ساعِدة)، حتى أسرع إليهم مع عمر وأبي عبيدة، ليُسْكِتَ الفتنة، ويدلّهم على من رضيه لدينهم خليفةً لرسول الله ﷺ فيبايعوه: عمر أو أبي عبيدة، وما علم أن البيعة ستكون له!! .

ولندع أبا حفص عمر يصوِّر لنا ذلك الموقف فيقول :

قلتُ لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دَنَونا منهم، لقِيَنَا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تَمَالأَ عليه القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقال: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقْضُوا أمركم. فقلتُ: والله لنأتينَّهم.

فانطلقنا حتى أتيناهم في (سقيفة بني ساعدة)، فإذا رجل مُزَمَّلٌ بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما لَهُ؟ قالوا: يُوْعَكُ. فلما جلسنا قليلاً تشهَّد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد، فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رَهْطٌ، وقد دفَّتْ دافَّةٌ[1] من قومكم، فإذا هم يريدون أن يَخْتَزِلُونَا[2] من أصلنا، وأن يَحْضنونا[3] من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلَّم، وكنت زوَّرْتُ[4] مقالةً أعجبتني، أردتُ أن

---

(١) **الدافَّة**: الرفقة يسيرون سيراً ليّناً، والمعنى: إنكم قوم غرباء مطرودون، أقبلتم من مكة إلينا.

(٢) **يختزلونا**: أي يقتطعونا من الأمر، وينفردوا به دوننا.

(٣) **يحضنونا**: يخرجونا من الإمارة والحكم، ويستأثروا به علينا.

(٤) **زورت**: من التزوير، وهو التحسين والتزيين.

أقدِّمها بين يدي أبي بكر، وكنت أُداري منه بعض الحَدِّ[١].

فلما أردت أن أتكلَّم، قال أبو بكر: على رِسْلِكَ[٢]، فكرهت أن أغضبه، فتكلَّم أبو بكر، فكان هو أحلمَ مني وأوقر!! والله ما ترك من كلمةٍ أعجبتني في تزويري؛ إلا قال في بديهته[٣] مثلها أو أفضل منها، حتى سكتَ.

فقال: ما ذكرتم فيكم فأنتم له أهل، ولن يُعْرَفَ هذا الأمر[٤] إلا لهذا الحيّ من قريش[٥]، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيدِ أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا.

فلم أكره مما قال غيرها! كان والله أن أُقَدَّمَ فتُضربَ عنقي، لا يقرِّبني ذلك من إثم، أحبَّ إليَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر! اللهمَّ إلا أن تسوِّلَ لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ[٦]، وعُذَيْقُها المرَجَّبُ[٧]، منا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش.

فكثُر اللَّغَطُ، وارتفعت الأصوات، حتى فَرِقْتُ من الاختلاف؛ فقلت:

(ابسطْ يدكَ يا أبا بكر، فبسطَ يده فبايعتُه، وبايَعَه المهاجرون، ثم بايَعَتْهُ الأنصار).

وقام عمر فذكَّرهم بذلك الموقف النبوي الذي لم يزل رطباً، فقال: ألستم تعلمون أنّ رسولَ الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس؟! فأيُّكم تطيب نفسُه أن يتقدَّم أبا بكر؟! فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدَّم أبا بكر!.

---

(١) **أداري منه بعض الحدّ**: أي أدفع عنه بعض ما يعتريه من الغضب ونحوه.

(٢) **على رسلك**: اتئد، واستعمل الرفق.

(٣) هي سداد الرأي عند المفاجأة.

(٤) **هذا الأمر**: أي الخلافة.

(٥) **هذا الحيّ من قريش**: أي المهاجرين.

(٦) **جذيلها المحكك**: أي أنا ممن يُستشفى برأيه.

(٧) **عذيقها المرجَّب**: أي أنه داهية عالم بالأمور.

وقام زيد بن ثابت الأنصاري فقال : (أتعلمون أنَّ رسولَ الله ﷺ كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ؟! فنحن أنصار خليفته، كما كنّا أنصاره، ثم أخذ بيد أبي بكر فقال : هذا صاحبكم! فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون والأنصار).

وقال علي بن أبي طالب : (إنَّ رسول الله ﷺ مرض ليالي وأياماً، ينادي بالصلاة فيقول : «مُروا أبا بكر يصلّي بالناس». فلما قُبض رسول الله ﷺ، نظرت فإذا الصلاة عَلَمُ الإسلام، وقوامُ الدين، فرضينا لدنيانا مَن رضيه رسول الله ﷺ لدِيننا، فبايَعْنا أبا بكر).

خوفه من الإمارة والحكم:

وهكذا أصبح أبو بكر الصدّيق خليفة رسول الله ﷺ، وإمام المسلمين عامة، لا طمعاً فيها ولا رغبة، إنما تلبية لتبعات إيمانه، ومسؤولياته تجاه دينه، وتخوُّفاً من فتنة رابية.

وأعلن على ملأ من الناس، حيث قام فيهم خطيباً فقال : (والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلةً قطُّ، ولا كنتُ راغباً فيها، ولا سألتُها الله في سرٍّ ولا علانية، ولكن أشفقتُ من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، لقد قُلِّدتُ أمراً عظيماً ما لي به من طاقة ولا يدٍ إلا بتقوية الله).

خطته في الخلافة وعطاؤه:

وغداة يوم الثلاثاء يمَّم الصدّيق وجهه شطر منبر رسول الله ﷺ على حياء ووجل، واستقبل الحشود الهائلة، وألقى عليهم أولى كلماته بعد أن انقطع الوحي ووُرِيَ الجثمان الطاهر التراب!! قال :

(أمَّا بعدُ، أيها الناس : فإني قد وُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوّموني، الصدقُ أمانةٌ، والكذبُ خيانةٌ، الضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى أُرْجِعَ عليه حقَّه إنْ شاءَ اللهُ، والقويُّ فيكم ضعيفٌ عندي حتَّى آخُذَ الحقَّ منه إنْ شاءَ اللهُ، لا يَدَعُ قومٌ الجهادَ في سبيلِ الله إلاَّ ضربهم اللهُ بالذُّلِّ، ولا تشيعُ الفاحشةُ في قومٍ إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ اللهَ

ورسولَه، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعةَ لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).

إنه يريد أن يقِرَّ في نفس كل أحد أن الحكم مَغْرَمٌ لا مَغْنَمٌ، وتكليف لا تشريف، وتضحية لا تزكية، وواجب لا استعلاء. ويريد أن ينزع من صدور الناس أي وَهَمٍ يجعلهم يضعون الحاكم فوق قدره ومنزلته. ويريد أن يقرّر أنّ الحاكم وُجد لخدمة دينه ورسالته، فهو قد استخلفه الله ليخدمَهم لا ليخدموه! وقد حدَّد لهم مسؤولياته، كما بيَّن لهم واجباتهم، **فالأمة شريكة في الحُكْم، فعليها أن تكون شريكاً بصيراً لا تابعاً ضريراً.**

وفرض له المسلمون ألفي درهم في العام، فقال: (زيدوني، فإنّ لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة. فزادوه خمسَ مئة!).

قتال المرتدين:

وما كاد نبأ وفاة النبيِّ ﷺ يذيع في البلاد، حتى ارتدَّتْ طوائف من حديثي العهد بالإسلام، الذين كان الدين في وجدانهم مرتبطاً بحياة الرسول ﷺ، وتصوَّر المرجفون أنَّ الإسلام مات بموت نبيه ﷺ، فقام المغرضون ورؤساء القبائل، واستغلوا حداثةَ إسلام هؤلاء وغفلتهم وسذاجتهم، ونقضوا واحدة من قواعد الدين، فرفضوا أداء الزكاة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما توفِّي النبي ﷺ واستُخْلِفَ أبو بكر، وكَفَر من كَفَر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تُقاتِل الناسَ وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله، فمن قال: لا إلـه إلا الله؛ عَصَمَ مني مالَه ونفسَه إلا بحقِّه، وحسابُهُ على الله»؟!

قال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاةَ حقُّ المال، والله لو مَنَعُوني عَنَاقاً[1] كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعِها.

---

(١) **العناق**: هي الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.

قال عمر : فوالله ما هو إلا أنْ رأيتُ أنْ قد شَرَحَ الله صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنه الحق) .

واستشار الصدّيق الصحابة، وسمع منهم، ثم قام فخطبهم فقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: **(أما بعدُ: فإن الله بعث محمداً ﷺ والحقُّ قُلٌّ شريد، والإسلام غريب طريد، قد رَثَّ**[1] **حبلُه، وقلَّ أهلُه، فجمَعَهُمُ الله بمحمد ﷺ، وجعلهم الأمةَ الباقيةَ الوسطى. واللهِ لا أبرحُ أقومُ بأمر الله، وأجاهدُ في سبيل الله، حتى يُنجزَ الله وعدَه، ويوفيَ لنا عهده، فيُقتل مَن قُتل منّاً شهيداً في الجنة، ويَبقى من بَقي منّاً خليفةَ الله في أرضه، ووارثَ عباده. قضى اللهُ الحقَّ، فإنَّ الله تعالى قال ـ وليس لقوله خُلْف ـ:** ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ **[النور: ٥٥]. واللهِ لو مَنَعُوني عِقَالاً مما كانوا يعطونَ رسولَ الله ﷺ، ثم أقبلَ معهم الشجرُ والمَدَر**[2]**، والجنُّ والإنسُ؛ لجاهدتُهم حتى تلحقَ روحي بالله!! إنَّ الله لم يفرِّق بين الصلاة والزكاة ثم جمعهما.**

فكبَّر عمرُ وقال: واللهِ لقد علمتُ ـ والله حين عزمَ اللهُ لأبي بكر على قتالهم ـ أنه الحقُّ) .

ذلك هو موقف الخليفة الذي أشار النبي ﷺ باستخلافه، ورضيه المسلمون بالإجماع، ورأوا أنه أقواهم قوة، وأحزمهم حزماً، وأسدُّهم رأياً، وأعظمهم عظمة! فهو الرجل الذي خبأه القدر ليتحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مدى ما يستطيع الإيمان أن يقهر الصعاب، ويأتي بالمعجزات.

يقول هذا لأنه خليفة رسول الله ﷺ، ومقامه ذاك يقتضي الإذعان الكامل لأوامره، فهو يحمل المسؤولية عن هذا الدين، أَفَيُنْتَقَصُ الدين وهو حيٌّ؟! لا يكون ذلك أبداً، فكلُّ فريضة توفي النبيّ ﷺ وهي قائمة، يجب أن تبقى كذلك مهما كانت التضحيات.

---

(١) رثّ: أي ضعف.

(٢) أهل المدر: سكان البيوت المبنية، وأهل الوبر: البدو سكان الخيام.

وركب أبو بكر رضي الله عنه في الجيوش الإسلامية شاهراً سيفه، من المدينة المنورة إلى (ذي القَصَّة)[١]، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقود راحلة الصدّيق، يريد قتال المرتدين بنفسه، فسأله الصحابة وألحُّوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره، ممَّن يؤمِّره من الشجعان الأبطال.

وقال له علي بن أبي طالب: إلى أين يا خليفة رسول الله؟! أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أُحُد: «شِمْ سَيْفَك، ولا تَفْجَعْنا بنَفْسِك»، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فُجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً!.

ولم يزالوا به حتى رجع.

وجيَّش جيوشه، وأرسل بأسه العادل وسيفه القاطع على المرتدّين، وعقد أحدَ عشرَ لواءً.

وتفرَّقت جنود الإسلام في أصقاع الجزيرة، وطاردوا فلولَ طُليحة الأسَدي، والأسْود العَنْسي، وسَجَاح، والقبائل المرتدة، وقضوا على نبوءة مُسيلمة الكذَّاب في (حديقة الموت)، وبسطوا في الأرض سلطان الحق، وأعادوا الأمر إلى نِصابه، فولَّت جيوش المرتدين الأدْبار، وتمزَّقوا بدداً، وتحطَّمت أمنياتُهم وأكاذيبُهم أمام العزيمة الصلبة والحق المبين.

إنفاذ بعث أسامة:

وكان رسول الله ﷺ قُبيل وفاته قد أعدَّ جيشاً وجهتُه الشام، تحت إمرة أسامة بن زيد، وأمره أن يُوطِئ الخيلَ تخومَ (البَلْقاء والداروم)[٢] من أرض فلسطين، فأوعبَ معه سبع مئة من المسلمين.

وسار الجيش حتى بلغ (الجُرْف)[٣]، وأرجأت زحفَه وفاةُ رسول الله ﷺ،

---

(١) **ذو القصَّة**: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً.
(٢) **البلقاء**: يطلق على ما يعرف الآن بالأردن، وهو الآن: إقليم في الأردن، تتوسطه مدينة عمَّان، ومن مدنه الزرقاء والسلط ومأدبا. **والداروم**: هي مدينة دير البلح اليوم في قطاع غزة، تقع على شاطئ البحر بين غزة وخان يونس.
(٣) **الجرف**: حي من أحياء المدينة الآن، متصل بها، فيه زراعة وسكان.

وآنذاك جاء الصحابة إلى أبي بكر، يطلبون إليه أن يردَّ أسامة بجيشه، لأن المدينة المنورة أصبحت مهددة من المرتدين، وإمضاء (بعث أسامة) مخاطرة رهيبة! وكان على رأسهم عمر بن الخطاب، ومن أنصار هذا الرأي أسامة نفسه قائد هذا الجيش.

والمسألة بمقياس المنطق لا يبدو الصواب إلا معها، ولكن أبا بكر ينظر إليها من جانب أنَّ رسول الله ﷺ عقد لأسامة اللواء، وأمر - وهو في مرضه - فقال: «أَنْفِذُوا جيش أسامة»، فليكن ما أمر به رسول الله ﷺ مهما تكن الأخطار المحدقة بالمدينة.

ولندعْ شاهد عيان يصف لنا الموقف، يقول أبو هريرة: (والذي لا إلـه إلا هو لولا أنَّ أبا بكر استُخلِف ما عُبِدَ الله! ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة. فقيل له: مَهْ يا أبا هريرة!. فقال: إنَّ رسول الله ﷺ وجَّه أسامة بن زيد في سبع مئة إلى الشام، فلما نزل بذي خُشُب[1]، قُبض النبيُّ ﷺ وارتدتِ العرب حول المدينة. واجتمع إليه أصحابُ رسول الله ﷺ فقالوا: ردّ هؤلاء، تُوَجِّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟!

فقال: والذي لا إلـه إلا هو لو جَرَّتِ الكلابُ بأرجلِ أزواج النبي ﷺ ما رددتُ جيشاً وجَّهه رسولُ الله ﷺ، ولا حَلَلْتُ لواءً عقده!!.

فوجَّه أسامة، فجعل لا يمرّ بقَبِيل[2] يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أنَّ لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يَلْقَوا الروم، فلَقَوهم، فهزموهم، وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام).

وقال لهم: (والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننتُ أنَّ السباع تخطفني لأنفذت بَعْثَ أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته).

---

(١) ذو خشب: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة باتجاه الشام.

(٢) القبيل: الجماعة.

ولقد كان الخير كل الخير في إنفاذ (بَعْث أسامة)؛ لأن القبائل لم تكد تبصر ذلك الجيش اللَّجِب، حتى ثابت إلى رشدها، وقالت: لو كان حقّاً أن المدينة تئن تحت وطأة الضعف والخلاف، لما كان بوسع خليفة المسلمين أن يسيّر مثل هذا الجيش في هذه الأيام ليقاتل الروم، فكان مجرَّد تحرك الجيش مثبطاً لمن تسلَّلت إلى نفوسهم فتنة الرِّدة.

فتوحاته:

وما إن استهلَّت سنة اثنتي عشرة للهجرة، حتى كانت جيوش الصدّيق وأمراؤه الذين بعثهم لقتال أهل الردة، وجيش أسامة الذي بعثه إلى الشام؛ جوَّالين في البلاد يميناً وشمالاً، فمهَّدوا قواعد الإسلام، وقتلوا الطغاة من الأنام، وردّوا شاردَ الدين بعد ذهابه، وأعادوا الحقَّ إلى نصابه، وتمهَّدت ـ بفضل الله ـ جزيرة العرب، فصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى.

وحين فرغ خالد بن الوليد من (معركة اليمامة)، وقضى على فتنة مسيلمة الكذاب؛ كتب أبو بكر الصدّيق إلى خالد ـ وهو باليمامة ـ يوجهه بمن معه إلى العراق.

فنَهَدَ خالد لذلك، وخاض المعارك الفاصلة المظفَّرة ضد الفُرس، كذات السَّلاسل، والمَذار، وأُلَّيْس، وغيرها. ثم ساروا إلى الحِيرة، والأنْبار، وعين التَّمر، ومنها إلى دُومَة الجَنْدل.

وبعدها سار خالد إلى الفِراض ـ وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة ـ ووقعت مع الروم معركة هائلة، قتل فيها المسلمون مئةَ ألف من عدوِّهم، وجاءت تباشير النصر إلى المدينة النبوية. فكتب الصدّيق إلى خالد: (لا يدخلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتذلّ، وإياك أن تدلَّ بعمل، فإن الله له المنّ وهو ولي الجزاء).

ودخلت سنة ثلاث عشرة والصدِّيق عازم على جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام، اقتداءً بالنبي ﷺ الذي جمع المسلمين لغزو الروم عام تبوك، وبَعَثَ أسامة بن زيد ليغزو تخوم الشام.

فقام أبو بكر فدعا عمر، وعثمان، وعلياً، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه، فقال:

(قد رأيتُ أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، ليؤيد الله المسلمين، ويجعل الله كلمته العليا، فَلْيُشِر امرؤٌ عليَّ برأيه).

فتكلَّم عمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وقال علي بن أبي طالب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون». فقال أبو بكر: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني به سرَّكَ الله.

وبعد أن استشار أبو بكر الناس، واستكشف مستكنَّات النفوس، عزم الله له على الرشد، فقام في الناس خطيباً، فذكر الله بما هو أهلُه، وصلَّى على نبيّه ﷺ، ثم قال:

(إنَّ الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضَّلكم بهذا الدين على أهل كل دين، فتجهَّزوا عبادَ الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمِّر عليكم أمراء، وعاقدٌ لهم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، لِتَحْسُنْ نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم، فإنَّ اللهَ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

وكتب أبو بكر إلى أهل اليمن يستنفرهم للجهاد في سبيل الله، ثم جمع الأمراء في أماكن متفرقة من جزيرة العرب، وعقد لهم الألوية والرايات، ولما ركبوا مشى معهم يودِّعهم، حتى بلغ ثَنِيَّة الوداع.

ثم أوصاهم فقال: (أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصرٌ دينَه. ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تجبنوا، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون. فإذا لقيتم العدو من المشركين ـ إن شاء الله ـ فادعوهم إلى ثلاث؛ فإن هم أجابوكم، فاقبلوا منهم، وكفُّوا عنهم. ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوكم، فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم. فإن هم أبَوا، أن يدخلوا

في الإسلام، فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا، فاقبلوا منهم، وكفّوا عنهم. وإن هم أبوا، فاستعينوا بالله عليهم، فقاتلوهم إن شاء الله.

ولا تعقرُنَّ نخلاً، ولا تحرقُنَّها، ولا تعقروا البهيمة، ولا شجرة بثمر، ولا تهدموا بِيْعة، ولا تقتلوا الولدان، ولا الشيوخ، ولا النساء).

● وكان أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص؛ فولاه أرضَ تيماء، يكون فيها فيمن معه من المسلمين حتى يأتيه أمره.

● وبعث أبا عبيدة على جند آخر، وجعل له نيابة حمص.

● وبعث عمرو بن العاص في ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وجعله على فلسطين.

● وشُرَحْبيل بن حَسْنة، أقبل من عند خالد من العراق، فأمَّره على جيش وبعثه إلى الشام.

● وعقد لواء ليزيد بن أبي سفيان، وجعل له دمشق.

ثم أمر كل أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر، لما لَحَظَ في ذلك من المصالح، مقتدياً بنبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف: ٦٧].

واجتمعت الجيوش الرومية مقابل كل أمير من المسلمين في جيش كثيف، وبعث المسلمون إلى أبي بكر يطلبون المدد، فكتب لهم: (اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً)، وجعل عليهم أبا عبيدة.

ثم بعث بإثر خالد بن الوليد إلى العراق، ليقدم إلى الشام، فيكون الأمير على من به.

وجاءت الأمداد إلى الروم، فاكتملوا مئتين وأربعين ألفاً، وانضم خالد وعكرمة بجيشيهما، فأصبح المسلمون زهاء أربعين ألفاً، وتواجه الجيشان في (اليرموك).

ونظر خالد فوجد الجيوش تقاتل متفرقة، فجيش أبي عبيدة وعَمْرو ناحية، وجيش يزيد وشُرحبيل ناحية؛ فأمرهم بالاجتماع، ونهاهم عن التفرّق والاختلاف، وقال: فلنتعاور الإمارة. ووليها خالدٌ أولاً.

وحمي وطيس المعركة، وتصاول الأبطال، وإبَّان احتدام الوغى جاء نَعْي الخليفة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه؛ فأُخفي نبأ ذلك عن الجيش، لئلا يدب فيهم الضعف. واستكملت الفتوح في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

جمع القرآن في مصحف:

وتمخضت عن تلك المعارك الفاصلة أحداث جسام، من أشدها خطراً على الإسلام موت حفظة القرآن العظيم في (معركة اليمامة). ففزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لذلك، فالصحابة قد انتشروا في الأصقاع يبلغون الناس الدعوة، والشهادة أمنية كل واحد منهم، والقرآن محفوظ في صدورهم، مما يجعل موتهم سبباً في ذهاب كثير من القرآن! فأسرع عمر إلى أبي بكر يشاوره في جمع القرآن في مصحف.

وتوقف الصدّيق أول الأمر، لأن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، فكيف يتجرّأ هو عليه!!.

ولم يزل عمر يراجعه ويناقشه، ويبيّن له وجوه الخير في ذلك، حتى انشرح له صدره، واطمأنت إليه نفسه.

ويحدِّثنا عن هذا الأمر الخطير كاتبُ الوحي الأمين زيدُ بن ثابت؛ فيقول: (أرسل إليَّ أبو بكر مَقْتَلَ أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده.

قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إن القتل قد اسْتَحَرَّ يوم اليمامة بِقُرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يَسْتَحِرَّ القتلُ بالقرّاء بالمَوَاطن[1]، فيذهبَ كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

---

(١) **استحرَّ**: اشتدَّ وكَثُر. **بقرّاء القرآن**: أي حَفَظَة القرآن. **بالمواطن**: هي المواضع التي سيغزو فيها المسلمون، والمعارك التي تكون بينهم وبين أعدائهم.

قلت لعمر : كيف تفعلُ شيئاً لم يفعلْه رسولُ الله ﷺ؟

قال عمر : هو واللهِ خير .

فلم يزل عمر يراجعُني، حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتَّهمك، وقد كنتَ تكتب الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن فاجْمَعْهُ. فواللهِ لو كلَّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله؟ قال : هو والله خير .

فلم يزل أبو بكر يراجعني، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

فتتبَّعتُ القرآنَ أجمعه من العُسُب واللِّخَافِ[1] **وصدور الرِّجال**، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خُزَيْمَةَ الأنصاري، لم أجدها مع أحدٍ غيره : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة : ١٢٨] حتى خاتمة براءة. فكانت الصُّحُف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياتَه، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما) .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إنَّ أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين) .

تواضعه ورحمته، وورعه وقضاؤه:

ومع هذه الصرامة في المواقف، والصلابة في الحق، كان قلبه يشيع رحمة، ونفسه تفيض حناناً ورأفة ورِقَّة. لم تغيِّر الخلافة من جوهر نفسه، ولا من أسلوب حياته، ولم ينسَ تواضعه وفضائله في زحمة انتصاراته، ولم يعشْ فوق

---

(١) **العُسُب** : جمع عَسِيب، وهو جريد النخل العريض. **اللِّخَاف** : جمع لَخْفَة، وهي حجارة بيضاء رقيقة .

الناس، بل ظلَّ واحداً بينهم.

هذه واحدة من النساء تقول: (نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل أن يُستخلف، وسنة بعدما استُخلِف، فكان جواري الحي يأتينه بغنمهن، فيحلب لهن!).

ولما قالت إحدى الجواري ـ بعدما بويع بالخلافة ـ: (الآن لا يحلب لنا مَنَائحنا[1]!! فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحْلُبَنَّها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيِّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنتُ عليه).

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يروي لنا استباقه مع الخليفة الصدّيق في خدمة عجوز عمياء، فقد (كان يتعهَّد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيسقي لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت. فجاءها غير مرة كيلا يُسبق إليها، فرصده عمر، فإذا هو بأبي بكر الذي يأتيها ـ وهو يومئذٍ خليفة ـ فقال عمر: أنت هو لَعَمْري!!).

وكان يقضي بين الناس، ويبيِّن لهم برأي سديد وجْهَ الحق فيما اختلفوا فيه. فقد جاءه مرة رجل فقال: (إن أبي يريد أن يأخذ مالي كله يجتاحه! فقال لأبيه: إنما لك من ماله ما يكفيك. فقال: يا خليفة رسول الله، أليس قد قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالُكَ لأبيك»؟! قال: نعم، وإنما يعني بذلك النفقة).

وإذا عُرضت عليه المسألة، ولم يجد عنده فيها علماً، سأل الصحابة هل سمعوا فيها من رسول الله ﷺ شيئاً، فإذا أجابوه قضى به، كما حدث له في ميراث الجدة. يقول قَبِيصة بن ذُوَيب: (جاءت الجدَّة إلى أبي بكر الصدّيق تسأله ميراثها، فقال: مالكِ في كتاب الله شيء، وما علمتُ لكِ في سنّة نبي الله ﷺ شيئاً، فارجعي حتى أسأل الناس؟.

فسأل الناسَ، فقال المغيرة بن شعبة: حضرتُ رسولَ الله ﷺ أعطاها السدس. فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مَسْلَمة فقال مثل ما قال

---

(١) **المنائح**: هي الغنم ذوات اللبن، مفردها مَنِيحة.

المغيرة . فأنفذه لها أبو بكر) .

وكان عمر قاضياً في خلافة الصدّيق، يقول عمر : (فلقد كان يأتي عليَّ الشهرُ ما يختصمُ إليَّ فيه اثنان) .

وفي العام الذي ولي فيه أبو بكر (استعملَ عمرَ على الحج، ثم حج أبو بكر من قابل، ثم اعتمر في شهر رجب سنة اثنتي عشرة، فدخل مكة ضَحْوةً، فأتى منزله، وأبو قحافة جالس على باب داره مع فتيان يحدّثهم، فقيل له : هذا ابنك .

فنهض قائماً، وعَجِل أبو بكر أن ينيخ راحلته، فنزل عنها وهي قائمة، فجعل يقول: يا أبهْ لا تقم، ثم التزمه، وقبَّل بين عيني أبي قحافة، وجعل أبو قحافة يبكي فرحاً بقدومه) .

اتخاذه بيت المال:

وكان يخاف الله في المسلمين، ويرعى الناس في أموالهم وحقوقهم، فجعل لما يأتيه (بيت مال) بالسُّنْح ليس يحرسه أحد! .

وكان يعطي ما فيه حتى لا يبقى فيه شيء، ويسوي بين الناس في القسم : (الحرّ والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، فيه سواء . وكان يشتري الإبل والخيل والسلاحَ، فيحمِلُ في سبيل الله . واشترى عاماً قطائف[1] أُتيَ بها من البادية، ففرّقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء) .

فلما توفي أبو بكر ودُفن، دعا عمر بن الخطاب الأمناءَ، ودخل بهم بيت مال أبي بكر، ومعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما، ففتحوا بيت المال، فلم يجدوا فيه ديناراً ولا درهماً، ووجدوا خَيشة للمال، فَنُفِضَتْ فوجدوا فيها درهماً!! فترحَّموا على أبي بكر .

استخلافه عمر:

واستمر الصدّيق على هذا النهج طيلة مدة خلافته، وختم ذلك بواحدة من

(١) **قطائف** : جمع قَطِيفة، وهي كساء له أهداب .

أحسن مناقبه، حيث استخلف عمر بن الخطاب على المسلمين، وما أراد أن يستبدّ بذلك، بل استدعى رؤوس المهاجرين والأنصار، يسألهم عن عمر ـ وهو به أعلم ـ، فلما ثقل به المرض (دعا عبدَ الرحمن بن عوف، فقال:

أخبرني عن عمر بن الخطاب؟.

فقال: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني.

فقال أبو بكر: وإنْ!.

فقال عبد الرحمن: هو والله أفْضَلُ مَنْ رأيُك فيه(١)!!.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر؟.

فقال: أنت أَخْبَرُنا به.

فقال: على ذلك يا أبا عبد الله.

فقال عثمان: اللهمَّ عِلْمي به أن سريرته خَيْرٌ من علانيته، وأنه ليس فينا مثله.

وشاوَرَ معهما سعيد بن زيد، وأُسَيْدَ بن الحُضَيْر، وغيرهما من المهاجرين والأنصار. فقال أُسيد: اللهمَّ أعلمه الخَيْرَة بعدك، يرضى للرضى، ويَسْخَطُ للسُّخْط، الذي يُسِرُّ خير من الذي يُعْلِن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه).

وعزم الصدِّيق على إعلانه استخلافه عمرَ بين الناس، فدخل عليه بعض الصحابة، وقال له قائل منهم: (ما أنت قائلٌ لربك إذا سألك عن استخلافِكَ عمرَ علينا وقد ترى غِلْظته)؟!.

فقال أبو بكر: (أجلسوني، أبالله تُخوِّفوني؟! خاب من تزوَّد من أمركم بظُلْم! أقول: اللهمَّ استخلفتُ عليهم خير أهلك، أبلغْ عني ما قلتُ لك مَنْ وراءك)!!.

---

(١) أي: هو أفضل مَنْ تراهم أهلاً للخلافة.

ثم اضطجع، ودعا عثمان بن عفان فقال: (اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عَهِدَ أبو بكر بن أبي قُحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويَصْدُقُ الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسولَه ودينه ونفسي وإياكم خيراً. فإن عَدَلَ فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكلِّ امرئ ما اكتسب. والخيرَ أردتُ، ولا أعلم الغيبَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ثم أمر بالكتاب فختمَه، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً، فبايع الناس ورَضُوا به.

ثم دعا أبو بكر عمرَ خالياً، فأوصاه وصية طويلة جليلة، قال في آخرها: (فإنْ أنت حفظتَ وصيتي، فلا يكُ غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ـ وهو آتيك ـ وإن أنتَ ضيَّعْتَ وصيتي، فلا يكُ غائبٌ أبغضَ إليك من الموت، ولست تُعجزه!).

ثم خرج عمر من عنده، فرفع أبو بكر يديه وقال: (اللهمَّ إني لم أُرِدْ إلا صلاحَهم، وخِفتُ عليهم الفتنة، فعملتُ فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدتُ لهم رأيي، فولَّيتُ عليهم خيرَهم وأقواهم عليهم، وأحرصَهم على ما أرشدهم، وقد حَضَرني من أمرك ما حضر، فاخلُفْني فيهم، فَهُم عبادُك، ونواصيهم بيدك، أصْلِح لهم واليَهم، واجعلْهُ من خلفائك الراشدين، يتَّبع هُدى نبي الرحمة، وهُدى الصالحين بعده، وأصلح له رعيَّتَه).

وما إنْ خرج عثمان بن عفان رضي الله عنه بالكتاب ليخبر الناس، حتى أشرف الصدّيق عليهم من كوة وقال: (أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضون؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله. فقام علي فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر! قال: فإنه عمر!!).

وما أبرعَ وأروعَ قولةَ عبد الله بن مسعود: (أَفْرَسُ الناس ثلاثة: أبو بكر حين

استخلف عمر، وصاحبة موسى حين قالت: استأجره، والعزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه).

* * *

الفَصل الخامِس

وفاته وأسرته

وصيته قبل موته:

واقترب الموت من أبي بكر، وحان الأجل المحتوم، فدعا ابنته عائشة رضي الله عنها، فأوصاها قائلاً:

(يا بنيّة، إنا وُلِّينا أمر المسلمين، فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً، ولكنّا أكلنا من جَرِيش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبقَ عندنا من فَيء المسلمين قليلٌ ولا كثيرٌ، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجَرْد هذه القطيفة، فإذا متُّ فابعثي بها إلى عمر.

وانظري اللِّقْحَة التي كنا نشرب من لبنها، والجَفْنَةَ التي كنّا نصطبغ فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا متُّ فارددِيه إلى عمر)[1].

وفاته: مرض الموت، ووصيته في تركته:

وكان أول مرض أبي بكر ـ كما روت ابنته عائشة ـ (أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خَلَوْنَ من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً، فَحُمَّ خمسة عشر يوماً، لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمرَ يصلِّي بالناس، ويدخل الناس عليه يعودونه، وهو يثقل كل يوم، وكان عثمان ألزَمَهم له في مرضه).

ثم أوصى بِخُمسِ ماله، وقال: (آخذُ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين). (لأن أوصي بالخُمس أحبُّ إليّ من أن أوصي بالربع، وأن أوصي

---

(١) **الناضح**: هو البعير الذي يستقى عليه الماء. **جرد هذه القطيفة**: التي انجرد خملها وبليت. **اللقحة**: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. **الجفنة**: القصعة.

بالربع أحبُّ إليَّ من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئاً)!.

وكان رضي الله عنه يقول في دعائه: (اللهمَّ اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك).

وألحَّ عليه المرض، واشتدَّ به، ودخلت عليه ابنته البارَّة الصدّيقة عائشة رضي الله عنها، فرأته يعالج سكرات الموت؛ فتمثَّلت بقول الشاعر:

لَعَمْـرُكَ مـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـنِ الفَتَـى إذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة قٓ: ١٩].

ثم قال لابنته: (في كم كفَّنتم النبيَّ ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ[١]، ليس فيها قميصٌ ولا عمامة. وقال لها: في أي يومٍ توفِّيَ رسول الله ﷺ؟. قالت: يوم الإثنين، قال: فأي يوم هذا؟. قالت: يوم الإثنين، قال: أرجو فيما بيني وبين الليل[٢]. فنظر إلى ثوب عليه كان يُمَرَّضُ فيه، به رَدْعٌ[٣] من زعفران؛ فقال: اغسلوا ثوبي هذا، وزيدوا عليه ثوبين، فكفِّنوني فيها. قلت: إن هذا خَلَقٌ[٤]؟ قال: إنَّ الحيَّ أحق بالجديد من الميت، إنما هو لِلْمُهْلَةِ[٥]. فلم يُتَوَفَّ حتى أمسى من ليلة الثلاثاء، ودُفن قبل أن يُصبح).

وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عُمَيْس، ويعينها عبد الرحمن بن أبي بكر، وأن يُدْفَن جنب رسول الله ﷺ.

غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه:

وغُسِّل الجسد الطاهر، وكُفِّن بما أوصى به في نزعه الأخير، وصلَّى عليه

---

(١) سَحولية: أي بيض، نسبة إلى سَحول وهي قرية باليمن.

(٢) **فيما بيني وبين الليل**: أي أتوقع أن تكون موتتي فيما بين ساعتي هذه وبين الليل.

(٣) **رَدْعٌ**: لَطْخ وأَثَر.

(٤) **خَلَق**: بالٍ غير جديد.

(٥) **للمُهْلَة**: للقيح والصديد الذي يذوب من جسم الميت.

عمر بن الخطاب، بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكبَّر عليه أربعاً، ثم حُفر له، وجُعل رأسه عند كَتِفَي النبي ﷺ، وأُلْصِق اللَّحد بقبر رسول الله ﷺ. ونزل في حفرته عمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان، وعبد الرحمن بن أبي بكر، ثم أُهيل عليه التراب، وارتجَّت مكة لموته، فقال أبو قحافة: ما هذا؟! قالوا: مات ابنك! قال: رُزْءٌ[1] جليل، من قام بالأمر بعده؟ قالوا: عمر، قال: صاحبه.

عمره ومدة خلافته:

وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وأياماً. وتُجمع الروايات على أنه توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وأنَّه استوفى بخلافته سِنَّ رسول الله ﷺ.

زوجاته وأولاده:

وتزوَّج الصدّيق أربع نسوة، هن:

قُتيلة بنت عبد العزى، وأم رومان بنت عامر، وأسماء بنت عُميس، وحبيبة بنت خارجة.

وكان له من الولد ستة؛ ثلاثة ذكور، وثلاث إناث.

فالذكور هم: **عبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد.**

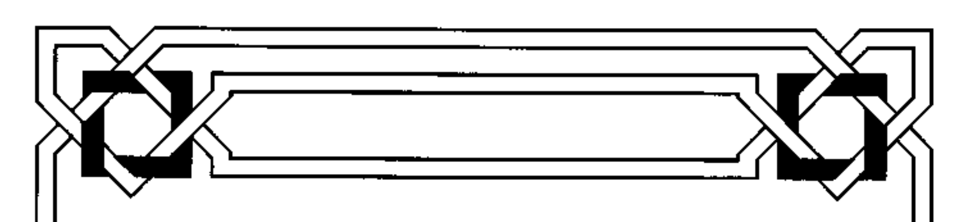
والإناث هنّ: **عائشة أم المؤمنين، وأسماء ذات النطاقين، وأم كلثوم،** وُلدت بُعَيد وفاة أبي بكر.

* * *

هذا هو أبو بكر، فمهما كتب الكاتبون، وأثنى المدَّاحون، وتكلَّم الخطباء، ونشر الناس، عن مناقبه وفضائله ومواقفه، فإنهم لا يرفعون بذلك عند الله من قَدْره، إنما يرفعون من أقدار أنفسهم، عندما يؤهِّلونها للحديث عن هذا العَلَم الشامخ، والإنسان الباهر، والخليفة الهاطل من السماء!!.

● ● ●

(١) الرُّزْء: المُصِيبة.



الباب الثاني

عمر بن الخطاب

عبقري الدنيا ومشيد دولة الإسلام

٤٠ ق.هـ ـ ٢٣هـ

الفصل الأول : نبعته وحليته وإسلامه

الفصل الثاني : صحبته وهجرته ومشاهده

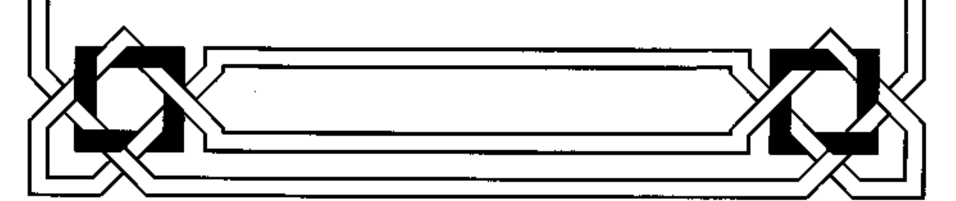
الفصل الثالث : أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

الفصل الرابع: في رحاب خلافته: سياسته وجلائل أعماله

الفصل الخامس: بناء الدولة ، وعبقرية عمر في تشييدها

الفصل السادس: مكملات في سيرته: أولياته وأقواله وخشيته، مسؤولية الخلافة

الفصل السابع : استشهاده ومراثيه وأسرته





الفَصلُ الأوّل

نبعته وحليته وإسلامه

اسمه ونسبه وولادته:

في رحاب مكة، وجوّها القائظ، وريحها اللافحة، وصحرائها القاحلة، وبعد حادثة الفيل بثلاث عشرة سنة؛ ولد عمر بن الخطَّاب بن نُفَيل بن عبد العزَّى، بن رياح ، بن عبد الله، بن قُرْظ، بن رزاح، بن عدي القرشي.

وأبوه الخطَّاب بن نُفيل العدوي، شديد البأس، قوي الشكيمة. وأمه حَنْتَمة بنت هاشم، بن المُغيرة، بن عبد الله، بن عُمر، بن مخزوم، ابنة عم أبي جهل!.

نشأ في كنف والده، وورث عنه طباعه الصارمة، التي لا تعرف الوهن، والحزم الذي لا يدانيه التردد، والتصميم الذي لا يقبل أنصاف الحلول.

حِلْيَتُه وصفاته ومكانته في قريش:

وصفه من رآه بأنه رجلٌ آدم[١]، أعْسَرَ يَسَر، يعمل بكلتا يديه، أصلع، ضخم، مفرط الطول، يفوق الناس طولاً، إذا كان بينهم بدا كأنه راكب على دابة والناس يمشون، كبير الشارب، إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع.

وبلغ من فروسيته وشدّة بنيانه أنه كان يأخذ بأذن الفرس بيد، وبأذنه بيده الأخرى، ثم يثب على الفرس!!.

وكان من أشراف قريش وأعيانها، وإليه كانت السِّفارة في الجاهلية،

---

(١) آدم: أي شديد السمرة.

فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم، أو بينهم وبين غيرهم، بعثوه سفيراً ـ أي رسولاً ـ وإذا نافرهم منافِر[1]، أو فاخرهم مفاخِر، رضوا به، وبعثوه منافراً ومفاخراً.

وهو رجل صافي النفس صفاء سماء مكة، واضح السريرة من غير تعرّج ولا انحناءات وضوح الصحراء التي ترعرع فيها، راسخ العزيمة رسوخ الجبال الرواسي التي رعى الأغنام بين جنباتها، متلألئ الصفات كالكوكب الدرّيّ في كبد السماء.

إسلامه:

جنَّد عمر نفسه في محادَّة دعوة الله سبحانه، عندما قام رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله وحده ونبذِ الأصنام.

وكان رسول الله ﷺ يطمع في إسلامه، لِمَا يعلمُه فيه من القوة التي اتسمت بالوضوح، والتفوق الباهر على أترابه، فكان يدعو الله ويقول: «اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ الرَّجُلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام». فكان أحبَّهما إلى الله عمرُ بن الخطاب.

وصعدت الدعوة إلى السماء، وأخذت الأقدار تغيِّر من وجهة عمر، ويحدِّثنا هو عن أول إشعاعات القرآن التي اخترقت قلبه الصلد ففتحت بعض مغاليقه، فيقول:

(خرجتُ أتعرَّض لرسول الله ﷺ، فوجدته سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن!.

فقلت: هذا ـ والله ـ شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١].

فقلت: كاهن؛ قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣

(١) تنافر الرجلان: إذا تفاخرا ثم حكَّما بينهما واحداً. والمنافرة: المفاخرة والمحاكمة.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٢ ـ ٤٧] حتى ختم السورة. فوقع الإسلام في قلبي كل موقع).

ويمرُّ عمر ذات يوم بأم عبد الله بنت أخي حَثْمَة، وقد ترحَّلت للهجرة إلى أرض الحبشة، فرآها على تلك الحال، فقال لها: (إنه للانطلاق يا أمَّ عبد الله)؟ قالت: نعم، والله لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتُمونا وقَهَرْتُمونا، حتى يجعل الله مخرجاً. فقال: صَحِبكم الله!!.

فكانت هذه هي الصيحة الثانية في قلب عمر، ما لبثَتْ أن خَفَتَ نورُها، وخَفتَّ أوارها، لكنها كانت بمثابة الفتيل الذي سيُضرم نارَه امرأةٌ شاهقة باهرة، رضعت مع عمر من ثدي واحد، ونشأت على نمط فذٍّ مثله.

فها هو ذا يخرج من داره في يوم لاهب، ميمِّماً شطر (دار الأرقم)، حيث كان الرسول ﷺ مع صحبه هناك، يريد قتله! فيلقاه في الطريق نُعيم بن عبد الله النحّام ـ وكان قد أسلم، وأخفى إسلامه فَرَقاً من قومه ـ فقال له: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرَّق أمر قريش، وسَفَّه أحلامها، وعاب دينَها، وسَبَّ آلهتها، فأقتله.

قال له نُعيم: والله لقد غَرَّتك نفسُك من نفسِك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟!

فقال عمر: ما أراك إلا قد صبوتَ، وتركتَ دينك الذي أنت عليه؟!.

قال نعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟!

قال: وأي أهل بيتي؟

قال: خَتَنُك[1] وابن عمِّك سعيد بن زيد بن عَمْرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد ـ والله ـ أسلما وتابَعَا محمداً على دينه، فعليك بهما!.

---

(١) **الخَتَن**: الصهر.

فرجع عمر عامداً إلى أخته وخَتَنِه، وعندهما خَبَّاب بن الأرتّ معه صحيفة فيها سورة ﴿طه﴾، يُقرِئهما إياها. فلما سمعوا حسَّ عمر، تغيَّبَ خبَّاب في مخدع لهم، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما.

فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمَة[1] التي سمعتُ؟

قالا له: ما سمعتَ شيئاً.

قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بخَتَنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجَّها.

فلمَّا فعل ذلك، قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!.

وهنا تقرع كلمة الحق الصادقة من أخته وختنه قلبَ عمر وهو في أوج بأسه، فتمزَّق ما عليه من غشاوة، فيلين ويتخشَّع. فنهض عمر من فوق صدر سعيد، وندم على ما صنع وارعوى، وتضرَّع إلى أخته فقال: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً؛ أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.

فلمَّا قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي. وحلف لها بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها.

فطمعتْ فاطمة بإسلامه، وقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وقرأ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن

(١) الهينمة: الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٨]، ويتابع عمر القراءة بقلب واجف، وجنان راجف، ويتلو بخشوع وتبتّل، حتى قرأ: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]. وما إن انتهى من هذه الآية حتى قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمَه! دلّوني على محمد.

فلمَّا سمع ذلك خبَّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس، وهو يقول: «اللهمَّ أيّد الإسلامَ بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر.

فقال له عند ذلك عمر: فدلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم البابَ، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلَل الباب، فرآه متوشحاً السيفَ، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وهو فَزِع فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشّحاً السيف!!.

فقال حمزة بن عبد المطلب: فَأْذَن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له». فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع ردائه، ثم جَبَذه جبذة شديدة وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة»!!.

فقال عمر: يا رسول الله، جئتُك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم!

وانضمَّ عمر إلى أربعين رجلاً كانوا سبقوه للإيمان بالله وبرسوله ﷺ، وكان ذلك في السنة السادسة للبعثة.

تسميته بالفاروق:

وفي اللحظة التي أعلن فيها عمر إسلامه، وقف بين يدي رسول الله ﷺ قائلاً : (يا رسول الله، أَلَسْنا على الحق إنْ مِتنا وإن حَيينا؟!

قال: «بلى والذي نفسي بيده، إنكم على الحق إن متّم وإن حَييتم».

فقلت : ففيمَ الاختفاء؟! والذي بعثك بالحق لنخرجَنَّ!.

فأخرجناه في صفَّين : حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كَدِيد[1] ككَديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال : فنظرتْ إليَّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبةٌ لم يُصِبْهم مثلها، فسمَّاني رسول الله ﷺ يومئذٍ : الفاروق).

جهره بإسلامه:

ويتابع عمر في مستوى أعلى وغاية أسمى، ويدوِّي بصوته المجلجل ليصكَّ آذان المشركين : (والله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف).

فيذهب إلى أبي جهل فيقرع بابه، فيقول : من هذا؟ فيجيب : عمر بن الخطاب، وقد أسلمتُ! فأجاف الباب في وجهه. ثم ذهب إلى رجل آخر من عظماء قريش، ففعل مثل الذي فعل مع أبي جهل، فقال عمر : ما هذا بشيء، إنَّ المسلمين يُضْرَبون ولا أُضْرَب!.

فيسأل عن رجل نقَّال للحديث، ليذيع نبأ إسلامه بين رجالات قريش، يُقال له : جميل بن مَعْمَر الجُمَحِيّ، فيأتيه عمر ويقول له : (أعلمتَ يا جميلُ أني قد أسلمتُ، ودخلتُ في دين محمد)؟!.

فوالله ما راجعه جميل حتى قام يجر رداءه، ووقف على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته : (يا معشر قريش، ألا إنَّ عمر بن الخطاب قد صبأ! وعمر

---

(١) كديد : هو التراب الناعم، فإذا وطئ ثار غباره، أراد أن الغبار كان يثور من مشيهم كغبار الطحين.

يقول من خلفه: كَذَبَ، ولكني قد أسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله).

فثاروا إليه فما بَرِحَ يُقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، حتى أعيى عمر، فقعد وهو يقول: (افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا)!.

ويصوِّر عبد الله بن مسعود أهمية إسلام عمر في نصرة الإسلام والمسلمين، فيقول: (كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتُنا وما نستطيعُ أن نصلّي في البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلمَ عمر قاتلهم، حتى تركونا فصلَّيْنا).

* * *

الفَصل الثاني

صحبته وهجرته ومشاهده

هجرته:

هاجر من هاجر من الصحابة إلى المدينة مستخفياً، أما عمر فأبَتْ عليه طبيعته المتفوقة إلا أن يهاجر جهاراً ليكون أنكى لقريش، وأقسى على قلبها. ويحدّثنا علي بن أبي طالب عن ذلك فيقول: (ما علمتُ أحداً من المهاجرين إلا هاجر مختفياً، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفَه، وتنكَّبَ قوسَه[1] وانتضَى[2] في يده أسهماً، واختصر عَنَزَته[3]، ومضى قِبَل الكعبة، والملأ من قريش بفِنَائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكّناً، ثم أتى المَقامَ فصلَّى متمكِّناً، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة وقال لهم:

شاهتِ[4] الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس[5]، مَن أراد أن تَثْكَلَه أمُّه، ويُؤْتَم ولده، وتَرْمُل زوجتُه، فلْيَلْقَني وراء هذا الوادي!.

قال علي: فما تبعه أحد، إلا قوم من المستضعفين علَّمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه).

مشاهده:

ووقعت معارك فاصلة وأيام حاسمة بين الحق والباطل، وشهد عمر كل

---

(١) **تنكب قوسه**: أي وضعها في منكبه.
(٢) **انتضى السهم**: أخرجه من الكنانة فجعله في يده.
(٣) **العَنَزَة**: أطول من العصا وأقصر من الرُّمْح، وفيها سِنَان مثل سنان الرمح، **والعكَّازة** قريب منها. واختصرها: أي وضعها على خصره.
(٤) **شاهت الوجوه**: أي قَبُحَت.
(٥) **المعاطس**: جمع مَعْطِس، وهو الأنف.

تلك المشاهد مع النبي ﷺ، وكان له في كل معركة ومشهد رأي بارز، وموقف مشهود.

فما تكاد (غزوة بدر) تنتهي، ويقع الأسرى في يد رسول الله ﷺ، حتى تظهر مشكلتهم، وماذا سيُفعل بهم. ويحدِّثنا عمر عن هذا فيقول: (استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العمِّ والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن نأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟

قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكِّنني من فلان ـ قريب عمر ـ فأضرب عنقه، وتمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم!.

فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء).

فنزلَ القرآن على وفق رأي عمر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ[1] عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

وفي (غزوة أُحد) ثَبَت مع رسول الله ﷺ لما انكشَف المسلمون وانهزموا، وتصدَّى لأبي سفيان عندما لعبتْ نشوة النصر برأسه، فقد أشرف أبو سفيان فقال: (أَفِي القوم محمدٌ؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابنُ أبي قحافة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات. ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتِلوا!!.

---

(١) **فيما أخذتم**: أي: من الفداء.

فما مَلَكَ عمرُ نفسَه، فقال: كذبتَ والله يا عدوَّ الله، إنَّ الذين عددتَ لأحياءٌ كلُّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك)!.

ثم نادى أبو سفيان بكلمات يمجِّد فيها آلهته، واختار رسول الله ﷺ عمرَ للردِّ عليه، لِما اختصَّ به من الصولة والمهابة.

قال أبو سفيان: أُعْلُ هُبَلْ.

فأجابه عمر: اللهُ أعلى وأجَلّ!.

ثم قال: لنا العُزَّى ولا عُزّى لكم.

فأجابه عمر: الله مولانا، والكافرون لا مولى لهم!.

ثم قال: يومٌ بيوم بدر، الأيام دُوَل، وإنَّ الحرب سِجَال.

ويجيبه عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار!!.

وفي (صلح الحُديبية) بعد أن مُنع الرسول ﷺ وصحابتُه من الاعتمار والطواف بالبيت الحرام، وجرتْ بنود الصلح، ورأى عمر فيها ما هو في صالح المشركين، وما داموا هم على الباطل فلا بدَّ من مناجزتهم ومصاولتهم، ولا بد للحق أن يستعلي بدل أن يُهادِن، وأن ينازِل بدل أن يصالح، هكذا فهم عمر المسألة وكوَّن رأيه فيها.

ويسرع إلى رسول الله ﷺ فيقول: (ألستَ نبيَّ الله حقاً؟

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟

قال: «بلى».

قلت: فلِمَ نُعطي الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟

قال: «إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري»).

وتقرع كلمةُ «إني رسول الله» سمعَ عمر وقلبَه، إنه لكذلك، وهو ما ينطق

عن الهوى، فلا بد من الإذعان والطاعة.

وبايع عمر بيعة الرضوان، وشهد خيبر والفتح وحُنيناً والطائف وتبوك، وسائر المشاهد.

حبُّـه للنبي ﷺ ودفاعه عنه:

بينا رسول الله ﷺ ذات يوم وهو آخذ بيد عمر، إذ يقول له عمر: (يا رسول الله، لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلّ شيءٍ إلا نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن ـ والله ـ لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن[1] يا عمر»).

لله درُّ عمر ما أوضحَه، وما أصدقَ صراحتَه، بل ما أسرعَ استجابتَه، وأقوى تبتُّلَه في محراب الإيمان، وهو لا يتلكأ في الإجابة، إنما يبادر مُلبياً لطبيعته المتفرِّدة.

ولقد حمل نفسه على أن يحب كل شيء يهواه رسول الله ﷺ أو يتمناه، فهذا عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب يقع أسيراً يوم بدر بيد رجلٍ من الأنصار، وقد أوعده أن يقتله، (فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتِلوه»! قال عمر: أفآتيهم؟ قال: «نعم». فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسِلوا العباس. فقالوا: لا والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رِضاً؟ قالوا: فإن كان له رِضاً فَخُذْه.

فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له عمر: يا عباس أسلِمْ، فواللهِ لأن تُسْلِم أحبُّ إليَّ من أن يُسْلِمَ الخطَّاب، وما ذاك إلا لِما رأيتُ رسولَ الله يعجبه إسلامك)!.

بل أصبح كل شيء يصدر عن النبي ﷺ معظَّماً لدى عمر، محترَماً موقَّراً عنده.

---

(١) أي: الآن عرفتَ فنطقتَ بما يجب.

يروي لنا عبد الله بن عباس حادثة وقعت في خلافة عمر، فيقول: (كان للعباس ميزاب على طريق عمر، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وكان قد ذُبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزابَ صُبَّ ماءٌ بدم الفرخين فأصاب عمرَ، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه، ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلَّى بالناس.

فأتاه العباس فقال له: والله إنه لَلموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ.

فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك لَما صعدتَ على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ. ففعل ذلك العباس!!).

وتآخى مع ذلك الحبِّ الغامر للنبي ﷺ الطاعةُ المطلقة لكل أمر يأمر به رسول الله ﷺ أو يفعله؛ فهذا عمر يذهب إلى الحج، ويؤدي المناسك على الوجه الذي فعله النبي ﷺ، ثم (جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله، فقال: إني أعلمُ أنك حجرٌ لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ النبيَّ ﷺ يقبّلُكَ ما قبَّلْتُك).

ثم قال: (فما لَنا وللرَّمَل، إنما كنا راءَيْنا به المشركين، وقد أهلكهم الله! ثم قال: شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحبُّ أن نتركَه)[1].

ورجل هذه صفاته وقناعاته، وتلك إمكاناته وطاقاته؛ نراه يدافع عن رسول الله ﷺ كلما وجد شيئاً قد ينال من قداسة الرسالة ومقام النبوّة، لا للذبّ عن مكانة النبي ﷺ السامقة الشاهقة وحسب، بل لأنه يعتقد تمام الاعتقاد أن أي تطاول أو تعدٍّ على شخص رسول الله ﷺ هو خدش لحرمات الشريعة، وجرأة على قدسيتها.

● فهذا حبر يهود زيد بن سَعْنَة، يأتي رسولَ الله ﷺ يتقاضاه دَيْناً، وكان قد عرف فيه كل علامات النبوة إلا اثنتين: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً.

(١) **الرَّمَل**: الهرولة. راءَيْنا: من الرُّؤية، أي: أَرَيْناهم بذلك أنَّا أقوياء.

يقول زيد : (فلمَّا حلَّ الأجل أتيته، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ـ وهو في جنازة مع أصحابه ـ ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت : يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لَمُطْل! .

قال : فنظر إليَّ عمر، وعيناه تدوران في وجهه كالفَلَك المستدير! ثم قال : يا عدوَّ الله، أتقولُ لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحقّ لولا ما أُحاذِر من لومه لضربتُ بسيفي رأسك)! .

ولما انقضَتْ غزوة بدر، وذَكرَ المشركون مصابهم في قتلاهم، عزم عُمير بن وَهْب الجُمَحِيُّ على قتل رسول الله ﷺ، فشَحَذَ سيفه، وانطلق حتى قدِم المدينة، وأناخ على باب المسجد، فرآه عمر ـ في نفر من المسلمين ـ فقال : (هذا الكلب عدو الله عُمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حرَّش بيننا وحَزَرَنا للقوم ببدر)[١] .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : (يا نبيَّ الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشحاً سيفه! .

قال : «فأَدْخِلْه عليَّ» .

فأقبل عمر، حتى أخذ بِحِمَالة سيفه في عنقه فَلَبَّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ) .

* * *

(١) حرَّش : أَفْسَد. حَزَرنا : أي قدَّر عددَنا تخميناً .

الفَصلُ الثالث

أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

إيمانه وتديّنه وتقواه:

ولقد بلغ عمر أوجاً شاهقاً في محراب الإيمان والتقوى، والتبتّل والإنابة، حتى إنَّ رسول الله ﷺ ليرى رؤيا عجيبة، فيقول: «بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ يُعْرَضُون عليَّ، وعليهم قُمُصٌ، منها ما يبلغ الثُّدِيَّ، ومنها ما دون ذلك، وعُرِض عليَّ عمر بن الخطاب، وعليه قميص يجرُّه[1]». قالوا: فما أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدِّينَ».

بكلماتٍ وجيزةٍ يصف النبيُّ ﷺ فيها عمر بأنه قد بلغ من التديّن الغايةَ، حتى تمكَّن الإيمان من نفسه أيَّما تمكّن.

ويرى النبيُّ ﷺ عمرَ داخلاً عليه ذات يوم، فيقول: «إيهاً يا بنَ الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقِيَك الشيطان سالكاً فجّاً قطُّ إلا سلك فَجّاً غيرَ فجِّك».

وَلَّت الشياطين الدُّبر فَرَقاً وخوفاً من هذا المؤمن الفذ، وقد أيستْ منه أن تصرفه عن عزائم الأمور! فهو إذا قال قال حقاً، وإذا آمن آمن صدقاً، لا يقول هُجْراً من القول وزوراً، ولا يفعل من الأمور نُكراً، وصدق علي بن أبي طالب عندما وصف عمر فقال: (كنا أصحابَ محمد ﷺ لا نشكُّ أن السكينة تنطق على لسان عمر).

وحَدَّث عبد الله بن شدَّاد عن إخباته فقال: (سمعتُ نَشيج عمر ـ رضي الله عنه ـ وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]).

---

(١) يجرّه: أي يسحبه على الأرض لطوله.

وقال عُبيد بن عُمير: (صلَّى بنا عمر بن الخطاب صلاة الفجر، فافتتح سورة يوسف، فقرأها حتى إذا بلغ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، بكى حتى انقطع، فركع).

وكان يحب الصلاة في كبد الليل، حدَّثت إحدى زوجاته فقالت: (كان يصلّي العَتَمة، ثم يأمر أن نضع عند رأسه تَوْراً من ماء نغطّيه، ويتعارَّ من الليل، فيضع يده في الماء فيمسح وجهه ويديه، ثم يذكر الله ما شاء أن يذكر، ثم يتعارّ مراراً، حتى يأتي على الساعة التي يقوم فيها لصلاته)[١].

وإذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه، وربما دعا أبا موسى الأشعري ـ وكان حسنَ الصوت جداً ـ وقال له: ذَكِّرنا ربَّنا عزَّ وجلّ. فيقرأ عليه القرآن.

وكان رضي الله عنه يصوم الدهر، وحج في خلافته بالناس عشر حجج متوالية.

وأما جودُه فقد وصفه مولاه أسلم فقال: (ما رأيتُ أحداً قطّ بعد رسول الله ﷺ حين قُبض، كان أجدَّ ولا أجودَ، حتى انتهى[٢]، من عمر بن الخطاب).

وبلغ من الزهد والترفّع عن ملذَّات الدنيا ما وصفه به معاوية رضي الله عنه أروعَ وصف وأدقَّه فقال: (أما أبو بكر: فلم يُرِد الدنيا ولم تُرِدْه، وأما عمر: فأرادتْه ولم يُرِدْها).

وقال سعد بن أبي وقاص: (ما كان عمر بأقدمنا هجرة، وقد عرفت بأي شيء فَضَلنا، كان أزهدنا في الدنيا).

وكان الفاروق على جانب عظيم من الخوف والرجاء، جلس عنده بعض أصحابه عند موته، وأثنوا عليه بما قدَّمه للإسلام، فقال: (والله لو أن لي طَلَاعَ[٣] الأرض ذَهَباً، لافتديتُ به من عذاب الله عزَّ وجلّ قبل أن أراه).

---

(١) **العَتَمة**: صلاة العشاء. تَوْراً: إناء من صُفْر أو حجارة. يتعارّ: يستيقظ.

(٢) **حتى انتهى**: أي إلى آخر عمره.

(٣) **طلاع**: ما يملأ الأرض يطلع، ويسيل.

وكثيراً ما كان يردِّد بين أصحابه وجلسائه : (لو نادى منادٍ من السماء : أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً، لخِفْتُ أن أكون أنا هو. ولو نادى منادٍ: أيها الناس، إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً؛ لرجوتُ أن أكونَ أنا هو).

وكان يطوف بالبيت العتيق ويقول: (اللهمَّ إنْ كنتَ كتبتني في السعادة فأَثْبِتْني فيها، وإنْ كنتَ كتبتني في الشقاوة فامحني منها، وأثبتني في السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِتُ وعندك أمُّ الكتاب).

قوله الحق وموافقاته:

ومن أبرز الصفات التي ميَّزت شخصية عمر قوله الحق، لا يخاف فيه لومة لائم، حتى قال فيه رسول الله ﷺ : «إنَّ الله تعالى جعلَ الحقَّ على لسانِ عمر وقلْبِه».

ولقد صحب الفاروق النبيَّ ﷺ سنوات طويلة، والوحي الأمين ينزل، ورسول الله ﷺ يبلِّغ الناس، ويعلِّمهم، ويبيِّن لهم، وتقع الواقعة، وتحدث مشكلات، ويكون لعمر فيها رأي؛ فيأتي الوحيُ مؤيِّداً لرأي عمر. بل إنَّ عمر يرى أموراً يتمنَّى أن تُبدَّل، ويستحسن أموراً أخرى، ويرجو أن تكون، فيتنزَّل القرآن وفق ما تحدَّث به عمر وتمنّاه.

وهذا من النِّعَم التي أفاءها الله على عمر، وبيَّنَها رسولُ الله ﷺ للناس بقوله : «قد كان يكون في الأممِ قَبْلَكُم مُحَدَّثُونَ[1]، فإن يكنْ في أمتي منهم أحدٌ، فإن عمر بن الخطاب منهم».

يقول عمر رضي الله عنه : (وافقتُ ربِّي في ثلاث، أوْ وَافَقَني ربي في ثلاثٍ، قلتُ : يا رسولَ الله، لو اتّخذتَ من مقام إبراهيم مُصَلَّى. فنزلت: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقلتُ : يا رسولَ الله، يدخلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمرتَ أمهاتِ المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية

(١) محدَّثون: أي يجري الصواب على ألسنتهم، أو يخطر ببالهم الشيء فيكون، بفضل من الله تعالى وتوفيق.

الحجاب. قال: وبَلَغني معاتبةُ النبيِّ ﷺ بعضَ نسائه، فدخلتُ عليهن، قلتُ: إن انتهيتُنَّ أو لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رسولَه ﷺ خيراً منكنّ، حتى أتيتُ إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أَمَا في رسول الله ﷺ ما يعِظُ نساءَه، حتى تعِظَهُنَّ أنت؟! فأنزل الله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]).

وكان من رأي عمر أن لا يُصَلَّى على منافق مات أبداً، لأنهم حادُّوا اللهَ ورسولَه، ونافقوا فَمَرَدُوا على النفاق، فنزل القرآن بذلك.

يقول عمر: (لمَّا مات عبد الله بن أُبيٍّ ابن سَلُول، دُعي له رسول الله ﷺ ليُصَلِّي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسول الله، أتصلّي على ابن أُبَيّ، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا؟ قال: أُعَدِّدُ عليه قولَه، فتبسَّمَ رسول الله ﷺ وقال: «أَخِّرْ عنِّي يا عمرُ». فلما أكثرتُ عليه قال: «إني خُيِّرْتُ فاخترْتُ، لو أَعلمُ أني لو زِدتُ على السبعين[1] يُغْفَر له لَزِدْتُ عليها»!.

قال: فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من (براءة): ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]. قال: فَعَجِبْتُ بعدُ من جُرأتي على رسول الله ﷺ، واللهُ ورسولُه أعلمُ).

وتمنّى تحريمَ الخمر، وكان يقول: (اللهمَّ بَيِّنْ لنا في الخمرِ بيانَ شفاءٍ). فأنزل الله تحريمها.

ونزل القرآن بتأييد رأيه في أسارى بدر.

وغير ذلك من مواقفه، وهي كثيرة.

شدته في الحق ووقوفه عنده:

وعمر الذي كان شديداً على الإسلام قبل دخوله فيه، أصبح شديداً للإسلام بعد أن أسلم، وأظهر من عزّة الإسلام والمسلمين أعلى ما تكون العزّة، فتحوّلت

---

(١) يريد قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

طاقته الهائلة وإمكاناته المحتشدة قوة للمسلمين، حتى وصفه النبي ﷺ بقوله: «أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمر».

هذا أبو سفيان بن حرب يأتي المدينة النبوية مسرعاً، للاعتذار عن قريش التي نقضت (صلح الحُديبية)، وليشدَّ في العَقْد، ويزيدَ في المدة، وكلَّم بعضَ الصحابة فما أجابوه لطلبه، ولمَّا كلَّم عمرَ ليشفع له عند رسول الله ﷺ، انتفضَ عمر وقال: (أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجدْ إلا الذَّرَّ[١] لجاهدتكم به)!!.

وأردف قائلاً: (ما كان من حِلْفنا جديداً فأَخْلَقَهُ الله، وما كان منه متيناً فقطَعَه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وَصَلَه الله).

ولقد كانت شدة الفاروق وهيبتُه تقرع الأفئدة، فكان شديدَ الهيبة حتى في قلوب أصحابه، ولْنُصغِ إلى سعد بن أبي وقاص يصوِّر لنا هذا المشهد في بيت النبوة، فيقول:

(استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش يكلِّمْنَهُ ويَسْتَكْثِرْنَه، عاليةً أصواتُهن، فلما استأذن عمر بن الخطاب قُمْنَ فبادَرْنَ الحجابَ، فأَذِنَ له رسول الله ﷺ، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك!.

فقال عمر: أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: «عجبتُ من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي، فلما سمعنَ صوتَكَ ابتدرْنَ الحِجاب»!.

ثم قال ﷺ: «إيهاً يا بنَ الخطاب، فوالذي نفسي بيده، ما لَقِيَكَ الشيطانُ سالكاً فجّاً إلا سَلكَ فجّاً غيرَ فَجِّك»).

وشدَّة الطبع في شخصية عمر، وحزمه وصلابة رأيه، وقوة نفسه، ما كانت بالتي تُخرجه عن طوره، أو أن يتعدَّى الحق قِيد أُنملة، بل كان وقَّافاً عندما يُذكَّر.

---

(١) الذرّ: صِغار النمل.

يصفه ابنه عبد الله فيقول: (ما رأيتُ عمرَ غَضِب قطُّ فذُكِر اللهُ عنده، أو خُوِّفَ، أو قرأ إنسان عنده آيةً من القرآن؛ إلا وَقَفَ عما كان يريد).

وقال بلال لأسلَمَ ـ مولى عمر ـ: (كيف تجدون عمر؟ فقال: خيرَ الناس، إلا أنه إذا غَضِب فهو أمر عظيم! فقال بلال: لو كنتُ عنده إذا غضب قرأتُ عليه القرآن حتى يذهبَ غضبُه).

ويقول مالك الدار ـ مولى عمر: (صاحَ عَلَيَّ عمرُ يوماً وعَلاَني بالدِّرَّة، فقلتُ: أُذَكِّرُكَ بالله! قال: فطَرَحَها، وقال: لقد ذكَّرْتَني عظيماً!).

علمه ومروياته ومن روى عنه:

ولقد أوتي عمر ذكاءً مبدعاً متوقّداً، أفاءه عليه ربه سبحانه، فكان واحداً من أكابر علماء الصحابة. وأشاد النبي ﷺ بهذه النعمة التي حباها اللهُ عمرَ، ونبَّه أصحابه على ما عنده لينهلوا منه، فقال: «بَيْنَا أنا نائمٌ، إذ أُتِيتُ بقَدَحِ لبنٍ فشربتُ حتى إني لأرى الرِّيَّ يخرج من أَظْفاري، ثم أَعطيتُ فَضْلي[1] عمرَ بنَ الخطاب». قالوا: فما أوَّلْتَه يا رسولَ الله؟ قال: «العِلْمَ».

وكان رضي الله عنه حريصاً على حضور مجالس العلم بين يدي رسول الله ﷺ، لا يترك واحداً منها يفوته، ويحدِّث عن ذلك فيقول: (كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أُميّة بن زيد ـ وهي من عَوَالي المدينة ـ وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ، يَنزلُ يوماً وأَنزلُ يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه بخبرِ ذلك اليوم من الوَحْي وغيرِه، وإذا نزل فعل مثل ذلك).

ويعبر عبد الله بن مسعود عن الرُّزْء الجليل الذي أصاب العلمَ عند موت عمر، فيقول: (**لو أنَّ علم عمر وُضع في كِفَّة ميزان، ووُضع علم أحياء الأرض في كفة، لرجَحَ علمُ عمر بعلمهم. ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. ولَمجلسٌ كنتُ أجلسه مع عمر أوثقُ في نفسي من عمل سنة**).

(١) فضلي: أي ما زاد عني من اللبن.

ويقول حذيفة بن اليمان : (كأنَّ علمَ الناس كان مدسوساً في حِجْر عمر) .

وحمل عنه العلم من الصحابة : عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وابنه عبد الله بن عمر، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن العاص، وابن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان، وعدي بن حاتم، وزيد بن ثابت، وابن الزبير، وأبو موسى الأشعري، وأبو هريرة، وأم المؤمنين عائشة، وابنته حفصة أم المؤمنين، وغيرهم كثير .

وروى عنه خلائق من التابعين .

من أهل الجنة:

وتوالت البشريات في الأحاديث الصحيحة الكثيرة تنصّ على أن عمر أحد المبشّرين بالجنة .

يجلس النبي ﷺ ذات مرة فيحدِّث أصحابه، فيقول : «بَيْنا أنا نائمٌ رأيتُني في الجنة، فإذا امرأةٌ تتوضأ إلى جانب قصرٍ، فقلتُ : لمن هذه؟ قالوا : لعمر. فذكرتُ غيرتَهُ، فولَّيْتُ مُدْبِراً»! فبكى عمر وهو في المجلس، ثم قال : أَوَ عليكَ يا رسول الله أغارُ؟! .

ويروي أبو موسى الأشعري فيقول : (كنتُ مع النبي ﷺ في حائطٍ من حِيطان المدينة، فجاء رجلٌ فاستَفْتَح، فقال النبي ﷺ : «افتَحْ له وبَشِّرْه بالجنة». ففتحت له، فإذا هو أبو بكر، فبشَّرْتُه بما قال النبي ﷺ، فحمدَ اللهَ. ثم جاء رجلٌ فاستفتح، فقال النبي ﷺ : «افتح له وبشِّرْه بالجنة». ففتحت له، فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمدَ الله) .

وروى علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : «أبو بكر وعمر سيِّدا كهولِ أهلِ الجنة، من الأوَّلين والآخِرين، ما خلا النَّبيين والمُرسَلين، لا تُخْبِرْهُما يا عليُّ» .

مكانته عند النبي ﷺ وأصحابه:

وتبوّأ الفاروق عند رسول الله ﷺ وصحابته الدرجة الثانية بعد أبي بكر

رضي الله عنهما .

يقول النبي ﷺ : «إني لا أَدري ما بقائي فيكم ، فاقتدوا باللَّذَيْن من بعدي : أبي بكر وعمر» .

بل إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أبانَ عن منزلة عمر عنده وفي الأمة ، فرفَعَه فوق كل ما سبق ، فقال : «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمرَ بن الخطاب»!! .

وكثيراً ما كان ﷺ يقول : «كنتُ وأبو بكر وعمر ، وفعلتُ وأبو بكر وعمر ، وانطلقتُ وأبو بكر وعمر ، وأُومنُ بذلك وأبو بكر وعمر» .

لذا أضحى الوزيرَ الثاني للنبي ﷺ بعد الصدّيق ، وهما بمنزلة السمع والبصر عنده .

ولقد كان الصحابة يعرفون للفاروق هذه المنزلة ، ويَضَعونه من أنفسهم حيث وضعه رسول الله ﷺ ، فقدَّموه ليصلِّي بهم في مرض النبي ﷺ حيث كان أبو بكر غائباً ، لأنهم علموا أنَّه أحقُّ مَن حَضَر بذلك .

وهذا أبو بكر يعلنها بين الناس : (ما على ظهرِ الأرضِ رجلٌ أحبُّ إليَّ من عمر) .

ويقول عبد الله بن عمر : (كُنَّا في زمن النبي ﷺ لا نَعْدِلُ بأبي بكرٍ أحداً ، ثم عمرَ ، ثم عثمانَ ، ثم نَتركُ أصحابَ النبي ﷺ لا نُفَاضِلُ بينهم) .

* * *

الفَصْل الرابع

في رحاب خلافته
سِيَاسَتُهُ وَجَلائِلُ أَعْمَالِهِ

استخلافه وبدايات ذلك:

تولى عمر الخلافةَ بعهدٍ من أبي بكر الصدّيق، ورضي المسلمون بذلك، وبايعوه البيعة العامة في المسجد. وتقبَّل الفاروق الخلافة وهو كاره لها، وصعد المنبر النبوي، وأَبَتْ عليه نفسه أن يقف حيث كان أبو بكر يقف، وصارَحَ الناس بذلك فقال: (ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر)، فنزل مرقاةً[1]!.

ثم استقبل المسلمين فقال: (أيها الناس، إني قد وُلِّيت عليكم، ولولا رجاءُ أن أكونَ خيرَكم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدَّكم اضْطِلاعاً بأموركم؛ ما تولَّيتُ ذلك منكم، ولكفى عمرَ انتظارُ الحساب.

ولو علمتُ أنّ أحداً من الناس أقوى عليه مني؛ لكنتُ أُقدَّمُ فَتُضْرَبُ عُنقي أحبَّ إليَّ من أن أَلِيَه).

ثم قال: (إنَّ اللهَ ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبيَّ، فوالله لا يَحْضُرني شيءٌ من أمركم فَيَلِيَه أحدٌ دوني، ولا يتغيَّبُ عني فآلو[2] فيه عن الجَزْءِ[3] والأمانة، ولئِنْ أحسنوا لأُحْسِنَنَّ إليهم، ولئن أساؤوا لأُنَكِّلَنَّ بهم).

ورفع يديه يجأرُ بالدعاء، وطلب من المسلمين أن يؤمِّنوا، فقال: (اللهمَّ إني شديدٌ فلَيِّنِّي، وإني ضعيفٌ فقَوِّني، وإني بخيلٌ فَسَخِّني)!!.

---

(١) أي: درجة.

(٢) أي: فأقصِّر.

(٣) ما يُجزئ فيه، أي: ما يكفي.

عطاؤه:

ومكث عمر خليفة للمسلمين زماناً طويلاً ليس له راتب من بيت مال المسلمين، حتى دخلتْ عليه خَصَاصةٌ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم قائلاً: (قد شغلتُ نفسي في هذا الأمر، فما يَصلح لي منه؟ فقال عثمان بن عفان: كُلْ وأَطْعِمْ. فقال لعليٍّ: وما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداءً وعشاءً. فأخذ عمر بذلك).

هذا عمر الذي قال بعد أن عيَّن له المسلمون راتباً يتقاضاه: (يَحِلُّ لي حُلَّتان، حُلَّة في الشتاء وحُلَّة في القَيْظ، وما أَحُجُّ عليه وأَعْتَمِر من الظَّهْر، وقُوتي وقُوت أهلي كقوتِ رجلٍ من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يُصِيبُني ما أصابهم).

ثم أردف قائلاً: (إني أنزلتُ نفسي من مال الله منزلةَ مال اليتيم: إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف).

ولقد سار على هذا الهَدْي ما غيَّرَ ولا بدَّلَ، حتى والكنوز تُلقى بين يديه، وبساط كسرى عند قدميه!! قال ابنه عبد الله: (كان عمرُ يقوتُ نفسَه وأهلَه، ويكتسي الحُلَّة في الصيف، ولربَّما خُرِق الإزار حتى يرقعَه، فما يُبَدِّل مكانه حتى يأتي الإبَّانُ، وما من عام يكثُر فيه المال إلا كُسْوَتُه ـ فيما أرى ـ أدنى من العام الماضي، فكلَّمَتْهُ في ذلك حفصة، فقال: إنما أكتسي من مال المسلمين، وهذا يُبَلِّغني).

وإذا نزلتْ به حاجة (أتى صاحبَ بيت المال فاستَقْرَضَه، فربما عَسُرَ، فيأتيه صاحبُ بيت المال يتقاضاه، فيَلْزَمُه، فيحتال[1] له عمر، وربما خرج عطاؤه فقضاه).

خطته في الحكم:

أبانَ عمر للناس أنَّه يجب أن تتوفر في الخليفة أربعُ صفات، فقال: (لا

---

(١) **فيحتال له عمر**: أي يسعى في تدبير المال.

ينبغي أن يلي هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خصال: **اللِّينُ في غير ضَعف، والشدَّة في غير عُنف، والإمساك في غير بُخْل، والسماحُ في غير سَرَف**؛ فإنْ سقطتْ واحدة منهنَّ فَسَدتِ الثلاث).

قال ابن عباس: (ما اجتمعت هذه الخصال إلا في عمر رضي الله عنه).

ثم صعد المنبر فَبَسط للناس سياسته، وأوضح لهم واجباته والتبعات المناطة بهم، فقال: (بَلَغَني أنَّ الناس هابوا شدَّتي، وخافوا غِلْظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتدُّ ورسولُ الله ﷺ بين أظْهُرِنا، ثم اشتدَّ علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟!.

ألا مَنْ قال هذا فقد صدق، فإني كنت مع رسول الله ﷺ عونَه وخادمه، وكان ﷺ من لا يبلغ أحد صفته من اللِّين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. فكنتُ بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يَدَعني فأمضي. فلم أَزَلْ مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفَّاه الله، وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم وَلِيَ أمرَ المسلمين أبو بكر، فكان مَن لا تنكرون دَعَته، وكرمَه ولِينَه، فكنتُ خادمَه وعونَه، أخلط شدّتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يَدَعني فأمضي. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزَّ وجلّ، وهو عني راضٍ، والحمدُ لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم إني قد وُلِّيتُ أموركم أيها الناس، فاعْلَموا أنَّ تلك الشدة قد أُضْعِفَتْ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّي، فأما أهل السلامة والدين والقصد؛ فأنا أَلْيَنُ لهم من بعضهم لبعض. ولست أَدَعُ أحداً يظلم أحداً، أو يعتدي عليه، حتى أضع خدَّه على الأرض، حتى يُذْعِنَ للحقّ.

وإني بعد شدتي تلك، أضع خدّي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف!.

ولكم عليَّ أيها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها:

لكم عليَّ ألا أجتبي شيئاً من خَراجكم، وما أفاء الله عليكم، إلا من وجهه.

ولكم عليَّ إذا وقع في يدي، ألا يخرج مني إلا في حقّه.

ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم، إن شاء الله تعالى، وأسدَّ ثغوركم

ولكم عليَّ ألا ألقيكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم.

فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بِكَفِّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحْضَاري النصيحةَ فيما ولأَني الله من أمركم)!.

فلننظر كيف سار عمر بين الرعية، وإلى أي مدى وفَّى بما عاهد الله عليه، وأن ذلك لم يكن منه مواقف استعراضية تتبخر عند الجلوس على كرسي الحكم!!.

مواقفه مع الناس في الخلافة:

لقد حمل عمر نفسَه على سلوك هَدْي رسول الله ﷺ وخليفته الأول أبي بكر، يحدّث سعيد بن المسيّب فيقول: (أُصيب بعير من الفَيء فنحره عمر، وأرسل إلى أزواج النبي ﷺ منه، وصنع ما بقي، فدعا عليه من المسلمين، وفيهم يومئذٍ العباس بن عبد المطلب، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، لو صنعتَ لنا كل يوم مثل هذا، فأكلنا عندك وتحدَّثنا! فقال عمر: لا أعود لمثلها، وإنه مضى صاحبان لي ـ يعني النبي ﷺ وأبا بكر ـ عَمِلا عملاً، وسلكا طريقاً، وإني إن عملت بغير عملهما سُلك بي طريقٌ غير طريقهما)!.

● فكان يلبس جبةً من صوف مرقوعةً بعضها بأَدَم، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدِّرَّة، يؤدب بها الناس، ويمر بالغزل المنقوض، والنوى، فيلتقطه ويلقيه في منازل الناس ينتفعون به.

● وكان يَعُسُّ المسجد[1] بعد العشاء، فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه، إلا

---

(١) يعس المسجد: أي يطوف به بالليل ويتفقده.

رجلاً قائماً يصلي .

● وذات يوم خرج ومعه ابن مسعود، فإذا هو بضوء فاتّبع الضوء حتى دخل داراً، فإذا بسراج في بيت، فدخل ـ وذلك في جوف الليل ـ فإذا شيخ جالس، وبين يديه شراب وقَيْنَة[١] تغنِّيه، فلم يشعر حتى هجم عليه عمر، فقال عمر: ما رأيتُ كالليلة منظراً أقبحَ من شيخ ينتظر أجلَه!!.

فرفع رأسه إليه فقال: بلى يا أمير المؤمنين، ما صنعتَ أنتَ أقبحُ، تَجَسَّسْتَ وقد نُهي عن التجسس، ودخلتَ بغير إذنٍ!!.

فقال عمر: صدقتَ، ثم خرج عاضاً على ثوبه يبكي، وقال: ثَكِلَتْ عمرَ أمُّه إن لم يغفر له ربه، يجدُ هذا يستخفي به من أهله، فيقول: الآن رآني عمر، فيتتابع عليه.

● وذات مرة (خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب فدخل بيتاً، ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مُقْعَدَة، فقال لها: ما بالُ هذا الرجل يأتيكِ؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يُصْلِحني، ويُخْرِج عني الأذى!! فقال طلحة: ثكلتْكَ أمُّك يا طلحة، أَعَثَرَاتِ عمر تتّبع)؟!.

● وفي واحدة من الليالي خرج إلى حَرَّة واقِم، وقريباً منها أبصر ناراً، فاستأذَنَ، فوجد امرأة حولها صِبيةٌ يَتَضَاغَوْن من الجوع، وقد وضعتْ على النار قدراً فيه ماء تُلهِّيهم به حتى يناموا. فأسرع الفاروق إلى (دار الدقيق) فجاء بِعِدْلٍ من طحين وجِراب شَحْم، وحملها على ظهره، وطَبَخَ للصبية وأَطْعَمهم حتى ناموا، ثم وَصَل أمَّهم بنفقة وانصرف.

● وبينا هو في سفر، ولما كان قريباً من الرَّوْحَاء[٢]، إذ سمع صوت راعٍ في جبل، فَعَدَل إليه، فلما دنا منه صاح: (يا راعيَ الغنم! فأجابه الراعي فقال:

---

(١) القينة: هي الأمة المغنية.

(٢) **الروحاء**: محطة على الطريق بين المدينة وبدر، على مسافة (٧٤كم) من المدينة.

يا راعيها، فقال عمر: إني مررتُ بمكان هو أخصبُ من مكانك، وإنَّ كل راعٍ مسؤولٌ عن رعيته. ثم عَدَل صدور الرِّكاب)!.

وكثيراً ما كان يقول ويُعْلِنها بين الناس: (لو مات جَمَلٌ ضَيَاعاً على شطّ الفرات لَخَشِيتُ أن يَسألني الله عنه)!.

● وخرج ليلةً مع مولاه أَسْلم إلى ظاهر المدينة، فوجد امرأة تَمْخَضُ، فأسرع إلى بيته، وحمل الدقيق والشحم، وحملتْ زوجتُه أم كلثوم بنت علي ما يصلح للولادة، فصنع لأهل بيتها طعاماً، وقامت أم كلثوم بدور القابلة. ومكثا حتى وضعت المرأة غلاماً، فبشَّر عمر أباه، ووَصَلَهم بنفقة، ثم انصرف.

مع الولاة:

●● وسياسة عمر في تخيُّر الولاة ومحاسبتهم أصبحت مضربَ الأمثال، وسارت على كل لسان، وتُحدِّث بها في كلّ نادٍ.

وقد لخَّصَ طريقتَه في تحديد صفات الأمير الذي يريده ويختاره بأنه: (رجل إذا كان أميرَهم كان كأنه رجلٌ منهم، وإذا لم يكن أميرَهم كأنه أميرُهم).

ثم بعد ذلك إذا استعملَ عاملاً كتب له عهداً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين، واشترط عليه أن: لا يركب دابة مُطَهَّمَةً[1]، ولا يأكل نقياً[2]، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات. فإن فعل شيئاً من ذلك حلَّتْ عليه العقوبة.

ثم يوصي الوالي بخشية الله وطاعته فيما ولاَّه، ويحذِّرَه مَغَبَّة الظلم والترفُّع على الناس، فيقول: (أما بعد: فإن أسعدَ الرُّعاة مَن سعدتْ به رعيتُه، وإن أشقى الرعاة عند الله عزَّ وجل من شقيتْ به رعيته. وإياك أن ترتعَ فيرتعَ عمَّالُك، فيكون مَثلُك عند الله عزَّ وجلّ مثَلَ البهيمة، نظرتْ إلى خضرةٍ من الأرض، فَرَعَتْ فيها، تبتغي بذلك السِّمَنَ، وإنما حتفُها في سِمَنِها. والسلام عليك).

---

(١) مطَهَّمَةً: السَّمِينَة الفاحِشَةُ السِّمَن.
(٢) النقي: هو الخبز الأبيض.

وكان عمر يعلن بين الناس طريقته في إرسال الولاة إلى الأمصار، ويدوِّي صوته المجلجل في كل مجلس جلس فيه، فيقول: (إني لم أستعمل عليكم عمَّالي ليضربوا أَبْشَاركم[١] وليشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم، ولكني استعملتُهم ليعلِّموكم كتابَ ربكم وسُنَّة نبيكم، فمن ظَلَمه عاملُهُ بِمَظْلَمَة فلا إذْنَ له عليَّ، ليرفَعْها إليَّ حتى أُقِصَّه منه)!.

وإذا استعمل عاملاً فقدِمَ عليه الوفد من تلك البلاد، سألهم عمر: (كيف أميرُكم؟ أيعود المملوك؟ أيتبع الجنازة؟ كيف بابه: أَلَيِّنٌ هو؟ فإن قالوا: بابُه ليِّن، ويعود المملوك، تركَهُ، وإلاَّ بَعَثَ إليه بنزعِه).

وقد حدَّد الفاروق للناس سياسته وطريقته، وعَمِل بها على أتمِّ وجه وأحسنِه، فقال للناس: (أرأيتم إذا استعملتُ عليكم خيرَ مَن أعلمُ، ثم أمرتُه بالعدل، أيبرئ ذلك ذمتي)؟.

فيقول الناس: نعم.

فيردّ عمر قائلاً: (كلا، **حتى أنظرَ في عملِه، أَعَمِلَ بما أمرتُه أم لا**).

ثم يردف فيقول: (أيما عامل لي ظَلَمَ أحداً فبلغَتْني مَظْلَمَتُهُ فلم أُغيِّرها فأنا ظَلَمْتُه).

●● لهذا كان رضي الله عنه دائمَ السؤال عن الولاة، يقتصُّ أخبارهم: كيف يحكمون بين الناس، وما هي طبيعة عيشهم فيهم، وكيف سيرتهم، وما مدى رضا الناس عنهم.

● ولَّى سعيدَ بن عامر الجُمَحِيَّ على (حِمْصَ)، فسَلَك فيهم منهج الصالحين، ولكن أهل حمص شَكَوْه إلى الخليفة، فحقق عمر في شكاياتهم، فاستبانت له براءة سعيد، فقال: (الحمد لله الذي لم يُفَيِّل[٢] فِراستي).

---

(١) أبشاركم: أي ظاهر جلودكم.
(٢) يفيِّل: أي لم يُخَطِّئ ويُضْعِف فراستي. فَالَ رأيُه: أخطأ وضَعُف. وفَيَّل رأيَهُ: قبَّحه وخَطَّأه.

● وبعث عُمَيرَ بنَ سعد والياً على (حمص) أيضاً، فمكث أميرها عاماً كاملاً، وتابع الفاروق سياسته هناك، فوجده نِعم الوالي نزاهة وأمانة وسياسة ورحمة وحسن إدارة، فقال: (جدِّدُوا لعُميرٍ عهداً)، فقال عمير: (إنَّ ذلك لشيء، لا عملتُ لك ولا لأحدٍ بعدك).

● ونبأُ عمر مع حاكم مصر وفاتحها المظفَّر عَمْرو بن العاص قد سارت به الرُّكْبان، حيث إنه لمَّا ضَرب ابنُ عمرو بن العاص ـ دون علم عمرو ـ الرجلَ المصريَّ الذي سابقه فسبقه، وعلِمَ الفاروق بذلك، أَقَصَّ المصريَّ منه، ثم قال مقولته السائرة: (مُذْ كَمْ تعبَّدْتُمُ الناسَ وقد وَلَدَتْهُمْ أمهاتُهم أحراراً)؟!.

● واستعمل حذيفةَ بن اليمان على (المدائن)، وكَتَب للناس هناك في عهده: (أن اسمعوا له وأطيعوا، وأعطوه ما سألكم).

فأقام حذيفة فيهم ما شاء الله، ثم كتب إليه عمر أن اقدم. فلما بَلَغَ عمرَ قدومُه، كَمَنَ له على الطريق في مكان لا يراه، فلما رآه عمر على الحال الذي خرج من عنده، أتاه فالتزَمه، وقال: أنت أخي وأنا أخوك!.

● ولما فُتحت العراق، أمر سعد بن أبي وقاص باختطاط الكوفة، وكان أول بناء وضع فيها المسجد، ثم عمَّر قصراً تلقاء محراب المسجد للإمارة، وبيت المال. (وبُني لسعد قصر قريب من السوق، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً من الحديث، فكان يغلق بابه ويقول: سكن الصوت! فلما بلغت هذه الكلمة عمر بن الخطاب بعث محمدَ بنَ مَسْلَمة، فأمره إذا انتهى إلى الكوفة أن يقدحَ زناده ويجمع حطباً، ويحرق باب القصر، ثم يرجع من فوره! فلما انتهى إلى الكوفة فعل ما أمره به عمر. وأمر سعداً أن لا يغلق بابه عن الناس، ولا يجعل على بابه أحداً يمنع الناس عنه، فامتثل ذلك سعد، وعرض على محمد بن مسلمة شيئاً من المال، فامتنع من قبوله، ورجع إلى المدينة)!!.

● ولم يقِفْ عمر رضي الله عنه عند هذا الحدّ، بل كان يحاسب ولاته على أموالهم، وقد وضع أمام عينيه مبدأ: (من أين لك هذا)؟.

يروي عبد الله بن عمر : (أنَّ عمر أمر عمَّالَه فكتبوا أموالهم، منهم سعد بن أبي وقاص، فشاطَرَهم عمر أموالَهم، فأخذ نصفاً، وأعطاهم نصفاً)!.

وأخذ ولاته بالعزائم، وحاسَبَهم حساباً دقيقاً، فهذا عامله على (البحرين)[١] أبو هريرة حافظ السنّة الأكبر، يمثُل بين يدي عمر، فيسائله عمر، ويُغلِظ له القول، ويحدِّثنا أبو هريرة نفسه فيقول: (قال لي عمر: يا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه سَرَقْتَ مالَ الله؟! فقلتُ: ما أنا بعدوِّ الله ولا عدوِّ كتابه، ولكنّي عدوُّ مَن عاداهما، ولا سرقتُ مال الله! قال: فمن أين اجتمعتْ لك عشرة آلاف؟! قلت: يا أمير المؤمنين، خَيْلي تناسَلَتْ، وسِهَامي تلاحَقَت، وعطائي تلاحق! قال: فأَمَرَ بها أمير المؤمنين فقُبِضت، فكان أبو هريرة يقول: اللهمَّ اغفر لأمير المؤمنين)!!.

محافظته على مال الأمة، وتوزيعه على الناس:

لم تكن مسؤولية عمر تجاه مال الأمة بأقل عجباً من سياسته مع الولاة، فلقد كانت نظرته لأموال المسلمين تبهر الألباب، وتحيّر العقول.

● وفد عليه الربيع بن زياد الحارثي، فرأى طعاماً غليظاً، وملبساً خشناً، فقال: (يا أمير المؤمنين، إنَّ أحقَّ الناس بطعامٍ لَيِّنٍ ومركبٍ لَيِّنٍ وملبسٍ ليِّنٍ؛ لأنتَ! فرفع عمر جَريدة[٢] معه فضرب بها رأسَه، وقال: أمَا والله ما أراكَ أردتَ بها الله، وما أردتَ بها إلا مقاربتي! هل تدري ما مَثَلي ومَثَلُ هؤلاء؟ قال: وما مَثَلُك ومَثَلُهم؟ قال: مَثَلُ قومٍ سافروا، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم، فقالوا له: أَنْفِق علينا، فهل يَحِلُّ له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: فكذلك مَثَلي ومَثَلهم)!!.

● ولنتابع هذا النبأ الباهر الأخَّاذ، يشهده عثمان بن عفان ومولاه، في يوم قائظ اشتدَّ حرّه، يقول مولى عثمان:

---

(١) البحرين: اسم لسواحل نجد بين قطر والكويت، وتمثل اليوم إقليم الأحساء.
(٢) جريدة: هي سَعَفَة طويلة تُقَشَّر من ورقها.

(بينا أنا مع عثمان في مالٍ له بالعالية في يومٍ صائف، إذ رأى رجلاً يسوق بَكْرين، وعلى الأرض مثل الفراش من الحرّ، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يُبْرِد ثم يروح؟! ثم دنا الرجل فقال: انظر من هذا؟ فنظرت فقلت: أرى رجلاً مُعْتَمّاً بردائه يسوقُ بَكْرَيْن، ثم دنا الرجل، فقال: انظر، فنظرتُ فإذا عمر بن الخطاب، فقلت: هذا أمير المؤمنين! فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب، فآذاه لَفْحُ السَّمُوم، فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟.

فقال: بَكْران من إبل الصدقة تخلّفا، وقد مُضي بإبل الصدقة، فأردتُ أن أُلحِقهما بالحِمَى[1]، وخشيتُ أن يضيعا فيسألني الله عنهما. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين. هلمَّ إلى الماءِ والظلّ، ونكفيك. فقال: عُدْ إلى ظلك!. فقلتُ: عندنا من يكفيك. فقال: عُدْ إلى ظلّك، فمضى. فقال عثمان: من أحبَّ أن ينظرَ إلى القوي الأمين؛ فلينظر إلى هذا).

● وذات يوم رآه علي بن أبي طالب وهو يعدو إلى ظاهر المدينة، فقال له: إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال: قد نَدَّ بعير من إبلِ الصدقة، فأنا أطلبه. فقال علي: قد أتعبتَ الخلفاء من بعدك.

● ويزوره وفد العراق ومعهم الأَحْنَف بن قيس، فيفاجؤون بعمر قد انهمك في تطبيب واحد من إبل الصدقة، يَطليه بالقَطِران، وما إن يراهم حتى ينادي الأحنفَ قائلاً: (ضَعْ ثيابك يا أحنف، وهَلُمَّ فأعِنْ أميرَ المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة، وفيه حق للأَمَة والمسكين وابن السبيل)! فيذهل الوفد، ويقول قائلهم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، إنَّ عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا! فيجيبه عمر في عظمة التواضع، وثقل المسؤولية: (وأيُّ عبدٍ أَعْبَدُ مني ومن الأحنف)؟!.

● أما الفقراء والمساكين والمحاويج، فلهم عند عمر شأنٌ أيُّ شأنٍ؛ يسدُّ

---

(١) **الحمى**: هو موضع فيه الكلأ والعشب، يحميه الإمام من الناس، فلا يرعى فيه أحد ولا يقربه، وكان عمر حمى (النَّقِيع) لنَعَم الصدقة والخيل المُعدَّة في سبيل الله.

فقرهم، ويقضي حوائجهم، ويَعرف لأهل السَّبْق سَبْقَهم فيُكرمهم، بل إنه ليكرم ذرِّيَّتهم.

يحدِّث أَسْلم مولى عمر فيقول: (خرجتُ مع عمر بن الخطاب إلى السوق، فلحِقَتْ عمرَ امرأةٌ شابَّةٌ، فقالت: يا أمير المؤمنين، هَلَك زوجي وترك صِبْيَةً صغاراً، والله ما يُنْضَجُونَ كُرَاعاً، ولا لهم زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، وخشيتُ أن تأكُلَهم الضَّبُعُ، وأنا بنتُ خُفَاف بن إيْماء الغفاري، وقد شهد أبي الحُديبية مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يَمْضِ، ثم قال: مرحباً بنَسَبٍ قريب، ثم انصرف إلى بعير ظَهِيرٍ كان مربوطاً في الدار فحَمَل عليه غِرَارَتين ملأَهُما طعاماً، وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناوَلَها بِخِطامه، ثم قال: اقْتَادِيه، فلن يفنَى حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرتَ لها! قال عمر: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها، قد حاصرا حِصْناً زماناً فافْتَتَحاه، ثم أصبحنا نَسْتَفِيءُ سُهْمَانَهُما فيه)[(١)].

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري فقال: (أما بعد: فأعْلَمْ يوماً من السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يُكْتَسَحَ اكتساحاً، حتى يعلم الله أني قد أدَّيْتُ إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه).

ويروي عبد الله بن عباس فيقول: (دعاني عمر بن الخطاب فأتيتُه، فإذا بين يديه نِطْع عليه الذهب منثورٌ حَثاً، قال: هَلُمَّ فاقْسِم هذا بين قومك، فالله أعلمُ حيث زَوَى هذا عن نبيّه عليه الصلاة والسلام وعن أبي بكر، فأُعْطِيتُه، لخيرٍ أُعْطِيتُه أو لشرٍّ! قال: فأكببتُ عليه أقسم وأزيِّل. قال: فسمعت البكاء، فإذا صوت عمر يبكي ويقول في بكائه: كلا والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيِّه عليه الصلاة والسلام وعن أبي بكر إرادةَ الشرِّ لهما، وأعطاه عمرَ إرادةَ الخيرِ له)!![(٢)].

---

(١) **ما ينضحون كراعاً**: ليس عندهم كُراع حتى ينضجوه، **والكُراع**: ما دون الكعب من الدواب. **لا لهم زرع ولا ضرع**: كناية عن المواشي. **الضَّبُع**: السنة الشديدة المجدبة. **ظَهير**: قوي الظَّهْر، مُعدّ للحاجة. **غِرارتين**: تثنية غِرارة، وهي وعاء يُتَّخَذ للتبن وغيره. **نستفيء**: نطلب الفيء، وهو ما يأخذه المسلمون من يد الكفار بدون قتال. **سُهمانهما**: جمع سهم وهو النصيب، أي: هما فتحاه، ونحن الآن ننتفع بثمرة جهدهما.

(٢) **نطع**: بساط من جلد. **منثور حثاً**: الحثا: دُقَاق التِّبن، أي: الذهب منثور كالتبن. **أزيِّل**: أفرّق.

نفقته على نفسه وأهله وتأديبه لهم:

●● وكان عمر يَرقُب الله تعالى في مال الأمة، ويخشى أن يحاسبه على لُقيمات يُقمن صُلْبه، يأكلهن من بيت المال بإذن المسلمين، فكان يأخذ نفسه وأهله بالشدة، ولا يتبسط في زخارف الدنيا ومتاعها، بل يرضى بالكفاف، يقفو في ذلك أثرَ رسول الله ﷺ.

● اشتكى يوماً من مرض أَلَمَّ به، فوُصِفَ له العسل، وفي بيت المال عُكَّةٌ[1] من عسل، فقال عمر: إن أذِنتم لي فيها أخذتها، وإلا فهي عليَّ حرام، فأذِنوا له!.

● ويحدّث مجاهد فيقول: (أنفق عمر بن الخطاب في حَجَّةٍ حَجَّها ثمانين درهماً من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، قال: فجعل يتأسَّف، ويضرب بيدِه على الأخرى، ويقول: ما أَخْلَقَنا أن نكون قد أَسْرَفْنا في مال الله تعالى).

● وشرب يوماً لبناً فأعجبه، فسأل الذي سقاه: من أين لك هذا اللبن؟ فأخبره أنه ورد على ماء، فإذا نَعَمٌ من نَعَمِ الصدقة، وهم يسقون، فحلبوا لنا من ألبانها، فجعلتُه في سقائي هذا. فأدخلَ عمرُ أصبعه فاستقاءه!.

هذا هو الورَعُ الأخَّاذ المتفرّد الذي عبَّر عنه المِسْوَر بن مَخْرَمَة رضي الله عنه عندما قال: (كنا نلزم عمر بن الخطاب، نتعلّم منه الورع).

●● ورأى الصحابة ما عليه أمير المؤمنين من شدَّةِ العيش، وقد أَوْسَعَ الله في الرزق، وفَتَحَ على المسلمين الأرض، فتمنَّوا لو أنه طَعِمَ طعاماً أَلينَ من طعامه، ولَبِس أَلينَ من لباسه، وتهيَّبوا من مواجهته بهذا، فاستعانوا عليه بابنته حفصة أم المؤمنين، فقال لها عمر:

(يا حفصةُ، فأبلغي الذين أرسلوكِ إليَّ أنَّ مَثَلي ومثلُ صاحبيَّ ـ رسول الله ﷺ وأبي بكر ـ كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزوَّدَ فبَلَغ المنزل، ثم اتَّبعه

---

(١) عكة: هي وعاء من جلد مستدير.

الآخَرُ، فسلك طريقه، فأَفْضَى إليه، ثم الثالث، فإن لزِمَ طريقَهما ورضيَ بزادِهما، أُلْحِقَ بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما).

● ويرى عمر جارية منحولة الجسم، خائرة القوى، تطيش هزالاً، فيقول عمر: (من هذه الجارية؟ قال عبد الله ـ ابنه ـ هذه إحدى بناتك! قال عمر: وأي بناتي هذه؟ قال عبد الله: ابنتي. قال عمر: ما بَلَغ بها ما أرى؟ قال عبد الله: عَمَلُك، لا تُنْفِقُ عليها! فقال عمر: إني والله ما أَغُرُّك[1] من ولدك، فأَوْسِعْ على ولدك أيها الرجل)!!.

● ويروي محمد بن سيرين: (أنَّ صِهْراً لعمر بن الخطاب قدِم على عمر، فعرَّضَ له أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر وقال: أردتَ أن ألقى الله مَلِكاً خائناً؟! فلمَّا كان بعد ذلك أعطاه من صُلبِ ماله عشرة آلاف درهم).

● ويقول مولاه أسلم: (خرج عمر فقعد على المنبر، فثَابَ الناس إليه، حتى سمع به أهلُ العالية فنزلوا، فعلَّمهم حتى ما بقي وجهٌ إلا علَّمهم. ثم أتى أهلَه وقال: قد سمعتم ما نَهيتُ عنه، وإني لا أَعْرِفُ أنَّ أحداً منكم يأتي شيئاً مما نهيتُ عنه، إلا ضاعفتُ له العذاب ضِعْفَين).

● لذا تراه يرتفع بأهله عن الشبهات، والويل لمن يرى عليه بعضَ ما يَشوبُ سيرته، أو يُخالف نهجه. فهذا ابنه عبد الله ـ وكان مثالاً في الورع، وإماماً يُقتدى به في الزهد والتقوى ـ يقول: (اشتريتُ إبلاً، وارتجعتُها إلى «الحِمَى»، فلما سَمِنَتْ قدِمْتُ بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سِماناً، فقال: لمن هذه الإبل؟ فقيل: لعبد الله بن عمر. فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر، بخٍ بخٍ، ابن أمير المؤمنين! فجئتُ أسعى فقلت: ما لكَ يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قلتُ: إبلٌ اشتريتُها، وبعثتُ بها إلى الحِمى أبتغي ما يبتغي المسلمون.

فأخذ عمر يفتل سَبَلَة شاربه ـ كعادته إذا غضب ـ فقال: ويقول الناسُ: ارعَوا إبلَ ابن أمير المؤمنين، اسقُوا إبلَ ابن أمير المؤمنين!! يا عبد اللهِ بن عمر،

---

(١) ما أغرُّك من ولدك: أي ما أطعم ولدك بالباطل.

اغْدُ على رأس مالك، واجعل الفَضْل في بيت مال المسلمين)!!.

ألاَ حَيَّا الله أبا حفص، وهنيئاً للأمة التي يَحكمها مثلُ هذا القوي الأمين.

● ولمَّا أَهدى أبو موسى الأشعري طُنْفُسَةً لزوج عمر، وعَلِمَ عمر بذلك، فقال لأبي موسى: (ما يحملك على أن تهدي لنسائي؟! ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه، وقال: خُذْها فلا حاجة لنا فيها).

●● وكان في طعامه ولباسه على أعلى درجات الزهد:

● دخل على ابنته حفصة ذات يوم، فقدَّمَتْ إليه مَرَقاً بارداً، وصبَّتْ في المرق زيتاً، فقال: (أُدْمانِ في إناء واحد، لا أذوقه حتى ألقى الله عزَّ وجلّ).

وجاء عبد الله وحفصة وغيرهما، فكلَّموا عمر في طعامه، فقالوا: (لو أكلتَ طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق. قال: أَكُلُّكم على هذا الرأي؟ قالوا: نعم. قال: قد علمتُ نصحَكم، ولكني تركتُ صاحبيَّ على جادَّة، فإن تركتُ جادَّتهما لم أدركهما في المنزل).

● وقَدِمَ عليه أبو موسى الأشعري في وفد أهل البصرة، فقالوا: (كنا ندخل كلَّ يوم وله خُبز ثلاث، فربما وافَقْنَاها مأدومةً بزيت، وربما وافقناها بسَمْن، وربما وافقناها باللَّبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة قد دُقَّت، ثم أُغلي بها، وربما وافقنا اللحمَ الغَرِيضَ[1] وهو قليل).

● ويقول عمر رضي الله عنه: (والذي نفسي بيده، لولا أن تُنتقصَ حسناتي لشاركتكم في لَيِّن عيشكم. ولو شئتُ لكنتُ أطيبَكم طعاماً، وأرفَهكم عيشاً، ولَنحنُ أعلمُ بطيب الطعام من كثير من آكليه! ولكننا ندعه ليوم تذهَلُ فيه كلُّ مرضعةٍ عما أرضعتْ، وتضعُ كلّ ذاتِ حَمْلٍ حملها. وإني لأَسْتَبقي طيباتي، لأني سمعتُ الله تعالى يقول عن أقوام: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾) [الأحقاف: ٢٠].

---

(١) **اللحم الغريض**: هو اللحم الطري.

● ولم يكن في ملبسه أرفهَ منه في طعامه، فقد لبس الخشن والغليظ، فكان لا يتميز عن الناس وهو أمير المؤمنين. يقول أنس بن مالك: (لقد رأيتُ بين كتفَيْ عمر أربعَ رقاعٍ في قميص له).

● ويروي أبو عثمان النَّهْدِيّ فيقول: (رأيتُ عمر بن الخطاب يطوف بالبيت، عليه إزارٌ فيه اثنتا عشرة رقعة، إحداهنَّ بأديمٍ أحمر).

● وأبطأ عمر جمعة بالصلاة، فخرج فلما صعد المنبر، اعتذر إلى الناس فقال: (إنَّما حبسني قميصي هذا، لم يكن لي قميص غيره).

● ولمَّا جاء الله بالخير، ففُتحت البلاد وفاضت الكنوز، ما غيَّرَ ذلك من خلقه شيئاً، في مطعم ولا ملبس. فقد صعد المنبر ذات يوم، واستقبل الناس بصوته الجَهْوَرِيِّ فقال: (اسمعوا يرحمكم الله). وينطلق من الصفوف صوت سلمان فيقول: والله لا نسمع، والله لا نسمع! ويتلهف عمر قائلاً: ولِمَ يا سلمان؟ فيجيب سلمان: ميَّزْتَ نفسك علينا يا عمر، أَعطيتَ كلاًّ منا بُردةً واحدة، وأخذتَ أنت بُردتين! ويُجيل عمر ناظريه في الناس، ويقول: أين عبد الله بن عمر؟ فينهض عبد الله ويقول: ها أنذا يا أمير المؤمنين، فيسأله عمر على مشهد من الناس: (مَن صاحبُ البردة الثانية؟ فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين).

ويتوجَّه الفاروق للناس عامة ولسلمان خاصة، فيقول: (إنني كما تعلمون رجلٌ طُوَال، ولقد جاءت بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله بردته، فأَطَلْتُ بها بردتي!). وتتلألأ دمعات الغِبْطَة والسرور في عيني سلمان ويقول مع الحاضرين: (الآن يا أمير المؤمنين، قل نسمعْ ونُطِعْ).

عمر في عام الرَّمَادَة:

عمَّ أرضَ الحجاز قحطٌ ومَحْلٌ، فأصابَ الناس جهدٌ شديد، وأجدبتِ البلاد، وهلكت الماشية، وجاع الناس، حتى كانوا يُرَوْنَ يَسْتَفُّون الرِّمة[1]، ويحفرون نُفَقَ اليرابيع والجُرْذان يُخْرِجون ما فيها، وجعلت الوحوش تأوي إلى

(١) الرِّمة: العظام البالية.

الإنس، لأنها لا تجد ما تأكله. واسودَّت الأرض من قلَّة المطر، حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد؛ فسمِّيَ ذلك عام الرمادة.

وقام عمر يعسّ بالمدينة ذات ليلة، فلم يجد أحداً يضحك، ولا يتحدَّث الناس في منازلهم على العادة، ولم يرَ سائلاً يسأل!! فسأل عمر عن سبب ذلك؟ فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنّ السؤال سألوا فلم يُعْطَوا، فقطعوا السؤال، والناس في همٍّ وضيق، فهم لا يتحدَّثون ولا يضحكون!.

فاغتمَّ عمر لذلك غمّاً شديداً، وكان يجأر إلى الله بالدعاء في الليل حتى يرفع البلاء. ويروي ابن عمر موقفاً من ذلك فيقول: (كان عمر بن الخطاب أحْدَثَ في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله، لقد كان يصلّي بالناس العشاءَ، ثم يخرج حتى يدخل بيته، فلا يزال يصلّي حتى يكون آخر الليل، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها، وإني لأسمعه ليلة في السَّحَر وهو يقول: اللهمَّ لا تجعل هلاكَ أمة محمد على يَدَيَّ).

وقام عمر فكتب إلى ولاته في الأمصار الإسلامية، يأمرهم أن يبعثوا إليه من الطعام والكساء ما يصلح الناس في أرض الحجاز، فكتب إلى عمرو بن العاص بمصرَ، وإلى معاوية بن أبي سفيان بالشام، وإلى سعد بن أبي وقاص في العراق.

وجاء في كتابه إلى عمرو بن العاص: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عُمَرَ إلى العاصي بن العاصي! سلام عليك، أما بعد: أَفَتَراني هالكاً ومَنْ قِبَلي وتعيش أنت ومن قِبَلك؟! فيا غوثاه، يا غوثاه، يا غوثاه)!.

فبعث إليه عَمْرو في البر والبحر: بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والوَدَك[1]، وبعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء. وبعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءة. وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق.

وقام رجاله ومعاونوه بتوزيع الطعام على الناس في نواحي المدينة، وكان

---

(١) الودك: شحم الألية والجنبين في الخروف والعجل.

يذبح على مائدته كل يوم مئة وعشرين جَزُوراً، ويدعو الناس للطعام، حتى أحصوا من تعشَّى عنده ذات ليلة فبلغوا سبعة آلاف رجل! وكان يطعم الناس بنفسه، ويحمل مع مولاه أسلم الزاد للعيالات الذين لا يأتون والصبيان ويرسل إليهم بالدقيق والتمر والأدم، فيصلهم حيث هم.

وحلف ألاّ يذوق لحماً ولا سَمْناً حتى يَحْيَا الناس، ويحدِّث أنس فيقول: (تَقَرْقَرَ بطنُ عمر بن الخطاب، وكان يأكل الزيتَ عامَ الرَّمَادة، وكان حرَّم عليه السَّمْنَ، فنَقَرَ بطنه بإصبعه وقال: تَقَرْقَرْ تقرقرك، إنه ليس لكَ عندنا غيره حتى يحيا الناس)!!.

ومكث الناس تسعة أشهر يعانون من الضيق والضنك، وعزم عمر على الاستسقاء. روى عبد الله بن نِيار الأسْلمي قال: (لما أجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس، كتب إلى عمَّاله أن يخرجوا يومَ كذا وكذا، وأن يتضرَّعوا إلى ربّهم، ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المَحْلَ عنهم. وخرج لذلك اليوم عليه بُرْدُ رسولِ الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلَّى، فخطبَ الناسَ، وتضرَّع، وجعلَ الناسُ يُلحُّون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدّاً، وحوَّلَ رداءَه، وجعل اليمينَ على اليسارِ، ثم اليسار على اليمين، ثم مدَّ يديه، وجعل يُلحُّ في الدعاء، وبكى عمرُ بكاءً طويلاً حتى أَخْضَلَ لحيتَه).

وعن أنس: (أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه كانَ إذا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّلُ إليكَ بنبيِّنا فَتَسْقِينَا، وإنَّا نتوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيِّنا؛ فاسْقِنَا. قال: فيُسقَوْنَ).

وجَثَا عمر لركبتيه قال: (اللهمَّ إيَّاكَ نعبدُ، وإياكَ نستعينُ، اللهمَّ اغفرْ لنا وارحَمْنا، وارضَ عنّا).

وكان مما دعاه: (اللهمَّ عجزتْ عنا أنصارُنا، وعجز عنا حولُنا وقوَّتُنا، وعجزتْ عنا أنفسُنا، ولا حولَ ولا قوة إلا بك، اللهمَّ اسْقِنا، وأَحْيِ العبادَ والبلاد).

فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضوا الغُدْرَان، وأطبقت السماء عليهم أياماً.

وقدِمَ أعراب فقالوا: (يا أمير المؤمنين، بينا نحن في وادينا في ساعة كذا، إذا أَظَلَّتْنا غمامة، فسمعنا منها صوتاً: أتاكَ الغوثُ أبا حفص، أتاكَ الغوثُ أبا حفص)!.

الفتوحات:

ونَهَدَ عمر في خلافته ليتمِّمَ الدور العظيم الذي خطَّتْ بداياته يدا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وبَعْثِ أسامة، وسار فيه أبو بكر الصديق ما كتب الله له، ثم لحِقَ بالنبي ﷺ، وجاء الفاروق ليكمل ما تطلَّع إليه الصدّيق.

● فكان يحثُّ الناسَ على الجهاد والغزو، ويبيِّن لهم فضائل ذلك، ويذكِّرهم بأحاديث رسول الله ﷺ. قال يوماً لجلسائه: (أيُّ الناس أعظمُ أجراً؟ فجلعوا يذكرون له الصوم والصلاة، ويقولون: فلان وفلان بعد أمير المؤمنين. فقال: ألا أخبركم بأعظم الناس أجراً ممن ذكرتم ومن أمير المؤمنين؟ قالوا: بلى. قال: رُويجل بالشام، آخذ بلجام فرسه، يكلأُ مِن وراء بَيْضة المسلمين[1] لا يدري أَسَبُعٌ يفترسه، أم هامَّة تلدغُه، أو عدوٌّ يغشاه، فذلك أعظمُ أجراً ممن ذكرتم ومن أمير المؤمنين).

● وقام رضي الله عنه فعقد الألوية، وجيَّش الجيوش، فشرَّقَتْ وغرَّبَتْ، وكَثُرت في عهده الفتوحات، ورفرفت راية التوحيد خفَّاقة في مشارق الأرض ومغاربها، وتحققت نبوءة عظيمة لرسول الله ﷺ يقول فيها:

«بَيْنَا أنا نائمٌ رأيتُني على قَليبٍ، فَنَزَعْتُ ما شاءَ اللهُ أَنْ أَنْزِع، ثم أخذها ابنُ أبي قُحافة، فنَزَعَ ذَنُوباً أو ذَنُوبَيْن، وفي نَزْعِه ضَعْفٌ، واللهُ يغفرُ له، ثم أخذها عمرُ، فاسْتَحَالَتْ غَرْباً، فلم أَرَ عَبْقَرِياً من الناس يَفْرِي فَرِيَّه، حتى ضَرَبَ الناسُ حَوْلَه بِعَطَنٍ»[2].

---

(١) **بيضة المسلمين**: أي مركز الإسلام، والمراد المدينة المنورة.

(٢) **قَليب**: هي البئر بعدما حُفرت وقبل أن تُبنى جدرانها. ذَنوباً أو ذَنوبين: **الذَّنوب**: الدلو المملوءة. وهو شكٌّ من الراوي، والمراد: ذَنُوبان، وهو إشارة لمدة خلافة أبي بكر =

وقد ذَلَّ لوطأته ملوك فارس والروم وعتاة العرب، ففتح الفتوح، ووضع الخَراج، ومصَّرَ الأمصار[1]، واستقضى القضاة، ودَوَّن الدواوين، وفرض الأعْطيات.

وتابع عمر في عهده الفتوحات التي ابتدأها الصدّيق، ووقعت في خلافته معارك إسلامية هائلة فاصلة: كاليرموك، والقادسية، ونهاوند ـ وسمَّاها المسلمون فتح الفتوح ـ وجَلُولاء، وغيرها.

وفُتحت بلدان كثيرة، ومدائن عظيمة، وتوطد أمر الإسلام، وانتشر في أصقاع الأرض.

ففتح في خلافته من الشام: اليرموك، وبُصْرى، ودِمشق، والأُرْدُنّ، وبَيْسَان، وطَبَرِيَّة، والجَابِيَة، وفِلَسْطين، والرَّمْلة، وعَسْقَلان، وغَزَّة، والسَّوَاحل، والقُدس، وبَعْلَبَكّ، وحِمْص، وقِنَّسْرين، وحَلَب، وأنْطَاكِيَة.

وفتح الجَزِيرَة، وحَرَّان، والرُّها، والرَّقَّة، ونَصِيبين، ورَأس عَيْن، وسُمَيْسَاط، وعين وردة، ودِيار بَكْر، وديار رَبيعة، وبلاد المَوْصِل، وإرْمينية جميعها.

وفتح مِصْر، وإسْكَنْدَرِيّة، وطَرَابُلُس الغَرْب، وبَرْقَة.

وبالعراق: القَادِسيّة، والحِيرة، وبَهُرَسِير، وسَابَاط، ومَدَائِنَ كِسرى،

= الصدّيق التي كانت سنتين وأشهراً. وفي نَزْعه ضَعْفٌ: هذا إخبار عن قِصَر مدة خلافته، وليس فيه حطٌّ من فضيلته. استحالت: تحوّلتْ من الصِّغَر إلى الكِبَر. غَرْباً: هو الدلو الكبير، يُسقى به البعير، وهو أكبر من الذَّنوب. يَفْري فَرِيَّه: أي لم أرَ سيداً يعمل عملاً مصلحاً وجيداً مثله. حتى ضَرب الناس حوله بعَطَن: أي أرْوَوْا إبلَهم، ثم آوَوْها إلى عَطَنها، وهو الموضع الذي تُساق إليه بعد السقي لتستريح.

وهذا المنام مثالٌ لأيام خلافتهما، وأنَّ الصدّيق قَصُرت مدة خلافته، ولم يفرغ من قتال أهل الردّة لافتتاح الأمصار، وأنّ عمر رضي الله عنه طالت مدته، حتى تيسَّرت له الفتوح، واتّسع الإسلام في زمنه، وكثر انتفاع الناس بخلافته وفتوحاته.

(١) مصَّر الأمصار: أي بناها.

وكور الفرات ودِجْلة، والأُبُلَّة، والبَصْرَة.

وفتح الأَهْوَاز، وفارس، ونَهَاوَنْد، وهَمْذَان، والرَّيّ، وقُومِس، وخُرَاسَان، وإصْطَخْر، وأَصْبَهَان، والسُّوس، ومَرُو، ونَيْسَابُور، وجُرْجان، وأَذْرَبيجان، وغير ذلك.

وقطعت جيوشه النهرَ ـ نهر جَيْحُون بخراسان ـ مراراً، واستُشهد رضي الله عنه، وخيلُه على الرَّيّ، وقد فتحوا عامتها.

* * *

الفَصل الخامِس

بنـاء الدّولة
وَعَبْقَرِيّة عُمَرَ في تشْيِيدهَا

خلال السنوات الطوال لخلافة عمر المباركة، تنامت دولة الإسلام وترامت أطرافها، فكان عمر يبني الأسس الراسخة والدعائم المتينة لدولة الحق والخير، لتصبح الأنموذج الحي والمَثَل الشاهد للغايات التي جاء هذا الدين لتحقيقها ورفع راياتها.

الشورى:

فجعل الشورى شعاراً له ودِثاراً، فهو يريد أن يحكم أمة من الأُسود لا قطيعاً من النِّعَاج، ويريد من الرعية أن تكون عيناً ساهرة، وناقداً بصيراً، وفكراً منيراً، وحركة دؤوبة واعية، لا أن تكون عمياء، صماء، خرساء، بلهاء، تنفذ ما يقال لها، وحسبها ذلك!

فكان يستشير رؤوس الصحابة وأشياخ بدر، وإذا نزل الأمر المعضِل دعا الفتيان فاستشارهم، يقتفي حدَّة عقولهم، وكان ممن يدنيه عبد الله بن عباس، يستشيره بالأمر إذا أَهَمَّه ويقول له: (غُصْ غوَّاص)! بل إن كان ليستشير المرأة، فربما أبصر في قولها الشيء فيستحسنه، فيأخذ به.

● وهو حين يطلب الرأي في المسألة، لم يكن ذلك منه موقفاً استعراضياً، ولا التماساً للموافقة من الآخرين، وكثيراً ما كان يكرر ويقرر للناس قوله: (لا تقولوا الرأي الذي تظنُّونه يوافق هَوَاي، وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق).

صعد المنبر يوماً فقال: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو مِلتُ برأسي إلى الدنيا هكذا؟ فانبرى له رجل مشيراً بيده كالحسام المهنَّد، وقال: إذاً نقول بالسيف هكذا. ويسأله عمر: إيايَ تعني بقولك؟ فيجيب الرجل بلا وجل: نعم. فتهلَّل

وجه عمر وقال: الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوِّم عوجي!.

وبينا هو في مجلس ضَمَّ جمعاً من المهاجرين والأنصار، فقال عمر: (أرأيتم لو ترخَّصْتُ في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا. فقال ذلك مرتين وثلاثاً، فقال بشير بن سعد: لو فعلتَ ذلك قوَّمناك تقويمَ القِدَح. فقال عمر: أنتم إذاً، أنتم إذاً)(١).

● وكتب إليه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل: (لقد وليِّت أمرَ هذه الأمة أحمرها وأَسودِها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكلٍّ حصتُه من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر. فإنَّا نحذِّرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجفّ فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجّة ملكٍ قهَرَهم بجبروته، فالخلق داخِرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه)(٢).

فردَّ عليهما: (كتبتما نصيحة لي، وقد صَدقتُما، فلا تَدَعا الكتابَ إليَّ، فإنه لا غنى بي عنكما، والسلام عليكما).

التأريخ الهجري:

رُفع إلى عمر صَكٌّ لرجل على آخر، وفيه: إنَّه يحلُّ عليه في شعبان. فقال عمر: (أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها، أو السنة الماضية أو الآتية)؟!.

فجمع الصحابة واستشارهم في وضع تأريخ يتعرَّفون به حلولَ الديون وغير ذلك. فاستعرضوا طريقة الفرس والروم، وقال قوم: أَرِّخوا بمولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون: بل بمبعثه، وقال فريق ثالث: بل أرِّخوا بوفاته ﷺ. وأشار علي بن أبي طالب وجماعة بأن يُؤرَّخ من هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، لظهور ذلك لكلّ أحد، فهويَ عمر هذا الرأي، لأن وقت الهجرة متفق عليه ظاهر للجميع، ثم هو نقطة تحوّل كبرى في تاريخ الدعوة الإسلامية.

---

(١) ترخصت: تساهلت. القدح: هو السهم الذي كانوا يستقسمون به.

(٢) تعنو: تخضع وتذل. داخرون: أذلاء.

وأمر الفاروق أن يُؤرَّخ من هجرة رسول الله ﷺ من أول تلك السنة، وهو شهر المحرم، لأنه أول السنة الهلالية العربية، لئلا تختلف الشهور ويختلط النظام، وكان ذلك سنة (١٦هـ)، لسنتين ونصف من خلافته.

حكم الأرض المفتوحة:

وبعد أن اتَّسعت الفتوحات، وقف الناس أمام أمرٍ وهو هذه الأرض المفتوحة، أَتُقْسَم ـ بعد تخميسها ـ بين المجاهدين، أم تُترك لأصحابها، ويُضرب عليهم الخَرَاج يؤدُّونه للمسلمين؟

فاجتمع عمر بذوي الرأي، واستشارهم، واستقرَّ بهم الأمر على أن تُترك الأرض بيد أصحابها، ويُؤخَذ منها الخَراج، فيردّ في بيت مال المسلمين، لينتفع به عامة الناس.

القضاء:

ووضع للقضاء سياسة محكَمة، أمر بها عمَّالَه على الأمصار، وأقام للناس قضاة، ليس لهم عمل سوى القضاء.

من ذلك ما كتبه إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة: (إنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمةٌ، وسُنَّةٌ متَّبَعة، فافْهَمْ إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلُّم بحق لا نفاذَ له. آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حَيْفك، ولا ييأس ضعيف من عَدْلك. البيِّنة على من ادَّعى، واليمينُ على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيتَهُ بالأمس، فراجعتَ فيه نفسك، وهُديت لرُشْدِك، أن ترجعَ إلى الحق، فإنَّ الحقَّ لا يُبْطله شيء، واعلم أن مراجعة الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سُنَّة. والمسلمون عدولٌ في الشهادة، إلا مجلوداً في حدٍّ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظَنِيناً[1] في ولاءٍ أو قرابة).

---

(١) ظنيناً: أي مُتَّهماً.

تدوين الديوان:

ونتيجة كثرة الفتوحات فاض المال وسالت الكنوز، حيث فُتحت مصر والشام والعراق وبلاد فارس والمدائن، وجاء العمال بخَراج البلاد المفتوحة، وغَصَّ (بيت المال) بالأموال.

وقال رجل لعمر: (يا أمير المؤمنين، إني رأيتُ هؤلاء الأعاجم يدوِّنون ديواناً[١] يعطون الناس عليه).

ولمَّا عُرضت فكرة الديوان على عمر هوى إليها قلبه، فجمع وجوه الناس يستشيرهم في ذلك. فتكلَّم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، ثم الوليد بن هشام بن المغيرة فقال: (يا أمير المؤمنين، قد جئتُ الشام، فرأيتُ ملوكها قد دَوَّنوا ديواناً، وجَنَّدوا جنوداً، فَدَوِّنْ ديواناً، وجَنِّد جنوداً).

فاطمأن عمر لقول الوليد، ومال قلبه إليه، وكان ذلك في المحرم من سنة (٢٠هـ)، فدعا رجالاً من نُسَّاب قريش: عقيل بن أبي طالب، ومَخْرَمة بن نَوْفل، وجُبير بن مُطْعِم، وقال لهم: (اكتُبوا الناسَ على منازلهم).

(فكتبوا، فبدؤوا ببني هاشم، ثم أَتْبَعُوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على الخلافة. فلما نظر إليه عمر قال: وَددتُ والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله).

وفرض عمر لأهل الديوان، ففضَّل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، وكان أبو بكر الصدِّيق قد سوَّى بين الناس في القَسْمِ، فقيل لعمر ذلك، فقال: لا أجعلُ مَن قاتَلَ رسولَ الله ﷺ كمن قاتل معه!.

ولم يُفَضِّل أحداً على أهل بدر إلا أزواجَ النبي ﷺ، فإنه فرض لكل امرأة منهن اثني عشر ألف درهم.

---

(١) الدِّيوان: هو الدفتر الذي يُكْتَبُ فيه أسماء الجيش وأهل العَطَاء، وأول من دوَّن الدواوين في الإسلام هو الفاروق رضي الله عنه وأرضاه.

وفرض لكل مسلم نصيباً من المال، وكان يقول: (ما على الأرض مسلمٌ لا يملكون رقبته إلا له في هذا الفَيْء حقٌّ، أُعْطِيَه أو مُنِعَهُ، ولئن عشتُ ليأتينَّ الراعيَ باليمن حقُّه قبل أن يحمرَّ وجهُه في طلبه).

وقال: (لئن كثر المال لأفرضنَّ لكلِّ رجل أربعة آلاف درهم: ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يُخلِّفها لأهله، وألف لفرسه وبغله).

وكان يقول: (لأزيدنَّهم ما زاد المال، لأَعُدَّنَّه لهم عَدّاً، فإن أعياني لأَكِيْلَنَّه لهم كيلاً، فإن أعياني حَثَوْتُه بغير حساب)!!.

وعاش الناس في سعة من الرزق، وبَسْطة من المال، وأصبحوا يَدعون لأمير المؤمنين، فإذا بلغ ذلك عمرَ قال: (لا تَحْمَدُنِّي عليه، فإنه لو كان من مال الخطاب ما أُعطيتموه)!.

دار الدقيق:

وابتنى (دار الدقيق)، وجعل فيها الدَّقيق والسَّوِيق والتمر والزبيب، وما يُحتاج إليه، يُعين به المنقطع، والضيف ينزل بعمر الخليفة. ووضع في طريق السُّبُل ما بين مكة والمدينة ما يُصْلِحُ مَن ينقطع به، ويُحمل من ماء إلى ماء، حتى يبلغ المكان الذي يريد.

قوانين أخرى رائدة رائعة:

● وفَرض لكلّ مولود في الإسلام (راتباً)، وكتب بذلك إلى الآفاق.

● وكتب إلى الولاة وقادة الجيش ألاَّ تُحبَس الجيوش فوق أربعة أشهر، بل يعود كل جندي إلى زوجته وأهله فيما دون هذه المدة.

● وكان يُغْزِي الأعزبَ عن ذي الحَليلة، ويُغْزِي الفارسَ عن القاعد.

● وكتب إلى ولاته: (أَلاَ لا يَجلدَنَّ أميرُ جيشٍ ولا سَرِيَّة أحداً الحدَّ حتى يطلعَ الدرب، لئلا تحمله حميَّةُ الشيطان أن يَلْحق بالكفار).

● ومن القوانين العظيمة الحكيمة التي حصَّن بها عمر المدينة النبوية (مركز

الخلافة)، أنه أمر أن لا يدخلها واحد من السَّبْي قد بَلَغ الحلم.

إجلاء اليهود:

وفي سنة (٢٠هـ) أجلى عمر يهود خيبر ويهود نَجْران عن جزيرة العرب، وأرسل لهم فقال: (إنَّ الله أذِنَ لي في إجلائكم، وقد بلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يجتمعنَّ بجزيرة العربِ دِينان»، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهَّز للجلاء).

توسعة المسجد النبوي:

ووسع المسجد النبوي: فابتاع ما حوله من المنازل، ووسع على المسلمين مسجدهم، وطلب إلى العباس عم النبي ﷺ أن يبيعه داره، فتصدَّق بها العباس على المسلمين.

التعليم:

واهتمَّ الفاروق بتعليم الناس، فكان يجلس للأعراب وأهل البادية يعلِّمهم أمور دينهم، وبعث علماء الصحابة لعلِّموا الناس القرآن ويفقِّهوهم في الدين، وأمر الباعة أن يتفقَّهوا في دينهم، فكان يقول: (لا يَبِعْ في سوقنا إلا مَن تفقَّه في الدين).

جمع الناس في التراويح وإنارة المساجد:

وجمع الناس في (صلاة التراويح) على أُبيّ بن كعب، وكَتَب إلى سائر الأمصار يأمرهم بالاجتماع في قيام شهر رمضان.

ونوَّر المساجد بالقناديل، وقد مرَّ علي بن أبي طالب على المساجد في شهر رمضان ـ وفيها قناديل ـ فقال: (نوَّر الله على عمر قبره، كما نَوَّر علينا مساجدنا).

مبدأ من أين لك هذا؟:

ووضع هذا المبدأ العظيم في محاسبة الولاة والأمراء، وقد شهدت أيام خلافته أمثلة باهرة في تطبيق هذا المبدأ البارع الرفيع.

يقرِّب أهل السابقة:

● وكان في مجلسه يقرِّب أهل السابقة ومتقدمي الإسلام، وأهل البلاء فيه، فقد حضر أناس باب عمر، وفيهم سُهيل بن عَمْرو، وأبو سفيان، والشيوخ من قريش رضي الله عنهم، فخرج آذِنُه يأذَنُ لأهل بدر كصُهيب وبلال وعمَّار رضي الله عنهم!.

فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كاليوم قطُّ، إنَّه يأذَنُ لهذه العبيد، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا!.

فقال سهيل بن عمرو: (أيها القوم، إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غِضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودُعيتم، فأَسْرَعوا وأبطأتم)!.

● وقسم عمر ذات يوم أَكسية، وكان فيها كساءٌ جيد واسع، فقال: أبعثُ به إلى أم عُمارة نَسيبة بنت كعب، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما التفتُّ يومَ أُحُد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني»!.

* * *

الفَصل السَادس

مكملات في سيرته

أوّلياته وأقواله وخشيته مسؤولية الخلافة

أولياته:

تلك ومضات مما قام به أمير المؤمنين عمر في أيام خلافته، فلقد كان يسابق الزمان بأعماله الباهرة، فسبق الناس إلى كثير من الأعمال.

فهو أول من كتب التأريخ الهجري، وأول من جمع الناس على إمام واحد في التراويح، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات، وأول من عَسَّ بالليل، وأول من عاقب على الهجاء، وأول من ضرب في شرب الخمر ثمانين جلدة، وأول من أخذ زكاة الخيل، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من دوَّن الديوان وفرض للناس الأعْطِيَةَ من الفَيء، وأول من حمل الطعام في السُّفن من مصر في البحر إلى المدينة، وأول من وقف أرضاً يُتَصَدَّق بِغَلَّتها، وأول من اتَّخذ الدِّرَّة، وأول من مصَّر الأمصار، وأول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من مسح السواد وأرض الجبل، ووضع الخراج على الأرضين، وأول من بسط الحصى في المسجد النبوي.

من أقواله ومواعظه وخطبه:

وجرت على لسان عمر كلمات هي من مَعين الحكمة، وفاضت قريحته بمواعظ وعِبَر هي أشبه ما تكون بكلام النبوة، غير أنها ليست من الوحي.

● قال للناس ناصحاً ومرشداً: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

● وقال للأحنف بن قيس : (يا أحنف، مَنْ كَثُر ضحكه قلَّتْ هيبتُه، ومن مزح استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن كثُر كلامه كثر سَقَطُه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعُه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه).

● وكان من نصائحه للناس قوله: (لا تعترض فيما لا يعنيك، واعتزل عدوَّك، واحتفظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء، ولا تصحب الفاجر، فيعلِّمك من فجوره، ولا تُفشِ إليه سِرَّك. واستشِرْ في أمرك الذين يخشَون الله عزَّ وجلّ).

● ومن دعواته المأثورة: (اللهمَّ إني أعوذ بك أن تأخذني على غِرَّة، أو تَذَرني في غفلة، أو تجعلني من الغافلين).

● ولمَّا توجَّه لفتح بيت المقدس، نزل الجابية، وخطب الناس فيها خطبة طويلة بليغة؛ منها قوله: (أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكفَوا أمر دنياكم، واعلموا أنَّ رجلاً ليس بينه وبين آدم أبٌ حيٌّ لَمُعْرَقٌ له في الموت[1]، ومن أراد طريق الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد، ولا يخلونَّ أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرَّته حسنتُه وساءتْه سيئتُه فهو مؤمن).

تواضعه وخشيته:

ومع كل هذه الأعمال الجليلة والسيرة المشرقة، كان رضي الله عنه على جانبٍ كبيرٍ من التواضع والخشية والإشفاق، ورجاء المغفرة وقبول الأعمال:

● خرج في يومٍ حار، واضعاً رداءَه على رأسه، فمرَّ به غلام على حمار، فقال: (يا غلام، احملْني معك، فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين، قال: لا، اركَبْ وأركبُ أنا خلفك، تريد تحملني إلى المكان الوطيء وتركب أنت على الموضع الخشن! فركب خلف الغلام، فدخل المدينة وهو خلفه، والناس ينظرون إليه).

---

(١) **لمعرق له في الموت**: أي إن له فيه عِرْقاً، وإنه أصيل في الموت.

● وصاح يوماً على رجل وعَلاه بالدِّرَّة، فقال الرجل، أُذَكِّرُكَ بالله! فطَرحَها عمر، وقال: (ذَكَّرْتَني عظيماً).

● وكان شعاره الدائم الذي أعلنه صريحاً مدوياً بين الناس: (أَحَبُّ الناس إليَّ مَن رَفَع إليَّ عيوبي).

يقول أنس بن مالك: (سمعت عمر بن الخطاب يوماً، وخرجتُ معه حتى دخل حائطاً[1]، فسمعتُه يقول ـ وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط ـ: عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، بَخٍ واللهِ بُنَيَّ الخطَّاب، لتتقينَّ اللهَ أو لَيُعَذِّبَنَّكَ)!.

● ولكي يكون دائماً على استحضار للآخرة، ولا ينسى الحساب؛ كان نقش خاتمه: (كفى بالموت واعظاً يا عمر).

وكان يقول: (كلُّ يومٍ يُقال: مات فلان وفلان، ولا بدَّ من يومٍ يُقالُ فيه: ماتَ عمر)!.

● بل بلغَتْ به الخشية الضاغطة، وخوف الموقف والحساب بين يدي الله تعالى، أنه لما احتُضِر، وكان رأسه في حَجْر ابنه عبد الله، قال:

ظَلُومٌ لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي مُسْلِمٌ أُصَلِّي الصَّلاةَ كُلَّها وأَصُومُ

إنه تواضع العظماء الذين عرفوا حقَّ الله، وحقوق الناس، وحقوق الخلافة والحكم، فعرفوا أقدار أنفسهم، فتواضعوا لله أمثل ما يكون التواضع، وأنابوا إليه أرفع ما تكون الإنابة.

* * *

(١) **الحائط**: البستان من النخيل.

الفَصل السَابع

استشهاده ومراثيه وأسرته

بشريات بالشهادة:

مثل هذا الخليفة لم تكن قوى دهاقنة الشر والظلم والتجبّر في الأرض لتسكت عنه، أو ترضى بأعماله التي عصفت بتيجانهم، وأنزلتهم من قصورهم صاغرين.

لم يكن لكيد اليهود، وحَنَق الفرس، وخُبث الروم؛ أن يتركوا أبا حفص يموت على فراشه مثل بقية الناس. فتآمرت تلك القوى لتنفيذ الجريمة السوداء في الليل البهيم!.

● ولقد كان أمير المؤمنين رضي الله عنه يتطلَّع للشهادة ويتمنَّاها، وكأنه على يقينٍ بها، وقد تذكَّر ذلك المشهد الجليل، عندما صعد النبي ﷺ جبلَ أُحد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَفَ بهم الجبلُ، فقال رسول الله ﷺ: «اثْبُتْ أُحُد، فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان».

فكانت نفس عمر تتوق لهذه البشرى، وتتطلَّع لتلك المنزلة الرفيعة، فكان يدعو ويقول: (اللهمَّ ارزقني شهادةً في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك).

وتسأله ابنته حفصة فتقول: (وأنَّى ذلك)؟!.

فيجيبها: (إنَّ الله يأتي بأمره أنَّى شاء).

●وبينا عمر ذات يوم في أصحابه، إذ يتذكَّر قول رسول الله ﷺ: «هذا غَلَقُ الفِتنة ـ وأشار بيده إلى عمر ـ لا يزال بينكم وبين الفتنة بابٌ شديدُ الغَلَق ما عاش هذا بين أظهُركم».

فيسأل جلساءَه قائلاً: (أيُّكم يحفظ قولَ رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقال

حذيفة: أنا أحفظ كما قال. قال: هاتِ، إنك لجريءٌ. قال: قال رسول الله ﷺ: «فتنةُ الرجل في أهله وماله وجاره، تكفِّرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

قال: ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر! قال: يا أمير المؤمنين، لا بأس عليك منها، إنَّ بينك وبينها باباً مُغْلَقاً! قال: يُفْتَح البابُ أو يُكْسَر؟ قال: لا، بل يُكْسَر. قال: ذاكَ أحرى أن لا يُغْلَق. قلنا: عَلِمَ الباب؟ قال: نعم، كما أنَّ دونَ غدٍ الليلةَ! إني حدَّثْتُه حديثاً ليس بالأغاليط. فَهِبْنا أن نسأله، وأَمَرْنا مسروقاً[1] فسأله، فقال: مَن الباب؟ قال: عمر)!!.

● وفي آخر جمعة من أيام خلافته، قام في الناس خطيباً، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد: أيها الناس، إني أُريتُ رؤيا، لا أُراها إلا لحضور أَجَلي، رأيتُ أنَّ ديكاً أحمرَ نَقَرني نَقْرَتَيْن، فحدَّثْتُها أسماءَ بنتَ عُمَيس، فحدَّثتني أنه يقتلني رجل من الأعاجم)!!.

استشهاده ودفنه مع النبي ﷺ وأبي بكر:

وكان عند المغيرة بن شعبة غلام صَنَعٌ هو أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصل، الرومي الدار، فكتب المغيرة إلى عمر يستأذنه أن يدخل أبا لؤلؤة المدينة النبوية ـ وكان عمر لا يأذن لسَبْيٍ قد احتلم في دخولها ـ لأن عنده أعمالاً كثيرة يجيدها، فيها منافع للناس، فهو حداد نقاش نجار، فأذن له عمر رضي الله عنه.

وأضمر أبو لؤلؤة قَتْلَ عمر، واتَّخَذَ خنجراً ذا رأسين، نصابه في وسطه، وشَحَذَه وسَمَّه. وفي صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة كَمَن هذا العِلْجُ في زاوية من زوايا المسجد في غَلَس السَّحَر، ينتظر خروج عمر.

ويروي القصة المروعة عمرو بن ميمون، وكان يصلّي الفجر خلف عمر، يقول عمرو:

---

(١) هو مسروق بن الأجدع، تابعي جليل من رؤوس العلم والعمل، وهو الذي سأل حذيفة عن الباب الذي يُكْسَر.

(إنّي لَقَائمٌ ما بيني وبينه إلا عبدُ الله بنُ عباس غداةَ أُصيب، وكان إذا مرَّ بين الصَّفَّين قال: استَوُوا، حتَّى إذا لم يرَ فيهم خللاً تقدَّم فكبَّر، وربَّما قرأ سورة يوسُف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناسُ، فما هو إلا أن كبَّر فسمعتُه يقول: قتلني ـ أو أكَلَني ـ الكلْبُ، حينَ طعنه، فطار العِلْجُ بسكين ذاتِ طَرَفين، لا يمرُّ على أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلاَّ طعنه، حتى طعن ثلاثة عشرَ رجلاً، مات منهم سبعةٌ، فلمَّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه بُرْنُساً، فلمَّا ظنَّ العِلج أنه مأخوذٌ نَحَرَ نفسَه، وتناولَ عمرُ يدَ عبد الرحمن بن عوف فقدَّمه، فمَن يلي عُمرَ فقد رأى الذي أرى، وأمَّا نواحي المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنَّهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلَّى بهم عبد الرحمن صلاةً خفيفةً، فلمَّا انصرفوا قال: يا ابنَ عباس، انظر مَن قتلَني، فجالَ ساعةً ثم جاء، فقال: غلامُ المُغيرة، قال: الصَّنَعُ؟ قال: نعم، قالَ: قاتَلَه الله، لقد أمرتُ به معروفاً، الحمدُ لله الذي لم يجعل ميتتي بيدِ رجلٍ يدَّعي الإسلامَ، قد كنتَ أنتَ وأبوكَ تُحِبَّان أن تَكْثُرَ العُلُوج بالمدينة ـ وكان العباس أكثرهم رقيقاً ـ فقال: إن شئتَ فعلتُ، أي: إن شئتَ قَتَلْنا؟ قال: كذبْتَ[1]، بعدما تكلَّموا بلسانكم، وصلَّوا قِبْلَتكم، وحَجُّوا حجَّكم. فاحتُمِلَ إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأنَّ الناسَ لم تُصبهم مصيبةٌ قبل يومئذٍ، فقائلٌ يقول: لا بأس، وقائلٌ يقول: أخافُ عليه، فأُتِيَ بنبيذٍ فشربَهُ، فخرجَ من جوفِه، ثم أُتي بلبنٍ فشرِبَه، فخرج من جُرحه، فعلموا أنَّه ميِّتٌ، فدخَلْنا عليه، وجاء الناسُ، فجعلوا يُثنون عليه، وجاء رجلٌ شابٌّ فقال: أَبْشِر يا أميرَ المؤمنين بِبُشرى الله لكَ، مِن صحبةِ رسول الله ﷺ، وقِدَم في الإسلام ما قد علمتَ، ثمَّ وَلِيتَ فعدَلْتَ، ثمَّ شهادةٌ. قال: وَدِدْتُ أنَّ ذلكَ كَفَافٌ لا عَلَيَّ ولا لي، فلمَّا أدبرَ إذا إزارُه يَمَسُّ الأرض، قال: رُدُّوا عليَّ الغلام، قال: ابنَ أخي ارفَعْ ثوبَكَ، فإنَّه أنقى لِثَوبِكَ، وأتقى لربِّك. يا عبد الله بن عمر، انظر ما عليَّ من الدَّين، فحَسَبوه فوجدُوه ستَّةً وثمانينَ ألفاً أو نحوه، قال: إن وفَى له مالُ آلِ عمرَ فأدِّه من أموالِهم، وإلاَّ فَسَلْ في بَنِي عَديِّ بنِ كعب، فإن لم تفِ أموالُهُمْ فَسَلْ في قُريش، ولا تَعْدُهُم إلى

---

(١) كذبت: أي أخطأت، كما هي لغة أهل الحجاز.

غَيرهم، فأدِّ عنّي هذا المال. انطلِق إلى عائشةَ أمِّ المؤمنين، فقُل: يقرأُ عليكِ عمرُ السلام، ولا تقُلْ أميرُ المؤمنين، فإني لستُ اليومَ للمؤمنين أميراً، وقُل: يستأذنُ عمرُ بن الخطاب أن يُدفَنَ مع صاحبيه. فسلَّم واستأذن، ثمَّ دخلَ عليها، فوجدها قاعِدَةً تبكي، فقال: يقرأُ عليكِ عمرُ بنُ الخطاب السَّلام، ويستأذِنُ أن يُدْفَنَ مع صاحبيه. فقالت: كنتُ أُريدُهُ لنفسي، ولأُوثِرَنَّ بِه اليومَ على نفسي، فلمَّا أقبلَ، قيلَ: هذا عبدُ اللهِ بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسندَهُ رجلٌ إليه، فقال: ما لديكَ؟ قال: الذي تُحبُّ يا أمير المؤمنين، أذِنَت، قال: الحمدُ لله، ما كانَ من شيءٍ أهَمَّ إليَّ من ذلك، فإذا أنا قَضَيْتُ فاحمِلوني، ثمَّ سلِّمْ، فقُلْ: يستأذِنُ عمرُ ابن الخطاب، فإنْ أذِنَت لي فأدخِلوني، وإن ردَّتني رُدُّوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصةُ والنِّساءُ تسيرُ معها، فلمَّا رأيْنَاها قُمنا، فوَلَجتْ عليه، فبكَتْ عندَهُ ساعةً، واستأذَنَ الرِّجالُ، فوَلَجتْ داخِلاً لَهُم، فسمِعْنا بُكاءَها من الداخل).

استخلافه الستة أصحاب الشورى، ووصاياه:

ولما رأى الناسُ ما نزل بعمر، قالوا له: يا أمير المؤمنين، اسْتَخْلِفْ، فقال: (ما أجدُ أحداً أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النَّفَر، أو الرَّهْط، الذين تُوفِّيَ رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمَّى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يَشْهَدُكم عبدُ الله بن عمر، وليس له من الأمر شيءٌ ـ كهيئةِ التعزية له ـ فإن أصابتِ الإمْرَةُ سعداً فهو ذاك، وإلاَّ فَلْيَسْتَعِنْ به أيُّكُم ما أُمِّرَ، فإني لم أعزلْه عن عجزٍ ولا خيانةٍ).

ثم قال رضي الله عنه: (أوصي الخليفةَ من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يُعرف لهم حقُّهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوَّؤا الدار والإيمان من قبلهم، أن يُقْبَلَ من محسنهم، وأن يُعْفَى عن مسيئهم. وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رِدْءُ[1] الإسلام، وجُباةُ المال، وغَيْظُ العدو، وأن لا يُؤخذ منهم إلا فَضْلُهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصلُ

(١) ردء الإسلام: أي عونه الذي يدفع عنه ويمدّه بالقوة.

العرب، ومادَّة الإسلام، أن يُؤخذ من حَوَاشي[١] أموالهم، ويُرَدَّ على فقرائهم. وأوصيه بذمَّة الله تعالى وذمَّة رسولِه ﷺ، أن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَلَ مَنْ وراءهم، ولا يُكلَّفوا إلا طاقتهم).

قال عَمْرو بن ميمون: (فلما قُبِضَ خَرَجْنا به، فانْطَلَقْنا نمشي، فَسَلَّم عبدُ الله بن عمر[٢] قال: يَستأذنُ عمر بن الخطاب، قالت: أَدْخِلُوه. فأُدْخِلَ، فوُضِعَ هنالكَ مع صاحبَيْه).

وفاء دَيْنِه:

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد ضَمِنَ وفاءَ دَيْنِ أبيه، ولم يُدْفَن الفاروق حتى أَشهد بها ابن عمر على نفسه أهلَ الشورى وعدَّة من الأنصار. وما مضت جمعةٌ بعد أن دُفن عمر، حتى حمل عبد الله بن عمر المالَ إلى عثمان بن عفان، وأحضر الشهود على البراءة بدفع المال!.

ولم يَحْتَجْ عبد الله أن يَسأل أحداً في وفاءِ دَيْن أبيه، فلقد ترك عمر تركة عظيمة، فقد روى نافع مولى ابن عمر: (أن رجلاً من ورثة عمر قد باع ميراثه بمئة ألف).

غسله والصلاة عليه ودفنه:

وغُسِّلَ عمر ثلاثاً بالماء والسِّدْر، غسَّله ابنه عبد الله بن عمر، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب، وحُمِلَ على سَرير[٣] رسول الله ﷺ. ونظر المسلمون مَن يصلِّي عليه، فإذا صهيب يصلِّي بهم المكتوبات بأمر عمر، فقدَّموا صهيباً، فصلَّى على عمر، وكبَّر أربعاً، في مسجد رسول الله ﷺ، بين القبر والمنبر.

ونزل في قبره عبد الله بن عمر وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف، ودُفن في بيت النبي ﷺ، وجُعل رأس أبي بكر عند كتفَي النبي، وجُعل رأس عمر عند حَقْوي النبي ﷺ.

---

(١) حواشي أموالهم: هي الوسط التي ليست خيرها وليست أسوأها.
(٢) أي على أم المؤمنين عائشة.
(٣) سرير: هو النعش.

ثناؤهم عليه ومراثيه:

ولما وُضِعَ على السرير، إذا بعليٍّ بن أبي طالب يترحَّم على عمر، ويقول: (ما خَلَّفْتُ أحداً أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منكَ. وايمُ الله، إنْ كنتُ لأظنُّ أن يجعلك الله مع صاحبَيْك[١]، وحسبتُ: إني كنتُ كثيراً أسمعُ النبي ﷺ يقول: «ذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر»).

ويقول أبو وائل ـ تلميذ ابن مسعود ـ: (قدِم علينا[٢] عبد الله بن مسعود، فنَعَى إلينا عمرَ، فلم أرَ يوماً كان أكثر باكياً ولا حزيناً منه، ثم قال: والله لو أعلمُ عمرَ كان يحبُّ كلباً لأحببتُه، والله إني أحسب العِضَا[٣] قد وَجَدَ فَقْدَ عمر)!.

وبكى سعيد بن زيد لموت عمر، فقال له قائل: يا أبا الأعور ما يبكيك؟ فقال: (على الإسلام أبكي، إنَّ موت عمر ثَلَمَ الإسلامَ ثُلْمَةً لا تُرْتَقُ إلى يوم القيامة).

وجاء عبد الله بن سَلَام وقد صُلِّيَ على عمر، فقام عند سريره فقال: (نعْمَ أخو الإسلام كنتَ يا عمر، جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضا، وتغضب حين الغضب، عفيف الطَّرْف، طَيِّبَ الظَّرْف، لم تكن مدَّاحاً ولا مغتاباً).

وقال الحسن البصري: (أي أهل بيت لم يجدوا فَقْدَ عمر، فَهُم أهلُ بيت سَوْء).

وقال جعفر الصادق: (أنا بريء ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير).

وقال محمد بن سيرين: (ما أظنُّ رجلاً يَنْتَقِصُ أبا بكر وعمر يُحِبُّ النبيَّ ﷺ).

وقالت زوجته عاتكة بنت زيد ترثيه:

---

(١) أي: كنت أتوقع أن تدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر.
(٢) يعني بالكوفة.
(٣) العضاة: شجر عظيم له شوك.

فَجَعَنِـــــيَ فَيْــــرُوْزُ(١) لا دَرَّ دَرُّهُ بـــأبيـــضَ تــالٍ للكتـــابِ منيـــبِ
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العِدَا أخــي ثقــةٍ فــي النَّـائبـاتِ مُجيْـبِ
متى ما يَقُلْ لا يُكذِبُ القولَ فعلُهُ ســريعٍ إلـى الخيـراتِ غيـرِ قَطُـوبِ

وقالت أيضاً :

عيـــنُ جـــودي بعبـــرةٍ ونحيـــبِ لا تملِّـــي علـــى الإمـــام النَّجيْـــبِ
فجَّعَتْنــي المَنُــوْنُ بــالفَــارِسِ المُعْـ ـلَـــمِ يَـــوْمَ الهَيَـــاجِ والتَّلْبِيْـــبِ
عِصْمَــةِ النَّــاسِ والمُعِيْــنِ علــى الـدَّ هْــرِ وغيــثِ المُنْتَــابِ والمَحْـرُوبِ
قُــلْ لأَهْــلِ السَّــرَّاءِ والبُــؤْسِ مُـوتُـوا قــد سَقَتْــه المَنُــونُ كــأسَ شُعُــوبِ

عمره ومدة خلافته:

طُعن عمر رضي الله عنه صبيحة الأربعاء، لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة، ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة، كسِنِّ النبي ﷺ وسِنِّ أبي بكر، حين توفِّيا.

أزواجه وأولاده:

مجموع نسائه اللاتي تزوَّجَهُنَّ في الجاهلية والإسلام، ممن طلَّقهنَّ أو ماتت عنهن؛ سبع، وهنّ: جميلة بنت ثابت بن أبي الأَقْلَح، زينب بنت مَظْعون، عاتكة بنت زيد، قريبة بنت أبي أمية، مُلَيْكَة بنت جَرْوَل، أم حكيم بنت الحارث، أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب.

وله أَمَتان، هما: فُكَيْهة ولُهَيَّة.

وجملة أولاده ثلاثة عشر ولداً، وهم: عبد الله، عبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأوسط، وعبد الرحمن الأصغر، وزيد الأكبر، وزيد الأصغر، وعبيد الله، وعاصم، وعياض، وحفصة، ورقية، وفاطمة، وزينب.

---

(١) فيروز: هو الخبيث أبو لؤلؤة.

وله من الموالي: أسلم، وهانئ، وأبو أمية، ومهجع، ومالك الدار، وذكوان.

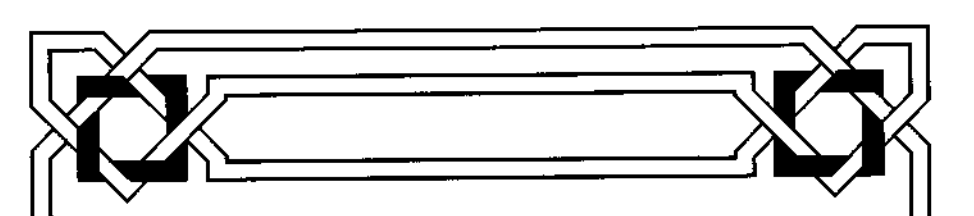
* * *

هذا هو الرجل الكبير الذي لم يُكتب لنا أن نلتقي به في دروب المدينة المنورة، لنرى سجاياه وعظمته ومزاياه تملأ الزمان والمكان، فلنحمد الله تعالى أن عشنا لحظات في رحابه، على مائدته الخالية من أطايب الطعام، المزدحمة بالمكارم والأمجاد والبطولات.

هذا هو عمر بن الخطاب معجزة الإسلام في صياغة الأحكام، ومفخرة التاريخ، ومالئ الدنيا وشاغل الناس، ومشيد الدولة الإسلامية السامقة الباهرة.

فحيا الله أبا حفص أمير المؤمنين، ورحمه الله في الأولين، ورضي عنه في الآخرين، وحشرنا في زمرته يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

● ● ●



الباب الثالث

عثمان بن عفان

ذو النورين، الحيي السخي، شهيد القرآن

٤٧ ق.هـ - ٣٥ هـ

الفصل الأول : نبعته وحليته وإسلامه

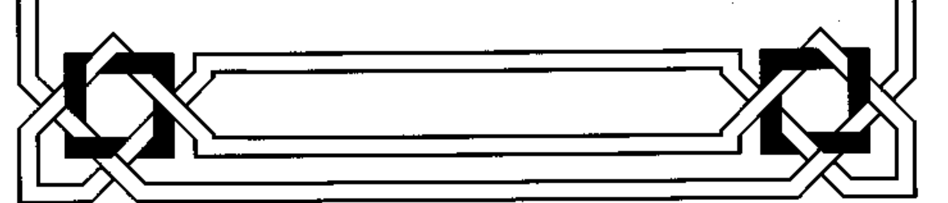
الفصل الثاني : ذو النورين : اللقب والشهرة والمشاهد والصحبة

الفصل الثالث : أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

الفصل الرابع : في رحاب خلافته : سيرته فيها، وسياسته وجلائل أعماله

الفصل الخامس: من الافتراءات والمؤامرات إلى الحصار والاستشهاد

الفصل السادس : استشهاده ومراثيه وأسرته





الفصل الأول

نبعته وحليته وإسلامه

اسمه ونسبه، وصفته وحليته، ومكانته في قريش:

في مكة المكرَّمة حيث الكعبة المعظَّمة كانت قبيلة قريش تحتل مكان الصدارة والاحترام في الجزيرة العربية، لقيامها على شؤون البيت العتيق، الذي يَفِدُ إليه الناس من كلّ حَدَب وصَوْب، وبعد حادثة الفيل بست سنوات، وُلد عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ، القُرشي الأُموي.

وأبوه عفان بن أبي العاص هلك في الجاهلية، ولم يدرك الإسلام.

وأمه أَرْوَى بنت كُريز بن ربيعة، وأمها أم حَكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.

أسلمتْ أروى أم عثمان، وهاجرت، وبايعت رسولَ الله ﷺ، ولم تزل بالمدينة المنورة حتى ماتت في خلافة ابنها، رضي الله عنها.

كان عثمان رجلاً رَبْعَة ليس بالطويل ولا بالقصير، حسنَ الوجه، رقيق البشرة، أحسنَ الناس ثغراً، أقنى[1] الأنف، كثَّ اللحية عظيمها، أسمر اللون، عظيمَ الكَرادِيس[2]، بعيد ما بين المنكبين، ممتلئَ الساقين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه، كثير شعر الرأس، يصفِّر لحيته، ويشدُّ أسنانه بالذهب.

كريمَ الأخلاق، ذا حياء كثير، وكرم منقطع النظير، صادق اللهجة، عفيف

---

(١) **القَنا في الأنف**: طوله ورقَّة أَرْنَبَتِه مع حَدَب في وسطه.

(٢) **الكراديس**: هي رؤوس العظام، واحدها كُرْدُوس. أو: هي ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين، والمراد أنه ضخم الأعضاء.

اللسان، طاهر الذيل، وصفه عبد الله بن عمر فقال:

(ثلاثة من قريش أصبح[1] الناس وجوهاً، وأحسنها أخلاقاً، وأثبتها حياءً، إن حَدَّثُوك لم يَكْذِبوك، وإن حدَّثْتَهم لم يُكَذِّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم).

إسلامه وتحمّله المصاعب:

وكان عثمان يعيش ضمن ذلك الطوفان من الوثنية والشِّرك، ويتألَّق أمامه في ذلك الزحام محمد بن عبد الله ﷺ، وقد نأى بنفسه عن دنس الجاهلية وآلهتها وعاداتها، فالتفت إليه فلم يجد فيه إلا الفضائل الكاملة، والمكارم الفريدة، والمستوى الرفيع الجليل الذي بلغه في صدق نفسه، وصدق حديثه، وصدقه مع الناس.

وتحرك القدر الحكيم إلى ذلك الحشد الهائل من قريش، ليختار أبطال العقيدة الإلـهية، ويضع اللبنات الأساسية في بنيان الدعوة الجديدة المباركة، فكان عثمان من أولئك الذين اصطفاهم الله سبحانه ليكونوا حواريِّي رسول الله ﷺ، فآمنوا به، وعزَّروه ونصروه، وجاهدوا معه، ونهضوا بأعباء الرسالة في أيامها الباكرة.

وكان أبو بكر الصديق قد أسلم، ونَهَد يدعو إلى الإسلام متخيِّراً شبابَ بيوتات أهل مكة، فقال لعثمان: (هذا محمد بن عبد الله، قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه)؟.

ولم يُطِلْ عثمانُ التفكيرَ، فبادر قائلاً: نعم. فذهبا جميعاً إلى رسول الله ﷺ، وتكلَّم أبو بكر بين يدي النبي ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه على عثمان، وقال:

«يا عثمان، أَجِب اللهَ إلى جنَّته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خَلْقه».

---

(١) الصَّباحة: الجَمال.

قال عثمان: (فوالله ما تمالكتُ حين سمعتُ قولَه أن أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله).

وما إن سمعتْ خالتُه بإسلامه حتى قالت:

هَـدى اللهُ عثمـانَ الصفـيَّ بقـولـه فـأرشَـدَهُ واللهُ يهـدي إلـى الحـقِّ
فتـابَـعَ بـالـرأيِ السـديـدِ محمَّـداً وكَانَ ابْنُ أرْوَى لا يصدُّ عن الحقِّ

وانضم عثمان إلى الركب المؤمن في بدايات البعثة النبوية، فكان أحدَ الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام، وصَدَّقوا رسول الله ﷺ، وآمنوا بما جاء به من عند الله.

وما إنْ بَصُرَتْ قريش بتلك العصابة المؤمنة، حتى صَبَّتْ عليها البلاء والاضطهاد، وكان حظّ عثمان من ذلك وافراً، يُضاهي مكانتَهُ في قريش، فتولَّى أمرَ تعذيبه عمُّه الحَكَم بن أبي العاص بن أمية، حيث ربطه بالسلاسل والقيود، وصرخ في وجهه:

(أترغبُ عن ملَّةِ آبائك إلى دين مُحْدَثٍ؟! والله لا أحُلُّكَ أبداً حتى تَدَعَ ما أنت عليه من هذا الدين).

فأجابه عثمان بإصرار حازم، وعزم ثابت: (واللهِ لا أَدَعُهُ ولا أُفارِقُه).

فلما رأى الحَكَم صلابته في دِينه تركَه.

* * *

الفَصل الثاني

ذو النّورين

اللّقبُ وَالشّهرَةُ وَالمشاهِد وَالصُّحْبَةُ

زواجه ولقبه (ذو النورين)، وهجرته:

وكان عثمان يكنّى في الجاهلية أبا عمرو، وبُعيد إسلامه زوَّجه رسول الله ﷺ ابنته (رُقَيّة)، وفيهما قالت سُعدى بنت كُرَيْز ـ خالةُ عثمان ـ:

وأنكَحَهُ المبعوثُ بالحقِّ بنتَهُ فكان كبدرٍ مازَجَ الشمسَ في الأُفُقِ

وبقيت عند عثمان رضي الله عنهما، وولدتْ له ابنَه عبد الله فاكتنى به، وكناه المسلمون أبا عبد الله. وتوفيت رقية عند عثمان في أيام غزوة بدر، وعمرها عشرون سنة، فزوَّجَه النبي ﷺ ابنتَه الأخرى (أم كلثوم) التي توفيت عنده سنة تسع من الهجرة.

ولذلك سُمِّيَ عثمان (ذا النورين)، ولا يُعرف أحدٌ تزوَّج ابنتي نبيٍّ غير عثمان رضي الله عنه.

وازداد عدد المسلمين، وترعرعت الدعوة الناشئة، وأخذ عودها يشتد، وعلى الجبهة المقابلة تضرَّمت نار قريش، وتأجج لهيبُ التعذيب والاضطهاد، وانصبَّ على ذلك النفر الصالح.

ويرى الرسول الرحيم ﷺ ذلك البلاء الذي يلاقيه أصحابه، فيوجِّه أنظارهم إلى بلد يجدون فيه الأمان والعافية، فيأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً عادلاً لا يُظْلَمُ عنده أحد.

فخرج المسلمون، وكان أول من خرج عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية

بنت رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ : «صَحِبَهما الله ، إنَّ عثمانَ لأولُ مَن هاجر إلى اللهِ عزَّ وجلّ بأهله بعد لوط عليه السلام».

وهاجر عثمان الهجرة الثانية إلى الحبشة، ومعه زوجته الطاهرة رقية رضي الله عنهما. ثم رجع إلى مكة مع مَن رجع من مهاجري الحبشة، ثم هاجر بأهله إلى المدينة المنورة، ونزل على أوس بن ثابت الأنصاري، أخي حسان شاعر الرسول ﷺ.

مشاهده مع رسول الله ﷺ:

● لم يشهد عثمان (غزوة بدر)، فقد كانت زوجته رقية مريضة، فاشتغل بتمريضها عن أمر النبي ﷺ، فأقام بسببها في المدينة، وضَرب له رسول الله ﷺ بسَهْمه منها وأجرِه فيها، فهو معدود فيمن شهدها.

● وشهد (غزوة أُحد)، وكان فيمن صاوَلَ وقاتل تحت راية رسول الله ﷺ، ولمَّا خالف الرُّماةُ أمرَ النبي ﷺ، ودَهَمَهم المشركون من خلفهم، وكانت كارثة مروِّعة، وأُشيع أنَّ رسول الله ﷺ قُتل؛ ففرَّ أغلب المسلمون، وكان معهم عثمان، بدافع الذهول لا الجُبْن. وقد عَذَرَهم اللهُ تعالى وعفا عنهم، وأنزل فيهم قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

● وشهد (الخَنْدق)، و(الحُدَيبية) وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذٍ بإحدى يديه، وشهد (خيبرَ) و(عمرة القضاء)، وحضر (الفتح) و(حُنيناً) و(الطائف) و(غزوة تبوك)، وحجَّ مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وتوفي ﷺ وهو عنه راضٍ.

● وفي (صلح الحديبية) انتدبه النبي ﷺ لمهمة عظيمة، فسارع إليها وتصدى للمخاطر بشجاعة وحزم غير مبالٍ بها.

ففي العام السادس للهجرة خرج رسول الله ﷺ بأصحابه، وكانوا زُهاءَ ألف وخمس مئة رجل، إلى مكة المكرمة قاصدين البيت الحرام، يريدون الاعتمار والطواف بالبيت العتيق. وعلمتْ قريش بذلك، فلبست ثيابَ الحرب وخرجت للقائه وصَدِّه عن مراده.

فدعا النبي ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظِّماً لحرمته.

فحمل عثمان أمر رسول الله ﷺ دونما تهيُّب ولا وَجَل، لا يهمه ما يحدث له هناك في أَتون قريش المضطرم وغضبها اللافح. وخرج إلى مكة، فلقيه ابنُ عمه أبان بن سعيد بن العاص، فأَسرج له فرسه، وحمله عليه وأجاره، وأردفه أبان حتى دخل مكة. وأتى عثمان أبا سفيان وعظماء قريش، وبَلَّغَهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به. فقالوا لعثمان لما فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إنْ شئتَ أن تطوفَ بالبيتِ فَطُفْ! فقال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ!!.

ولم تكتفِ قريش بما سبق منها، بل اعتقلتْ عثمانَ واحتجزتْهُ، وأشاعت أنه قُتل، فَبَلَغ النبأُ معسكر المسلمين، وهنالك قرَّر الرسول ﷺ أن يلقن المشركين درساً يردّهم به عن طغيانهم، ويُريهم من عزمه وتصميمه ما يزجرهم عن غطرستهم، وليعلِّمهم أنَّ دمَ المسلم عظيمٌ عند الله، مُصانٌ عند رسوله والمؤمنين، فقال ﷺ:

«لا نَبْرح حتى نُناجِز القوم»!.

ودعا النبي ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، وعُقد هنالك أروع مواثيق التاريخ، فبايعه المسلمون على الموت.

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ عثمان في حاجة إلى الله ورسوله»، وقال بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده الأخرى فقال: «هذه لعثمان»، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وقد خلَّد القرآن الكريم تلك البيعة في آيات مباركات، فقال سبحانه: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ثم جاء الخبر الصادق بأنَّ عثمان لم يُقتل، وعاد إلى المسلمين سليماً معافًى.

● وفي السنة التاسعة للهجرة عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق، فأمر الصحابةَ بالتهيُّؤ لغزوة تبوك، وكان ذلك في زمان عُسْرة من الناس، وجَدْب من البلاد، وشدَّة الحرّ.

وجاء ناس من الأصحاب رسولَ الله ﷺ يطلبون أن يَحمِلَهم على الإبل لِضِيق ذات يدهم، وهم يرغبون أن يصحبوه في غزوته هذه، فلم يجدوا عنده ما يحملهم عليه، فرجعوا وهم يبكون تأسفاً على ما سيفوتهم من أجر الجهاد مع النبي ﷺ، فسُمُّوا (البكَّائين).

فقام الرسول ﷺ يحضُّ الناس على التبرع، فجاء الصحابة كلٌّ بقدرِ وسْعِه وطاقته. ثم رغَّبَ ﷺ بثواب الله العظيم في الآخرة، فقال: «مَن جَهَّزَ جيشَ العُسْرة فله الجنة»! فنشط لذلك عثمان وتصدَّق بصدقة عظيمة، ولندعْ الصحابي عبد الرحمن بن خَبَّاب يروي لنا ذلك المشهد الفذّ، فيقول:

(شهدتُ النبيَّ ﷺ وهو يحثّ على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ مئة بعير بأَحْلاَسِها وأَقْتَابِها[1] في سبيل الله. ثم حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، لله عليَّ ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما عَمِلَ بعد هذه، ما على عثمان ما عَمِلَ بعد هذه»)!!.

بل إنَّ عثمان زاد على ما تكفَّل به أمام النبي ﷺ، فجهز تسع مئة وخمسين بعيراً، وخمسين فرساً أكمل بها الألف!! وجاء بسبع مئة أوقية ذهب[2]، وحمل ألف دينار، ففرغها في حِجْر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلّبها ويقول:

---

(١) أحلاسها: جمع حِلْس، وهو كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت السَّرْج أو الرَّحْل.
أقتابها: جمع قَتَب، أي الرَّحْل.

(٢) الأوقيّة تعدل (١١٩) جراماً، فيكون مقدار ما تبرَّع به عثمان (٨٣,٣) كيلو جراماً من الذهب!!.

«ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعد هذا اليوم». «اللهمَّ لا تنسَ عثمان، ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم».

حبّه للنبي ﷺ، وطاعته له، واقتداؤه به:

وفي جانب آخر في شخصية عثمان رضي الله عنه، نجده قد أحبَّ رسولَ الله ﷺ حباً عظيماً، وبَذَلَ له طاعته، وتابعه في السر والجهر، والعُسْر واليُسْر، والمَنْشَط والمَكْرَه، ما تلكأ لحظة، ولا تأَخَّر في موقف، ولا تلجلج إذا دعاه الداعي.

ولقد بيَّن عثمان ذلك فقال: (أما بعد، فإنَّ اللهَ بعث محمداً بالحق، فكنتُ ممن استجاب لله ورسوله، وهاجرتُ الهجرتين، وبايعتُ رسول الله ﷺ، فوالله ما غششتُه، ولا عصيتُه حتى توفاه الله).

● فعندما بعثه النبي ﷺ سفيراً إلى قريش في (عمرة الحديبية)، ودخل مكة وقد أجاره ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص، وكان إزار عثمان قصيراً، فقال له أبان: (يا ابنَ عمِّ، أراك متخشِّعاً! أَسْبِلْ إزارَك. فقال له عثمان: هكذا يأتزر صاحبنا[1] إلى أنصاف ساقيه).

ولمَّا قال له أبان: (يا ابنَ عمٍّ، طُفْ بالبيت)، فقال عثمان: (إنا لا نصنع شيئاً حتى يصنع صاحبنا ونتَّبع أَثَره).

● ويروي الصحابي الجليل يعلى بن أمية رضي الله عنه فيقول: (طفتُ مع عثمان، فاستلمنا، قال يعلى: فكنتُ مما يلي البيت، فلما بلغنا الركنَ الغربيَّ، الذي يلي الحجر الأسود، جررتُ بيده ليستلم، قال: ما شأنُك؟ قلت: أَلاَ تستلم؟ فقال: ألم تَطُفْ مع رسول الله ﷺ؟ فقلت: بلى، قال: أرأيتَهُ يستلم هذين الركنين الغربيين؟ قلت: لا، قال: أفليس لك فيه أسوة حسنة؟ قلت: بلى، قال فانفُذْ[2] عنك).

---

(١) صاحبنا: يعني رسول الله ﷺ.

(٢) انفذ عنك: أي دعه وتجاوزه.

● ولما مات رسول الله ﷺ حزن عليه الصحابة حزناً عظيماً، وكان حظّ عثمان من الحزن عليه بالغاً، ويحدث عن ذلك فيقول:

(توفي رسول الله ﷺ، فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كاد بعضهم يُوَسوس[1]! فكنتُ ممن حزِن عليه، فبينا أنا جالس في أُطْم[2] من آطام المدينة ـ وقد بويع أبو بكر ـ إذ مرَّ بي عمر، فلم أشعر به لِما بي من الحزن! فانطلق عمر حتى دخل على أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، أَلاَ أُعَجِّبُك؟! مررتُ على عثمانَ فسلَّمتُ عليه، فلم يردَّ عليَّ السلام)!.

* * *

---

(١) يوسوس: يختلط كلامهم.
(٢) أطم: حصن.

الفَصل الثالث

أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

أخلاقه الرفيعة:

● كان في أبرز أخلاق عثمان وأشدِّها تمكُّناً من نفسه خُلُق الحياء، الذي تأصَّل في كيانه فكان ممعِناً في الأصالة، ودائماً ممعِناً في الديمومة، لذا فقد أشاد الرسول ﷺ بهذا الحياء الواسع العميم فقال:

«أَرْحَمُ أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّها في دين الله عمر، وأشدُّها حياءً عثمان».

والحياءُ خُلُق عظيم يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ويشحذ النفس على فعل الطاعات، ويحجزها عن ارتكاب المعاصي والمنكرات، ويسابق بصاحبه لفعل كل خير، وينأى به عن مهاوي الشبهات. ولمثل هذه المعاني يشير قول رسول الله ﷺ: «الحياءُ خيرٌ كلُّه»، «الحياءُ لا يأتي إلا بخير».

وعلى هذا المعنى الرحب تربّى عثمان وعاش، فكان الحياء في نفسه طاقة موّارة تسيطر على شخصيته كلها، وتقود فضائله في بوتقتها.

فهو يوم عَرض عليه النبي ﷺ دعوته، استحيى من نفسه أن يزيّف قناعاته الباطنة، فأسرع وأجاب مؤمناً مصدّقاً.

ولما تكالَبَ المشركون على الدعوة، قاده حياؤه للتضحية بالثراء والأهل والديار، فهبَّ للهجرة، واستحيى أن يسبقه الضعاف والعبيد إليها.

وإذا دعا داعي الجهاد ترفع به حياؤه عن أن يقعد في بيته، فيسرع ملبّياً النداء.

وعندما يسمع الرسول ﷺ يحض على النفقة وتجهيز جيش العسرة، يأبى عليه حياؤه أن يضنَّ بالمال.

● ولمَّا استُخلف زاد حياؤه نماءً وتألّقاً، كالغصن الرطيب زاده المطر نضرة واخضراراً.

فإذا ولى قائداً أو أميراً تخيَّر أفضل الناس، واستحيى من الله سبحانه أن يراه قد استعمل رجلاً على المسلمين وفيهم من هو خير منه وأعظم عائدة.

وإذا انتُهك حدٌّ من حدود الله، ألحَّ عليه حياؤه من الله في إقامته، فلا يراه ربه متباطئاً في تنفيذ حدوده.

وحتى حين حاصره البُغَاة، وأرادوا منه خَلْعَ سِربال الخلافة، أبى عليهم أشدَّ الإباء، لأن النبي ﷺ أمره أن لا يخلع نفسه، فاستحيى أن يعصي رسول الله ﷺ، ولو كان ثمن ذلك دمه الطاهر.

هذا هو الحياء عند عثمان، لا ما يتخيَّله المُرجِفون من أنه لِينٌ وضعفٌ وعجزٌ وانكسارُ نفس! وما أروعَ بيانَ النبي ﷺ وهو يصف عثمان بقوله: «أصدقُ أمتي حياءً عثمان».

سخاؤه:

وأما سخاؤه وكرمه وعطاؤه وإنفاقه فشيءٌ منقطع النظير، فلقد بذل ماله في سبيل الله يميناً وشمالاً، حتى لقد غطى كرمُه ـ مع حيائه ـ على باقي خصاله الكريمة وسجاياه النبيلة. ولقد تنازَلَ لدِينه وإخوانه عن ماله الفيَّاض، فأنْفَقَه بغير حساب. ولو ذهبنا نبحث عن رجلٍ مثل عثمان في بَذْلِه العريض، وعطائه المُفيض، لَعَزَّ علينا أن نجد مثيلاً له ونظيراً.

فعندما ضاق المسجد النبوي بالمصلين، تمنّى النبي ﷺ أن يشتري أحد الصحابة الأرض المجاورة لضمّها إليه، فقال مرغّباً بأجر ذلك: «مَنْ يشتري بُقْعَةَ آل فُلان، فَيَزِيدَها في المسجد بخيرٍ له منها في الجنة». فاشتراها عثمان من صُلْبِ ماله بخمسة وعشرين ألفاً.

وبعد فتح مكة اشترى أحد البيوت الواسعة الملاصقة للمسجد الحرام بعشرة آلاف دينار، وضُمَّ للمسجد.

واشترى (بئر رُومة) بعشرين ألف درهم، وجعلها للمسلمين، للغني والفقير وابن السبيل.

وفي (تبوك) جَهَّزَ جيشَ العُسْرة بتسع مِئةٍ وخمسين بعيراً، وأتمَّ الألفَ بخمسين فرساً، وألْقى في حِجْر النبي ﷺ ألفَ دينار، وجاء بسبعِ مئة أوقية ذَهَب فصبَّها بين يديه ﷺ.

وعن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ: (أنَّ عثمانَ رضي الله عنه حيثُ حُوصِرَ، أشرفَ عليهم، وقال: أَنْشُدُكُمُ اللهَ ـ ولا أَنْشُدُ إلا أصحابَ النبي ﷺ ـ أَلَسْتُمْ تعلمونَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فلهُ الجنة». فحفرتُها. ألستمْ تعلمون أنه قال: «مَنْ جَهَّزَ جيشَ العُسْرَةِ فلهُ الجنة». فجهزتُه. قال: فصدَّقوهُ بما قال).

وروى أبو مسعود رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي ﷺ في غَزَاة، فأصابَ الناسَ جَهْدٌ، حتى رأيتُ الكآبةَ في وجوه المسلمين والفرحَ في وجوه المنافقين، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال: «واللهِ، لا تغيب الشمسُ حتى يأتيكم الله برزق». فعَلِمَ عثمانُ أنَّ اللهَ ورسولَه سَيُصَدِّقان، فاشترى عثمان أربعَ عشرةَ راحلةً بما عليها من الطعام، فوجَّه إلى النبي ﷺ بتسعة، فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال: «ما هذا»؟ قالوا: أهدى إليك عثمان. قال: فعُرِف الفرح في وجوه المسلمين والكآبة في وجوه المنافقين، فرأيتُ النبي ﷺ قد رفع يديه حتى رُئي بياض إبطيه، يدعو لعثمان دعاء ما سمعته دعا لأحد قبله: «اللهمَّ أعطِ عثمان، اللهمَّ افعلْ لعثمان»).

وقَحِط الناس في زمان أبي بكر، فقال الصدّيق لهم: إن شاء الله لا تُمْسُونَ غداً حتى يأتيكم فرج الله. فلما كان صباح الغد، قدمتْ قافلة عثمان، فَغَدَا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالفَ بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته. فأبى وقال: اللهمَّ إني وهبتُها فقراءَ المدينةِ بلا ثمنٍ وبلا حساب!.

وقال رضي الله عنه: (ما أتتْ عليَّ جمعةٌ إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمتُ، إلا أن لا أجدها في تلك الجمعة، فأجمعها في الجمعة الثانية).

وعندما حُصِر في أيامه الأخيرة من قِبَل البُغَاة أَعْتَقَ عشرين عبداً مملوكاً.

رحمته وحُسن معاملته:

وكانت رحمته تشيع في نفسه الحانية وقلبه الودود كما يشيع الريّ في العود الأخضر الريّان، فتراه في الليل يقوم ليتهجَّد، يتكئ على شيخوخته المُجْهَدة، ويُحضر الماء بنفسه، ولا يوقظ أحداً، فَيُعاتَبُ في ذلك، فيُقال له: لو أيقظتَ بعض الخدم فكَفَوْكَ؟! فيقول: (لا، الليل لهم يستريحون فيه).

ويغضب على عبدٍ ذات يوم فيعرُك أُذنَه حتى يوجعه، وسرعان ما يفكّر بالآخرة والقصاص، فيقول لعبده: (إني عركتُ أُذنك فاقتصَّ منّي).

واشترى مرة من رجل أرضاً، فأبطأ عليه الرجل في قبضِ ثمنها، فلقيه بعد ذلك، فقال له: ما منعك من قبض مالِك؟ فقال الرجل: إنك غبنتني، فقال عثمان: أذلك ما يمنعك؟ قال: نعم. فقال له عثمان: فاختر بين أرضك ومالِك، فلقد قال رسول الله ﷺ: «أدخلَ الله الجنة رجلاً كان سَهْلاً مشترياً وبائعاً، وقاضياً ومقتضياً».

واستدان طلحة بن عُبيد الله من عثمان مبلغاً من المال، وبعدما ساق الله الأموال لطلحة بادر لوفاء دَيْنه، فلقي عثمانَ وهو خارج إلى المسجد، فقال له: (إنَّ الخمسين ألفاً التي لك عندي قد حصلتْ، فأرسِلْ مَن يقبضها. فقال له عثمان: إنّا قد وهبناكها لمروءتك!).

عبادته ونسكه وتقواه:

وفي محراب العبادة كان عثمان واحداً من أفذاذها المعدودين؛ يصوم النهار، ويقوم الليل، ويديم النظر في المصحف الشريف. ولقد ثابر على هذا النمط من عبادته طوال حياته وعمره المديد الذي نَيّف على الثمانين.

● ففي صلاته وقيامه بلغ شأواً بعيداً، يروي عطاء بن أبي رباح: أنّ عثمان

صلَّى بالناس، ثم قام خلف المقام، فجمع كتاب الله في ركعة كانت وِتْرَه، فَسُمِّيَتْ (البُتَيْرَاءَ).

وقال عبد الرحمن بن عثمان التَّيْمي: (قمتُ خَلْفَ المَقَام وأنا أريد أن لا يَغْلِبَني عليه أحدٌ تلك الليلة، فإذا رجلٌ يَغْمِزُني فلم ألتفتْ، ثم غَمَزَني فنظرتُ فإذا عثمان بن عفان، فتنحَّيتُ، فتقدَّم فقرأ القرآنَ في ركعةٍ، ثم انصرف).

وعن محمد بن سيرين قال: (لما أحاطوا بعثمان ودخلوا عليه ليقتلوه، قالت امرأته: إنْ تقتُلوه أو تَدَعُوه، فقد كان يُحْيي الليلَ بركعةٍ يجمع فيها القرآن).

قال الإمام ابن كثير: (وقد رُوي هذا من غير وجه على أنه صلَّى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه. ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]، قال: هو عثمان بن عفان. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦]، قال: هو عثمان).

● وبلغ من حرصه على صيام النوافل حدّاً حمل معاصريه أن يصفوه بأنه: (كان يصوم الدهر).

● وقد تعلّق قلبه بالقرآن الكريم فكان جليسه وأنيسه، وكان يقول في ذلك: (ما أحبّ أن يأتي عليَّ يوم ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله).

ويروي الحسن البصري فيقول: (قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا). قال الحسن: (وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه).

● وأما الحج فكان مهوى فؤاده، فلقد حَجَّ مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وحَجَّ في خلافة عمر هو وعبد الرحمن بن عوف بأمهات المؤمنين، وفي خلافته حَجَّ عشرَ سنين متوالية، إلا السنة التي حُوصر فيها، فوجَّه ابنَ عباس فحجَّ بالناس.

● ويحدِّث مولاه هانئ فيقول: (كان عثمان إذا وقف على قبر يبكي حتى يُبلَّ لحيته). وينشد على القبر:

فإنْ تَنْجُ منها[1] تنجُ مِن ذي عظيمةٍ وإلاَّ فإنِّي لا إخالُكَ ناجيا

علمه:

● كان عثمان من علماء الصحابة، وأحدَ القلائل الذين كانوا يُفْتون في عهد النبي ﷺ.

يحدّث القاسم بن محمد فيقول: (كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ يفتون على عهد رسول الله ﷺ).

وعن سَهْل بن أبي حَثْمَة قال: (كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من المهاجرين وثلاثة نفر من الأنصار: عمر وعثمان وعلي، وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت).

وكان يفتي أيضاً في خلافة أبي بكر، ولمَّا وُلِّي عمر كانت الفتوى تصير إلى: عثمان، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت.

ولقد كان عثمان أعلمَ الصحابة بالمناسك، وبعده عبد الله بن عمر.

ومن الأدلة الظاهرة على علمه الغزير كونه أصبح ثالث خليفة للمسلمين، فالخليفة يجب أن يكون من أعلمِ الناس بكتاب الله، وأقرئهم له، وأكثرِهم معرفةً بسنّة النبي ﷺ.

● وكان يتحرَّج من التحديث عن رسول الله ﷺ، خشيةَ أن تُخْطِئه الذاكرة، فيزيد في الحديث أو ينقص منه، فكان يقول: (ما يَمنعُني أن أحدِّثَ عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى أصحابه عنه، ولكني أشهدُ لَسَمعتُه يقول: «مَن قال عليَّ ما لم أقلْ فليتبوَّأ مقعدَه من النار»).

---

(١) أي: الحفرة.

● لهذا الأمر، ولانشغاله بأمور الخلافة في عهده، ومع أبي بكر وعمر قبله، قَلَّتْ مروياتُه عن النبي ﷺ، فقد رُوي عنه مئة حديث وستة وأربعون حديثاً.

روى الحديث مشافهةً عن رسول الله ﷺ، وعن أبي بكر وعمر.

وحَدَّث عنه من الصحابة: عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعمران بن حُصَيْن، وأبو قتادة، وأبو هريرة، وأنس بن مالك، وسَلَمة بن الأَكْوَع، وابن عُمر، وابن عباس، وابن الزبير، وغيرهم.

وحمل عنه الحديث جماعة من أولاده ومواليه، وجمهرة من التابعين.

من أهل الجنة:

هذا الصحابي السبَّاق في إسلامه، المهاجر إلى الله ورسوله، الحيي الذي تستحيي منه الملائكة، السخي المعطاء الكريم، الخاشع الضارع، الصائم القائم؛ أين هي منزلته عند ربه سبحانه وتعالى؟.

● يحدث أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فيقول: (كنتُ مع النبي ﷺ في حائطٍ من حيطان المدينة، فجاء رجلٌ فاسْتَفْتَح، فقال النبي ﷺ: «افتح له وبَشِّرْه بالجنة». ففتحتُ له، فإذا أبو بكر، فبشَّرْتُه بما قال النبي ﷺ، فَحَمِدَ الله.

ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: «افتح له وبَشِّرْه بالجنة». ففتحت له، فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله.

ثم استفتح رجل، فقال لي: «افتح له، وبَشِّره بالجنة على بلوى[1] تُصيبه»! فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان).

● وقال رسول الله ﷺ: «من يحفر بئر رُومة فله الجنة». فحفرها عثمان.

● وقال ﷺ: «من جَهَّزَ جيش العُسْرة فله الجنة». فجهَّزها عثمان رضي الله عنه.

---

(١) بلوى: أي بليّة، وهي التي صار بها عثمان شهيد الدار عندما قتله البُغاة المجرمون.

ولهذا قال أبو هريرة: (اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين: حيث حفر بئر رومة، وحيث جهز جيش العسرة).

● وفي حديث سعيد بن زيد: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان، وعلي، . . .») وذكر تمام العشرة.

منزلته عند النبي ﷺ وأصحابه:

لقد كانت مزايا عثمان وشمائله تحظى بحَدَبٍ عظيم وإيثارٍ كبير له من رسول الله ﷺ:

● فزوَّجه ابنته رقيَّة رضي الله عنها، وماتت عنده، فزوَّجه ابنته الأخرى أم كلثوم، وبقيتْ عنده حتى توفاها الله إليه سنة تسع من الهجرة، رضي الله عنها وأرضاها.

● وكان يكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، كما كان كاتبَ سرِّه ﷺ، وإذا جلس النبي ﷺ، جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعثمان بين يديه.

● ويروي معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «إني رأيتُ أنّي وُضِعْتُ في كِفَّة وأمتي في كِفَّة فَعَدَلْتُها، ثم وُضع أبو بكر في كفة وأمتي في كفة فَعَدَلَها، ثم وُضع عمر في كِفَّة وأمتي في كفة فَعَدَلها، ثم وُضِعَ عثمانُ في كِفَّة وأمتي في كِفَّة فَعَدَلها».

● ويقول أبو سعيد الخُذْرِيُّ: (رأيتُ رسولَ الله ﷺ من أوَّلِ الليل إلى أن طلعَ الفجرُ رافعاً يديه يدعو لعثمانَ، يقول: «اللهمَّ عثمان، رضيتُ عنه فارْضَ عنه»)!.

ولقد عرف الصحابة الكرام منزلته رضي الله عنه، فوضعوه من أنفسهم بالمنزلة التي وضعه فيها رسول الله ﷺ، وأَثْنَوا عليه، ونشروا فضائله، وأنَّبوا مبغضيه، وقاتلوا شانئيه والخارجين عليه.

● فكان رضي الله عنه قريباً من أبي بكر وعمر في خلافتهما، يدخل عليهما

في عِلْية الصحابة، ليُشيروا بآرائهم في أمور المسلمين والدولة، وكان الشيخان يقرِّبانه ويستشيرانه.

● وقد ذكر أناسٌ عثمانَ في خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقال الحسن بن علي: الآن يجيء أمير المؤمنين، فجاء علي فقال: (كان عثمان من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]).

● ويقول عبد الله بن عمر: (كنَّا في زمنِ النبيِّ ﷺ لا نَعْدِلُ بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحابَ النبي ﷺ لا نُفَاضِل بينهم).

● ولما أشاع بعضُ الشانئين أنَّ حُبَّ عثمانَ وعليٍّ لا يجتمعان في قلب واحد، وتناهَى هذا الإفك إلى خادم رسول الله ﷺ أنسِ بن مالك، ردَّه قائلاً: (كَذَبوا، والله لقد اجتمع حبُّهما في قلوبنا).

* * *

الفَصل الرابع

في رحاب خلافته
سِيَاسَتُهُ وَجَلَائِلُ أَعْمَالِهِ

الإشارات النبوية إلى استخلافه، وإرهاصات ذلك:

كانت هناك إيماءات نبوية وأحاديث صحيحة وإرهاصات واضحة لاستخلاف عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (أنَّ رسول الله ﷺ أَرسل إلى عثمان بن عفان، فجاء، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقال له: «يا عثمان، إنَّ اللهَ عسى أن يُلْبِسَكَ قميصاً[1]، فإن أرادك المنافقون على خَلْعِه فلا تخْلَعْه حتى تلقاني»، ثلاثاً).

ويحدّث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُري الليلةَ رجلٌ صالح أن أبا بكر نِيط برسول الله، ونِيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر». فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله، وأما ما ذكره رسول الله ﷺ من نَوط بعضهم ببعض؛ فهؤلاء ولاة الأمر الذي بعث الله به نبيه ﷺ).

● ويقول عبد الله بن عمر: (كنا نقول في عهد النبي ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان ـ يعني في الخلافة ـ).

● وعندما حجَّ الفاروق عمر حجَّته الأخيرة، ورأى تكبير الناس ودعاءهم وما يصنعون، فأعجبه ذلك، فقال لحذيفة ـ وكان بجنبه ـ: (يا حذيفة، كما ترى هذا يبقى للناس؟ فقال حذيفة: على الفتنة باب، فإذا كُسر أو فُتح خرجتْ! فقال

---

(١) يعني الخلافة.

عمر: وما ذلك الباب؟ وما كَسْرُ باب وما فَتْحُه؟ قال حذيفة: رجلٌ يموت أو يُقتل! فقال عمر: يا حذيفة، من ترى قومك يؤمّرون بعدي؟ فقال حذيفة: رأيت الناس قد أسندوا أمرهم إلى عثمان)!!.

● ويقول حارثة بن مُضَرّب: (حججتُ في خلافة عمر، فلم أرهم يشكّون أنّ الخليفةَ بعده عثمان).

استخلافه ومبايعة الأمّة له:

وهذه الإشارات النبوية، والمواقف الصريحة الواضحة من الصحابة في عهد النبي ﷺ والخليفتين بعده؛ جعلت عثمان يتبوأ تلك المكانة، ويُشار إليه في الناس بعد عمر رضي الله عنه.

وعندما طُعِنَ عمر طلب إليه المسلمون أن يستخلف عليهم من يقوم بالأمر بعده، فقال: (لا أَجِدُ أحداً أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفِّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فأيُّهم استُخْلِف فهو الخليفة من بعدي، فسمَّى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ـ وسعداً ـ بن أبي وقاص ـ).

وبعبقريته الفذّة أومأ إلى اثنين يَرجحان بمنزلتهما عند الناس، فقال: (ما أظنُّ الناسَ يَعْدِلون بعثمان وعلي أحداً، إنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه).

وقال لأولئك الستة: (إذا أنا متّ فتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم).

واجتَمعوا في حجرة أم المؤمنين عائشة، وكان طلحة بن عُبيد الله غائباً فحضر، وأشار عبد الرحمن بن عوف أن يفوّض ثلاثة منهم ما يستحقونه من الإمارة إلى ثلاثة، فقال: (اجعلوا الأمر إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلتُ أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلتُ أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن بن عوف: أيكما تبرّأ من هذا الأمر، فنجعلَهُ إليه، واللهُ

عليه والإسلامُ لينظرنَّ أفضلَهم في نفسه؟ فأَسْكَتَ الشيخان[(١)] .

فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ ، والله عَلَيَّ أن لا آلُو[(٢)] عن أفضلكم؟

قالا : نعم .

فأخذ بيد أحدهما[(٣)] فقال : لكَ قرابة من رسول الله ﷺ ، والقِدَمُ في الإسلام ما قد علمتَ ، فالله عليك لئن أمَّرْتُكَ لتعدلنّ ، ولئن أمَّرتُ عثمانَ لتسمعنَّ ولتطيعنَّ؟! ثم خلا بالآخر ، فقال له مثل ذلك) .

فقال كل منهما : نعم . ثم تفرقوا .

وكانت مهمة شاقة وعظيمة ، يجب على عبد الرحمن بن عوف أن ينجزها في الأيام الثلاثة التي أوصاهم الفاروق ألا يجاوزوها .

ونهض عبد الرحمن بن عوف يستشير عثمان وعلياً ، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وقادتهم ، جميعاً وأشتاتاً ، مثنى وفرادى ومجتمعين ، سرّاً وجهراً ، حتى خَلَصَ إلى النساء المُخَدَّرات في حجابِهنَّ ، وحتى سأل الولدان في المكاتب ، وحتى سألَ مَن يَرِدُ من الرُّكْبان والأعراب إلى المدينة .

فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها ، لا يغتمضُ بكثيرِ نومٍ إلا صلاةً ودعاءً واستخارةً ، وسؤالاً من ذوي الرأي عنهما ، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه .

وفي صباح اليوم الرابع من موت عمر ، أَرسلَ ابنُ عوف وراء عثمان وعلي ، فدخلا عليه ، فقال لهما : إني قد سألتُ الناسَ عنكما ، فلم أجدْ أحداً يَعْدِل بكما أحداً . ثم أخذ العهدَ على كلٍّ منهما ـ أيضاً ـ لئنْ ولاّه ليعدلنَّ ، ولئن ولَّى عليه ليسمعنَّ وليُطِيعَنَّ .

---

(١) أي : عثمان وعلي .
(٢) لا آلو : لا أقصِّر في اختيار أفضلكما .
(٣) هو علي رضي الله عنه .

ثم خرج عبد الرحمن بهما إلى المسجد النبوي، وصعد منبر رسول الله ﷺ، فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا طويلاً لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال :

(أيها الناس، إني سألتكم سرّاً وجهراً، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : إما علي وإما عثمان.

فقُمْ إليَّ يا عليّ، فقام إليه فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مُبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ وفعلِ أبي بكر وعمر؟.

قال : اللهمَّ لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي.

فأرسل يده.

وقال : قُمْ إليّ يا عثمان، فأخذ بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟

قال : اللهمَّ نعم!.

فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، فقال : اللهمَّ اسمع واشهد، اللهمَّ اسمع واشهد، اللهمَّ اسمع واشهد. اللهمَّ إني قد خلعتُ ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان).

فبايعه عبد الرحمن بن عوف، ثم كانت يمين علي بن أبي طالب ثانيَ يمين شدّت بالبيعة على يمين أمير المؤمنين عثمان. ثم بايعه الناس : المهاجرون والأنصار، وأمراء الأجناد، وعامة الناس، وازدحموا عليه حتى غَشَوْه تحت المنبر. واستقبل بخلافته يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة.

وقد بشَّر رسول الله ﷺ ببيعته، وذلك فيما يرويه الصحابي عبد الله بن حَوَالة رضي الله عنه فيقول : قال رسول الله ﷺ : «تهجمون على رجل مُعْتَجِرٍ[1] ببردة من أهل الجنة يبايع الناس». قال : فهجمنا على عثمان بن عفان فرأيناه معتجراً يبايع الناس.

---

(١) الاعتجار بالعمامة : هو أن يلفَّها على رأسه، ويردّ طرفها على وجهه.

وتمّت بيعة عثمان بإجماع المسلمين، واجتمعوا على أفضلهم وخيرهم، وقد عبّر عن ذلك صحابي جليل، فيما يرويه أبو وائل أنَّ عبد الله بن مسعود سار من المدينة إلى الكوفة ثمانياً حين استُخلف عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد، فإنَّ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب مات فلم نرَ يوماً أكثر نشيجاً من يومئذٍ، وإنا اجتمعنا أصحابَ محمد، فلم نألُ[١] عن خيرِنا ذِي فُوق[٢]، فبايَعْنا أميرَ المؤمنين عثمانَ، فبايعُوه).

خطته في الخلافة وكتبه وتوجيهاته:

وتلقى عثمان الخلافة، وحمل مسؤولياتها، وهو يدرك أعباء الطريق التي سار عليها قبله الخليفتان الراشدان أبو بكر وعمر، ويعلم تماماً أنّ الدولة قد اتسعت رقعتها، وترامت أطرافها، وأنّ الأموال قد فاضت، ونال أهل كل بيت نصيبهم من بيت المال، وأن الفتوحات قد شملت طبقات مختلفة من الناس ومتفاوتة في مستويات إيمانها وإقبالها على هذا الدين.

كل هذا كان واضحاً بارزاً أمام عثمان، وكان أشد ما يخشاه على الناس من تلك المتغيرات انفتاح الدنيا وتنافسهم فيها، لِمَا عَلِمَه من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ من خطرِها والتحذير منها.

لهذا تراه في أول خطبة له عندما بويع، يبيِّن للناس الطريق التي سيسلكها، ويلخِّص منهجه في خلافته فيقول:

(أما بعد، فإني قد حُمِّلْتُ وقد قبِلْتُ. أَلاَ وإني مُتَّبِعٌ ولست بمبتدعٍ.

أَلاَ وإنَّ لكم عليَّ بعد كتاب الله عزَّ وجلّ وسُنَّة نبيه ﷺ، ثلاثاً: اتّباعَ مَنْ كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسَنَنْتُم، وسَنَّ سُنَّةِ أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ، والكفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم).

---

(١) لم نألُ: أي لم نقصِّر.

(٢) ذي فوق: أي وَلَّيْنا أَعْلانا سَهْماً ذا فُوقٍ، أراد: خَيْرَنا وأكْمَلَنا، تامّاً في الإسلام والسابقة والفَضْل.

ووجَّه كتبه إلى ولاة الأمصار يأمرهم بأن يكونوا رعاة لا جباة، وأن يسيروا بين الناس بالعدل، وينشروا لهم الرحمة. وكتب إلى أمراء الأجناد في الثغور أن يلزموا ما أوصاهم به الفاروق عمر، وأمر عمال الخَرَاج أن يتّبعوا الحقّ فيما يأخذونه، والأمانةَ والوفاء، وأن يبتعدوا عن الظلم. ووجه كتبه إلى رعيته في البلاد يأمرهم بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وموافاة موسم الحج في كلّ عام؛ ليرفع مَنْ كانت له ظُلامة أمرَه إلى الخليفة.

كتب رضي الله عنه: (أما بعد، فإنّي آخذ العمالَ لموافاتي في كل موسم، وقد سلَّطتُ الأمةَ منذ وُلِّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع عليَّ شيءٌ ولا عَلَى أحدٍ من عُمَّالي؛ إلاّ أعطيتُه. وليس لي ولعيالي حقّ مثل الرعية إلا متروك لهم! وقد رفعَ إليَّ أهلُ المدينة أقواماً يُشتمون، وآخرون يُضربون؛ فَيَا مَنْ ضُرب وشُتِم سرّاً، ومن ادَّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذْ بحقّه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تَصَدَّقوا فإنَّ اللهَ يجزي المتصدّقين).

وكان له مجلس شورى من أهل بدر وأصحاب الرأي من صحابة رسول الله ﷺ، ويدعو معهم ابن عباس ـ كما كان يفعل عمر ـ يستشيرهم بأمور المسلمين، وتوجيه الجيوش والفتوحات وتصريف أحوال الدولة وشؤون الخلافة.

سيرته في الخلافة:

وسيرتُه في خلافته، وهَدْيُه وحياتُه ومعاشُه كانت على منهاج النبوة وهدي الشيخين:

فكان يَقيل في المسجد ـ وهو خليفة ـ رداؤه تحت رأسه، وليس حوله أحد، فيقوم وأثر الحصى بجنبه. ويُطعم الناسَ طعامَ الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخلّ والزيت. ورآه عبد الله بن شداد ـ التابعي الثقة ـ يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم.

يركب على بغلته، ويُردف غلامَه، ويعود مرضى المسلمين، ويدعو لهم، ويجيب الدعوة ولو كان صائماً. دعاه المغيرة بن شعبة ـ وقد تزوَّج وصنع وليمة ـ فجاء عثمان، وقال: (أَمَا إني صائم، غير أني أحببتُ أن أُجيبَ الدعوة، وأدعو بالبركة).

ويسأل عن أحوال الرعية، والأخبار، والأسعار؛ روى موسى بن طلحة بن عبيد الله قال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان والمؤذِّن يؤذّن وهو يحدِّث الناسَ، يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار).

الولاة والقادة:

وتخيَّر الولاة فكانوا أصحابَ صدق وإيمان، وسيرة طيبة، والتزام بالشرع، وطاعة للخليفة، وحرص على الرعية، ورغبة في نشر الرسالة، وحنكة وحكمة، ودربة وخبرة في أمور الحرب.

وسار على نهج عمر، فكان لا يعزل أحداً إلا عن شكاة، أو استعفاء من غير شكاة.

وكان يوصي الولاة بالتقوى والطاعة، وأن يكونوا رعاة لا جباة، فكتب إلى قادة الجند: (أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادَتُهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغِبْ عنا، بل كان على ملأ منا. ولا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيِّر الله بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه). وأمر عمال الخَراج بالأمانة والوفاء، وتجنب الظلم.

وما عرف عنه أنه أمَّر والياً جاءَ يطلب منه الإمارة، وكان يعزل من تبلغه عنه الشكاية، وكتب إلى أهل الأمصار بموافاته في موسم الحج: (أما بعد، فإني آخذ العمال لموافاتي في كل موسم، وقد سلطتُ الأمة منذ وُلِّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع إليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أَعطيتُه).

فلننظر طريقة عثمان في تعامله مع الولاة: أأبقاهم أم عزلهم؟ ولنقف وقفات قصيرة مع أولئك الولاة وقادة الجند، في عهد هذا الخليفة الراشد المبارك:

معاوية بن أبي سفيان:

ففي الشام كان الوالي الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وقد كان يكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، ومن القادة والولاة في عهد أبي بكر وعمر.

وقد قال سعد بن أبي وقاص: (ما رأيتُ أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب ـ يعني: معاوية ـ). وقال ابن عباس: (ما رأيتُ رجلاً أَخْلَقَ بالمُلك من معاوية).

وكانت سيرته مع رعيته من خيار سيرة الولاة، وكان الناس يحبّونه، وقد ثبت في «الصحيحين»: «خيارُ أئمتكم الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، وتُصَلُّون عليهم ويُصلُّون عليكم».

سعد بن أبي وقاص ثم الوليد بن عقبة:

وفي الكوفة كان المغيرة بن شعبة والياً لعمر عليها، فعزله عثمان، وولَّى سعد بن أبي وقاص، فكان أولَ عاملٍ ولاَّه، لأنَّ عمر قال: (فإنْ أصابتِ الإمرةُ سعداً فذاك، وإلا فليستعنْ به أيُّكم وُلِّي، فإني لم أَعزِلْه عن عجزٍ ولا خيانة). فبقي سعدٌ سنة وبعض أخرى، ثم عزله عثمان وولَّى الوليدَ بنَ عُقْبة بن أبي مُعَيْط. وإنما عزل عثمانُ سعداً لخصومة وقعت بينه وبين ابن مسعود.

والوليد بن عُقْبة ـ الذي ولاّه عثمان بعد عزل سعد ـ صحابي شاب، ماضي العزيمة، رضيُّ الخُلُق، صادق الإيمان، تلقَّفَه الصديق واستعمل مواهبه في سبيل الله، فجعله موضع السرِّ في الرسائل الحربية بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد، واستعمله في مواقع أخرى قائداً للجيوش.

وكذلك في عهد عمر كان الوليد أميراً على بلاد بني تَغْلِب وعربِ الجزيرة، يحمي ظهور المجاهدين في بلاد الشام، لئلا يُؤْتَوا من خَلْفهم.

بهذا الماضي المجيد جاء الوليد ليكون والياً لعثمان، بعد أن كسب ثقة الخليفتين أبي بكر وعمر! فكان الحاكمَ المثالي في العدل والنُّبل والسيرة الطيبة مع الناس، ولبث في الكوفة خمس سنوات، وداره إلى اليوم الذي غادرها ليس لها باب يَحُول دونَ وصول الرعية إليه!!.

كذلك كان الفاتحَ المثالي الذي جاهد في سبيل الله، فسار بالجيوش إلى أَذْرَبِيْجان وإِرْمِيْنية ـ وقد انتقضت ـ فوطئ بلادهم، وردَّهم إلى صوابهم، وأنزلهم على الصلح، وأعاد الاستقرار إلى تلك البلاد.

سعيد بن العاص :

وعزل عثمان الوليدَ عن الكوفة، وولَّى عليها سعيد بن العاص بن أبي أُحَيْحَة الأُموي، وهو صحابي جليل، وكان أميراً شريفاً، جواداً مُمَدَّحاً، حليماً وقوراً، ذا حزم وعقل، يصلح للخلافة.

وكان من عمال عمر على (السَّوَاد)، ونَدَبه عثمان بن عفان عند كتابة المصاحف، لأنه أفصحُ قريش، وأشبَهُ الناس لهجةً برسول الله ﷺ.

ولما وُلِّيَ الكوفة سار بتلك السيرة الماجدة، وأرسلَ إلى وجوه الناس وقال لهم: (أنتم وجوه مَن وراءكم، والوجه ينبئ عن الجسد، فأَبْلِغُونا حاجة ذي الحاجة، وخَلَّة ذي الخَلَّة).

وتابع مسيرة الجهاد الظافرة، فافتتح (طَبَرِسْتان) و(جُرْجَان)، وفي جيشه الحسن والحسين، والعبادلة الأربعة، وحذيفة بن اليمان. ولما نقض أهل (أَذْرَبِيْجان) العهد غزاهم وقضى على تمرّدهم.

عبد الله بن عامر بن كريز :

وفي البصرة عزل عثمان أبا موسى الأشعري عنها، وولَّى الصحابي الفاتح عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، ابنَ خال عثمان، وابن عَمَّة رسول الله ﷺ البيضاء بنت عبد المطلب.

وكان كريماً ممدَّحاً، ميمونَ النَّقيبة، من كبار ملوك العرب وشجعانهم.

ولما قدِم البصرة قال أبو موسى الأشعري: (قد أتاكم فتىً من قريش، كريمُ الأمهات والعمات والخالات، يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا)!!.

وحمل ابن عامر راية الجهاد، وسار برسالة الإسلام كالريح الرخاء، ففتح (خُراسان) كلها، وأطراف فارس وسِجِسْتان، وكِرْمَان، وبلاد غَزْنة ـ على حدود الهند ـ ودوَّخ الفُرس، مما أشعل نار الحقد على عثمان وواليه الفاتح الشجاع!.

عمرو بن العاص ثم ابن أبي سَرْح :

وأمَّر عثمان عمرو بن العاص على مصر، وكان عبد الله بن سعد بن أبي

سَرْح على ميمنة جيشه، وقد وجَّهه عمرو لغزو بلاد المغرب. وفي سنة سبع وعشرين ولَّى عثمان ابن أبي سرح على خَرَاجِ مصر، وأقرّ عَمْراً على الصلاة والجُنْد، فاختلف عمرو وابن أبي سرح، فبَلَغَ ذلك الخليفة، فعزل عمرو بن العاص، وولَّى ابنَ أبي سرح الخراج والجند.

وأمر عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن يغزو إفْرِيقيَّة، فقام هذا البطل الشهم الكريم الجواد بالتوغل في أرض إفريقية حتى وصل (سُبَيْطِلة)، ونشر الإسلام هناك، ومهَّد الطريق لفتح الأندلس.

وأنشأ ابن أبي سرح الأسطول البحري الإسلامي لحماية سواحل مصر والشام وشمال إفريقيَّة، وخاض مع الروم معركة (ذات الصَّوَاري).

ولما كان آخر يوم من أيامه في الدنيا جعل يقول من الليل: آصبحتُم؟ فيقولون: لا. فلما وجد بَرْدَ الصبح قال: (اللهمَّ اجعل خاتمة عملي الصبح). فتوضأ ثم صلَّى، فقرأ في الركعة الأولى بأم القرآن وسورة العاديات، وفي الأخرى بأم القرآن وسورة، وسلَّم عن يمينه، وذهب يسلِّم عن يساره فقُبِض رضي الله عنه!.

مروان بن الحكم:

وكان مروان بن الحَكَم بن أبي العاص الأُموي كاتبَ عثمان، وإليه الخاتم. وهو من سادات قريش وفضلائها، صاحب شهامة وشجاعة، ومكر ودهاء، فقيه في دين الله، شديد في حدود الله.

وفقهاء الأمصار على تعظيمه، والانقياد لروايته، والتلفت إلى فتواه.

اتُّهِم بتزوير كتاب على لسان عثمان موجَّهٍ إلى عامل مصر يأمره بقتل الخارجين على أمير المؤمنين.

ودافع عن عثمان يوم الدار، وقاتل دونه أشد القتال.

قادة آخرون:

وكان من القادة والأبطال الذين برزت أسماؤهم في عهد عثمان

والفتوحات الكبيرة التي تمت في زمانه: الأحنف بن قيس، وسَلْمان بن ربيعة الباهِليُّ، وعبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحُصَين الفِهْرِيَّان، وعبد الله بن قيس الجاسي أمير البحرية، ومُجَاشع بن مسعود السُّلَمي، والأسود بن كلثوم العَدَويّ، والأقْرَع بن حابس، وعبد الله بن خازِم، وغيرهم كثير.

الفتوحات ـ سعتها وسماتها:

ولنتابع مع عثمان تحت رايات قواده الميامين مسيرة الفتوحات التي تمّت في عهده المبارك.

فلقد نَقضتْ بعضُ أطراف الدولة الإسلامية العهودَ والمواثيقَ التي كانت عليها في عهد أمير المؤمنين عمر، وقامت قومة واحدة في (أَذْرَبِيْجان، وإرْمِينية، والإسكندرية، وفلسطين)، واستعرت النار حول الدولة العريضة الرحيبة.

ولم يكن ذلك من شعوب تلك البلدان لأن فرحها بالإسلام كان عظيماً، واستبشارها به كان كبيراً؛ لأنه حرَّرها من ظلم الفرس وطغيان الروم، وإنما قادَ ذلك التمرد فلولُ القوى الحاقدة التي ثَلَّ الإسلام عروشها، فبقيتْ شراذمُها قابعة متربّصة، تتحيّن الفرصة المناسبة.

فقام عثمان (الشيخ) ليلقِّن هؤلاء درساً يرونه بأعينهم، يثبت لهم فيه أنّ أصحاب رسول الله ﷺ ـ وخاصة من ولاَّه الله الخلافة والحكم ـ لا تَنوءُ بعزائمهم الأيام والسنون.

فمضى عثمان يشق الطريق، ويفرض على التاريخ أن يسجل له بطولات الشباب، حتى لكأنه خلع إزار الشيخوخة وارتدى إهاب الفتيان، فأصدر أوامره دونما تلفّت ذات اليمين أو الشمال، وجيّش الجيوش لتضرب الفلول المناوئة، وتمهّد الطريق للفتوحات كي تتابع مسيرتها المظفرة.

ولما رأى أمير المؤمنين أن من ضرورات متابعة الفتوحات إقامة القوة البحرية؛ أصدر أمره بإنشاء الأسطول البحري الإسلامي، وهو يعلم تماماً أنّ عمر رضي الله عنه ظلّ طوال خلافته يرفض هذه المخاطرة المرهوبة!.

فبنى معاوية أسطولاً لحماية سواحل الشام، وأنشأ ابن أبي سَرْح هو الآخر أسطولاً لحماية سواحل مصر وشمال إفريقية.

ورأى القواد الأشبال هذه العزيمة والمَضَاء من خليفتهم الذي بَلَغ من الكبر عِتِيّاً، ومع ذلك فهو في مثل هذه العزيمة؛ فلبّوا مسرعين، وازدادوا مضاءً واقتداراً واستبسالاً، حتى إنك لتعجبُ حقاً أنّ أحداً منهم لم يُهزم في معركة قط، إذا استثنينا معركة واحدة! وذلك فضلٌ من الله تعالى.

وسياسة عثمان في الفتوحات كان فيها شيء من (اللامركزية)، وذلك استجابة للمرحلة التاريخية التي تمرّ بها الدولة، فكان يتخيّر الولاة والقادة الأكفاء الثقات الأمناء المقتدرين، ويحدد لهم واجباتهم، ثم يترك لهم الحرية في إدارة الحرب على ساحات العمليات، يمارسون بعض صلاحياتهم، ويجتهدون بآرائهم، وينظرون في خبرات من سبقهم لمعالجة المواقف الطارئة؛ إذ ليس من المعقول إذا حدث أمر في أقاصي إفريقية أو على أطراف خراسان، أن يبعث الوالي بالأمر إلى الخليفة، على هذه المسافات الهائلة، ثم ينتظر الرد! ولقد أثبتت تلك السنوات الطوال نجاح وواقعية هذا التفكير (العثماني) الموفَّق الرشيد.

فلما انتقضت (أَذْرَبيجَان) و(إرْمِينية) أمَرَ عثمان الوليدَ بن عقبة أن يسير بجيش الكوفة إلى ذَيْنِكَ المِصْرَيْن، فأسرع الوليد لذلك، فوطئ بلادهم، وأغار بأراضي تلك الناحية، وردَّهم إلى صوابهم، وصالَحَهُمْ على ما كانوا صالَحوا عليه حذيفة بن اليمان.

وانتقضت (الرّيّ) هي الأخرى وتمرّدت، فتوجّه إليها جيش من أهل البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري، وأنزلهم على العهد الذي عقدوه مع حذيفة من قبل.

وتوجّه عثمان بن أبي العاص إلى (سابور) فافتتحها صلحاً. وتوغّل الجيش الإسلامي في (إفْرِيقيَّة) بقيادة ابن أبي سرح، فافتتحها. وبعد أن تمَّ فتحها أرسل عثمان عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحُصَين الفهريَّيْن من فورهما إلى الأندلس، فأتياها من قِبَل البحر. وغزا معاوية (قِنَّسْرين). وفُتِحَت (أَرَّجَان) و(دَرابْجِرد).

وتمَّ تكوين الأسطول البحري الإسلامي، وأوعب مع معاوية جيش عظيم من المسلمين، وركبوا في مراكب وقصدوا (جزيرة قبرص)، وكان فيهم جملة من خيار الصحابة. وأمدَّهم عثمان بجيش آخر من مصر بقيادة ابن أبي سرح. فالتقى الجيشان في (قبرص)، وافتتحوها. واستشهدت هناك الصحابية الجليلة أم حرام بنت مِلْحَان.

وخاضت البحرية الإسلامية معركة (ذات الصواري) بقيادة ابن أبي سرح، ضد الروم الذين اجتمعوا على قسطنطين بن هرقل، وكانت وقعة مهولة، حتى غلب الدم على لون الماء، وأنزل الله نصره على المؤمنين. وفي الشام أمَّر معاوية على البحر عبدَ الله بنَ قيس الجاسي، فغزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر، فلم يغرق فيه أحد، ولم يُنكب! وخلال نصف قرن من الزمان أصبح اسم البحر المتوسط: (بحر الشام)، وكان قبل ذلك يحمل اسم (بحر الروم)!.

وانساحت الفتوحات فتوغل معاوية في أرض الروم، حتى غزا مضيق القسطنطينية، وغزا (مَلَطْية) و(إفْرِيقيَّة) سنة (٣٣هـ). وتوجَّه ابن أبي سرح بجيشه فغزا الحبشة. وانطلق سعيد بن العاص ـ والي الكوفة ـ بجيشه إلى (طَبَرِسْتان)، فنزل (قُومِس)، ثم أتى (جُرْجَان) فصالحه أهلها، ثم (طَمِيسة) ـ وهي كلها من طبرستان ـ وهي مدينة على ساحل البحر، وهي في تخوم جرجان، واقتتلوا حتى افتتحها. وزحف جيش بقيادة سلمان بن ربيعة إلى (الباب) على بحر قزوين، وقام عبد الرحمن بن ربيعة ـ نائب تلك الناحية ـ بمساعدته، وسار حتى بلغ (بَلَنْجَر)، فخرج أهلها وعاونهم الترك، فاقتتلوا قتالاً شديداً هائلاً انكسر فيه المسلمون، وهذه هي المعركة الوحيدة التي خسر فيها المسلمون خلال تلك الفتوحات الواسعة.

وعلى جبهة فارس زحف عبد الله بن عامر ـ ومعه الأحنف بن قيس والأقرع بن حابس ـ ففتح (أَصْبَهان)، ثم توجَّه إلى (خُرَاسَان) فافتتحَ (أَبْرَشَهْر) و(طُوس) و(أَبِيْوَرْد) و(نَسا)، ثم صالح أهل (سَرَخْس)، وبعث الأسود بن كلثوم العدوي إلى (بَيْهَق) فافتتحها، وتابع ابن عامر فتوحاته وانتصاراته، فافتتح: (مَرو

الرُّوذ) و(الطالقَان) و(الفارِياب) و(الجُوزَجان) و(طَخَارِستان)، ووصلت جيوشه إلى (كابُل)، و(زابُلِستان) وهي ولاية غزنة ـ على حدود خُراسان والهند ـ. وافتتح عبد الله بن خازم (خراسان).

وتراحبت الفتوحات واتسعت آفاقها في عهد الخليفة المبارك عثمان رضي الله عنه، ففتح الله على يديه كل تلك الأقاليم والأمصار، فبسط يمينه على الشرق، ودانت له بلاد فارس، حتى وصلت جيوشه إلى حدود الهند.

وفي الغرب قرعت كتائبه أبواب الأندلس، وزحفت راياته المنتصرة نحو الجنوب حتى وصلت الحبشة، وأوغلت في أرض الروم حتى مضيق القسطنطينية عاصمة الروم، وعثمان الخليفة الذي يودّع السنة الثمانين من عمره، قد أَخْلَفَ بأعماله الباهرة كلّ الظنون من أعداء الإسلام، بأنه خليفة طاعن في السنّ، لا حول له ولا طَول بإدارة تلك الدولة الشامخة، والحفاظ على هيبتها وسلطانها!.

ومن أعماله في خلافته:

● كان عمر قد فرض لكل إنسان عطاءً من بيت المال، فجاء عثمان وزادهم على ذلك كل رجل مئة.

كذلك كان الفاروق قد فرض لكل نفس من المسلمين في كل ليلة من رمضان درهماً من بيت المال، يفطر عليه، ولأمهات المؤمنين درهمين درهمين، فلما استُخلف عثمان أقرَّ ذلك وزادَه.

واتخذ سماطاً[١] في المسجد للمتعبدين والمعتكفين، وأبناء السبيل، والفقراء، والمساكين.

وروى الحسن البصري قال: (شهدت منادي عثمان ينادي: يا أيها الناس اغْدوا على أُعْطِياتكم، فيغدُون ويأخذونها وافية. يا أيها الناس اغدوا على أرزاقكم، فيغدون فيأخذونها وافية. حتى ـ والله ـ سمعته إذ نادى يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحُلَل، واغدوا على السَّمْن والعَسَل).

---

(١) **السماط**: هو ما يُمَدُّ ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.

● وفي سنة (٢٦هـ) زاد في المسجد الحرام، وأمر بتجديد أنصاب الحرم. وفي سنة (٢٩هـ) زاد في المسجد النبوي زيادة كبيرة ووسَّعه.

● وجمع الناسَ على مصحف واحد، وقراءة واحدة: فقد حدث أنَّ حذيفة بن اليمان كان يغازي أهل الشام في فتح (إرْمينية) و(أَذْرِبيجَان) مع أهل العراق سنة خمس وعشرين، فرأى تنازُعَ أهل الشام وأهل العراق في القرآن: أهل الشام يقرؤون القرآن بقراءة أُبيّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وأهل العراق يقرؤون بقراءة ابن مسعود. فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفِّر بعضهم بعضاً! فأفزع حذيفةَ اختلافُهم.

روى الإمام البخاري ـ واللفظ له ـ والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ حُذيفةَ بنَ اليمان قدِمَ على عثمان، وكان يُغازي أهلَ الشام في فَتحِ إرمينية وأذرَبيجان مع أهل العراق، فأفزعَ حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أميرَ المؤمنين، أدرِك هذه الأمة قبلَ أن يختلفوا في الكتاب، اختلافَ اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة: أنْ أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخُها في المصاحف ثم نردُّها إليك، فأرسلَت بها حفصةُ إلى عثمان، فأمرَ زيدَ بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنَسخوها في المصاحف، وقال عثمانُ للرَّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصةَ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا[1]، وأمرَ بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أن يُحرَق).

ولقد رضي الصحابةُ ومن بعدهم عملَ عثمان ـ في جمعه الناسَ على مصحف واحد وحرقِ ما سواه ـ فقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص: (أدركتُ الناسَ متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك).

---

(١) تسمى «المصاحف الأئمة»، ويقال لها: «المصاحف العثمانية»، ولم يكتبها عثمان بيده، بل نُسبت إلى أمره وزمانه رضي الله عنه، وإنما هي بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وقال علي بن أبي طالب ـ حين حرق عثمان المصاحف ـ : (لو لم يصنَعْه هو لصنعْتُه).

* * *

الفَصل الخامِس

من الافتراءات والمؤامرات
إلى الحِصار والاستِشهاد

ما نقم على عثمان:

ولنتابع مع عثمان رضي الله عنه بعض المواقف التي جرت في خلافته، ونستعرض الأمور التي نُقمت عليه، لنرى وجه الحق والكلمة الفصل فيها. ولسنا فيما نقوله هنا ندفع التُّهم عن أمير المؤمنين، فهو رضي الله عنه أعلى وأعزُّ عند ربّه، وأسمى وأطهرُ عند أصحابه، وأرفعُ وأجلُّ في نفوسنا، من أن نضعه موضع المُتَّهَم! وإنما نناقش أهل الزور في ذلك، ونجلّي ما عَلِق بسيرته المشرقة من أدران التاريخ، وسخافات الروايات التاريخية.

ونسطِّر في جبين هذا الفصل الحديثَ الصحيح الذي رواه سَفينة مولى رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافةُ بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلْكاً».

وهذا نصٌّ صريحٌ واضح في أنّ عهد أمير المؤمنين عثمان كان على منهاج النبوة، وما ظهر فيه من هَنَات إنما هو من أهل الظلم والتعدي والفساد، خططتْ له الأيدي الخبيثة الماكرة الحاقدة، ونفَّذه الرَّعَاع والأغرار.

وما عَتَبَه عليه الشانئون، وما نَقَمَه عليه الخارجون، كلُّه زورٌ وبُهتان، ولقد أوضح ذلك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر عندما قال: (لقد عَتَبوا على عثمان أشياءَ لو فعلَها عمرُ ما عَتَبوا عليه)!.

وابن عمر كان شاهدَ عيانٍ لخلافة عثمان من أولها إلى آخرها، ومن أشدِّ الصحابة التزاماً بسنّة رسول الله ﷺ.

● فأولُ افتراءٍ على عثمان أنّه ضَرب عمار بن ياسر حتى فَتَق أمعاءه! وهو إفكٌ مفترى، ولو ضربه حتى فتق أمعاءه لما عاش أبداً.

● وقالوا: (إنَّ عثمان قد ضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه، ومَنَعه عطاءَه). وهذا زورٌ كذلك، فقد كان ابن مسعود وزيرَ بيت مال الكوفة في عهد عمر، ثم في عهد عثمان. وعندما جمع عثمان المصحف وأَمر بإحراق ما سواه، امتنع ابن مسعود بادئ الأمر من حرقِ مصحفه، ثم رجع إلى الوفاق مع باقي الصحابة، وتابع عثمانَ، وبقي على عمله بالكوفة حتى سنة (٣٢هـ) وهي السنة التي توفي فيها.

● وافتروا على عثمان بشأن صحابي جليل آخر، فقالوا: (وأَجْلَى أبا ذر إلى الرَّبَذَة)[(١)].

وأبو ذر رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، ومن نُجباء الصحابة، كان رأساً في الزهد والصدق، والعلم والعمل، قوّالاً بالحق. وبَلَغ من زهده أنَّه مرَّ على أبي الدرداء وقد بنى مسكناً، فقال له أبو ذر: (ما هذا؟! تَعْمُر داراً أَذِنَ اللهُ بخرابها، لأنْ تكون رأيتُك تتمرَّغُ في عَذِرة أحبُّ إليَّ من أن أكونَ رأيتُك فيما رأيتُك فيه)!.

وكان ينفق ماله حتى لا يبقى منه شيء، ويحمل الناس على هذا، ويوبِّخُهم إذا رأى بين أيديهم الأموال. فقد قدِمَ ذات مرة على حلقة بالمدينة فيها ملأٌ من قريش فقال: (بَشِّر الكانزين بِرَضفٍ يُحمى عليه في نار جهنم).

وكان هذا مذهباً لأبي ذرٌ طوال حياته، وفي عهد عثمان كان يقرِّع ولاته، وذهب إلى معاوية بالشام، فكان يتلو على الناس قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٣٤]، ويريد منهم إنفاقَ كل ما في أيديهم، وإلا نالهم الوعيد الذي في الآية الكريمة.

وقد خالف أبا ذر في هذا جمهورُ الصحابة، وقالوا: إنَّ ما أُدِّيَتْ زكاتُه

(١) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها

فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين. وكل ما لا تُؤدَّى زكاته فهو كنز، ولو كان على وجه الأرض. وهذا هو الحق.

ورأيُ أبي ذر لا يقدر عليه إلا آحاد الناس، ثم هو لا يَصلح أن يكون قاعدة للأمة والدولة.

وتذكَّر أبو ذر قولَ النبي ﷺ له: «إذا بَلَغَ البناء سَلْعاً فاخرج منها[١]»؛ فاختار بنفسه أن يخرج من المدينة، وذلك فيما تحدِّث به أم ذر فتقول: (والله ما سَيَّر عثمان أبا ذر ـ تعني إلى الرَّبَذة ـ ولكن رسول الله ﷺ قال: «إذا بَلَغ البناء سَلْعاً فاخرج منها»).

فذهب أبو ذر ليستأذنَ أميرَ المؤمنين في الخروج، وقال له: (ائذنْ لي إلى الرَّبَذة. قال: نعم، ونأمرُ لك بنَعَم من نَعَم الصدقة، تغدو عليك وتروح. قال: لا حاجة لي في ذلك، يكفي أبا ذر صُرَيْمَتُه[٢]).

● وقال المفترون: (وردَّ الحَكَم بعد أن نَفَاه رسول الله ﷺ).

والحَكَم بن أبي العاص هو عمُّ عثمان بن عفان، ووالد مروان، روي أنه كان يُفشي سِرَّ النبي ﷺ، فنَفَاه إلى الطائف. وطلب عثمان من النبي ﷺ أن يردَّه، فوعده بذلك.

وقصة نَفْي الحَكَم لم يرد بها حديث صحيح، وليس لها إسناد يُعْرف به أمرها، وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه، وقالوا: هو ذَهَب باختياره.

وحتى لو أنّ النبيَّ ﷺ قد عزَّره بالنفي، لم يَلزم أن يبقى منفياً طول الزمان، فإن هذا لا يُعرف في شيء من الذنوب، وإذا تاب العبد سقطت عنه تلك العقوبة، وصارت الأرض كلها مباحة.

بل إنَّ عثمان قال على ملأ من الصحابة وهو محصور: (وقالوا: إني رددتُ

---

(١) سلع: جبل في المدينة الآن شمال غربي المسجد النبوي الشريف.
(٢) الصُّريمة: تصغير صِرْمة، وهي القطعة من الإبل.

الحَكَم، وقد سيَّره رسول الله ﷺ، والحَكَم مكيٌّ، سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم ردَّه رسول الله ﷺ، فرسولُ الله ﷺ سيَّره، ورسولُ الله ردَّه؛ أكذلك؟! قالوا: اللهمَّ نعم).

● ثم تمادَوا في شَغَبهم فراحوا يُرْجِفون بأنَّ الخليفة يبتدع في الدين ما لم يكن في عهد النبي ﷺ وصاحبيه، فقالوا: (وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف).

وتلك لَعَمْرُ الحقِّ حسنتُه العظمى، وخصلته الكبرى، جمع الناس على مصحف واحد، بمشورة الصحابة رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب: (لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منّا).

● ولم يكتفوا بذلك بل لَجُّوا في جهلهم فقالوا: (إنَّ عثمان قد حَمَى الحِمى).

وأي حَرَج في ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا حِمَى إلا لله ورسوله»؟! وقد حمى النبيُّ ﷺ (النَّقيع) ـ وهو أرض واسعة تُنبت المراعي الخصبة ـ وفي عهد عمر اتّسع الحِمل فشمل (الشَّرَف) و(الرَّبَذة). وكما اتسع عمر في الحمى لزيادة خيل الجهاد وسوائم بيت المال، فكذلك اتسع عثمان فيه، لاتساع الفتوحات، وازدياد خيل الجهاد وإبل الصدقة.

وعلى هذا فالاعتراض على عثمان هو اعتراض على رسول الله ﷺ، لأنه أول من حَمى الحِمَى، فماذا يقول المفترون؟!.

● ثم اتهموا عثمان بأنه ولَّى أقاربه وليسوا أهلاً للولاية؛ فقالوا: (وولى معاوية، وعبد الله بن عامر بن كُرَيز، ومروان، وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية).

أمَّا أنه ولَّى أقاربه، فليس في تولية الأقارب إثم ولا لوم، ما داموا أكفاء مخلصين، فقد ولّى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على الأخماس باليمن، والقضاء بها، وولى كثيراً من رجال بني أمية، وهم يمتون إليه بصلة القرابة.

وعلي في خلافته، ولّى عبد الله بن عباس، وقُثَم بن العباس، وتَمّام بن العباس.

ولا تُعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني أمية؛ لأنهم كانوا كثيرين، وفيهم شرف وسؤدد، فقد استعمل النبي ﷺ على أشرف البقاع عَتَّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أمية، وعلى نجران أبا سفيان بن حرب.

ولم يشبع هؤلاء المفترون من التقوُّل على عثمان وعهده، ولم يعدموا كذباً وزوراً وبهتاناً، فيتصيدون الأباطيل، وينسجون حولها خيوط المؤامرة، لتشكل فتنة جامحة ترسل فَحِيحَها في كل صَوْب!.

مقدمات مقتله والإشارة النبوية إلى ذلك:

● إن الفتوحات العظيمة التي دكَّت دولتي الفرس والروم، ومزَّقت شملَ اليهود والنصارى وكيدهم؛ لم تكن لتمرَّ دون أن تترك انعكاساتها على بنيان الأمة الإسلامة الظافرة. فلقد بقيتْ من تلك الممالك المنهارة بقايا وأوكار، طَوَتْ بين جوانحها ناراً تلظَّى وتتأجَّج على الإسلام وخلفائه وقادته، تنتظر اللحظة المواتية لتُضرِم نارها. وساعدها على ذلك الخليطُ الضخم من الأجناس التي دخلت أبواب الإسلام الواسعة، وفيهم من أسلم راغباً، ومن دخل تقيّة يَطْوي على حقدٍ دفينٍ؛ ليكون مِسْعَر الفِتن وقادحَ زَنْدها!.

ولقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ، وكأنه ينظر ما وراء الحُجُب، بما علَّمه ربّه سبحانه وأوحى إليه، فذات يوم أشرف على أُطُم من آطام المدينة، فقال: «هل ترون ما أَرى»؟! قالوا: لا، قال: «فإني لأرى الفِتَنَ تقعُ خِلال بيوتكم كَوَقْعِ القَطْر»!.

ونبَّه على بعض تلك الفتن، حتى لا يقع الناس فيها، فقال ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ نَجا منهن فقد نجا: موتي، وخروج الدجال، وقتلُ خليفةٍ مصطبِرٍ قوّام بالحق يعطيه».

● ولقد بشَّر النبي ﷺ عثمانَ بالشهادة في أكثر من مناسبة، وجاء ذلك في غير ما حديث، ويُفهم من جملتها أنه الخليفة الذي يُقتل وهو مصطبرٌ قوّام بالحق يعطيه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَفَ بهم، فقال : «اثبتْ أُحد، فإنما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان») .

وفي حديث أبي موسى عندما كان مع رسول الله ﷺ في حائطٍ من حِيطان المدينة، وقد جاء أبو بكر فاستفتح، ثم عمر، وفي كل مرة يفتح لهما ويبشِّرهما بالجنة على لسان النبي ﷺ، قال أبو موسى : (ثم استَفْتَحَ رجلٌ، فقال لي ـ ﷺ ـ : «افتح له وبَشِّرْه بالجنة على بَلْوَى تُصِيبه» . فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحَمِدَ الله، ثم قال : اللهُ المُستعانُ) .

وأبانَ النبيُّ ﷺ أنَّ تلك البلوى هي إرادةُ المنحرفين خَلْعَه من الخلافة، ثم قَتْلَه! وحذَّره أن يُجيبهم إلى ذلك، فقال ﷺ : «يا عثمان، إنَّه لعلَّ اللهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصاً[1]، فإنْ أرادوكَ على خَلْعِه فلا تَخْلَعْه لهم» .

فكان عثمان رضي الله عنه يعلم علمَ اليقين أنه مقتول، وأنه ستتمالأ عليه جماعة كبيرة، ولقد حدَّث بذلك قبل استشهاده بسنوات، فقال لعبد الله بن مسعود : (إني قد سمعتُ رسول الله ﷺ، وحفظتُ أنّ رسول الله ﷺ قال : «سَيُقْتَلُ أميرٌ، ويتبرّى متبرّئٌ»، وإني أنا المقتولُ، وليس عمرَ، إنما قَتَلَ عمرَ واحدٌ، وإنه يُجْتَمع عليَّ)!! .

● وقد أفصحت الأحاديث النبوية أنَّ عثمان على الهدى والحق، والرشاد والصواب، وأنه سيُقْتَلُ ظلماً. لذا حثَّ رسول الله ﷺ الصحابةَ ومَن بعدهم ممَّن سيدرك عثمان أن يلزموه ويتَّبعوه، ولا يلتفتوا إلى ما يُثار عليه وعلى عهده المبارك من افتراءات :

روى أحمد ـ وهذا لفظه ـ والترمذي عن ابن عمر قال : (ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ فتنةً، فقال : «يُقتلُ فيها هذا المُقَنَّع يومئذٍ مظلوماً» . فنظرتُ، فإذا هو عثمان بن عفان) .

---

(١) قمَّصْتُه هذا الأمر : أي فَوَّضتُه إليه، وجعلتُه في عهدته، وألبستُه إياه مثلَ القميص، وأراد به الخلافة .

وأخرج الترمذي عن أبي الأَشْعَث الصَّنْعَاني (أنَّ خطباءَ قامتْ بالشام وفيهم رجالٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام آخِرَهم رجلٌ يُقال له: مُرَّة بن كَعْب[١]، فقال: لولا حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ ما قمتُ، وذَكرَ الفتنَ فقرَّبَها، فمرَّ رجلٌ مُقنَّعٌ في ثوب، فقال: «هذا يومئذٍ على الهُدى». فقمتُ إليه فإذا هو عثمان ابن عفان. قال: فأقبلتُ عليه بوجهه؛ فقلتُ: هذا؟ قال: «نَعم»).

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافاً ـ أو قال: اختلافاً وفتنة ـ». فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه». وهو يشير إلى عثمان بذلك).

وعن عبد الله بن حَوَالة: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كيفَ تفعلُ في فتنٍ تخرج من أطراف الأرض كأنها صَيَاصي بَقَر[٢]»؟ قلتُ: لا أدري ما خارَ اللهُ لي ورسولُه. قال: «اتَّبِعوا هذا». ورجلٌ مقفّي حينئذٍ، فانطلقتُ فسعيتُ، فأخذتُ بِمَنْكِبه، فأقبلتُ بوجهِه إلى رسول الله ﷺ، قلتُ: هذا؟ قالَ: «نعم». فإذا هو عثمان بن عفان).

الشغب على عثمان ودور ابن سبأ في المؤامرات، واستشهاد الخليفة:

قامت حركات تمرُّد وارتداد في أطراف الدولة الإسلامية، فنقضت عهودها والمواثيق التي كانت عليها، والذي تولّى كِبْرَها تلك الأوكارُ المختفية الشانئة التي أفقدها الإسلام نفوذها الظالم ومكانتها المتعالية. وردف ذلك تحركٌ من الداخل أضرم ناره يهودي خبيث رحل من اليمن وسمى نفسه عبد الله بن سبأ، ويمّم شطر المدينة في عهد عثمان، وأظهر إسلامه مدَّعِياً حبه لهذا الدين.

ونهدت الجيوش الإسلامية لتلك الثورات فأَدَّبَتْها، فألقى المتآمرون

---

(١) ويقال: كَعْب بن مرَّة، صحابي سكن البصرة ثم الأُرْدُنّ.

(٢) صَياصِي بقَر: أي قُرونُها، واحدتها صِيصِيَة ـ بالتخفيف ـ، شبَّه الفتنةَ بها لشدَّتها وصُعُوبةِ الأمر فيها. وكلُّ شيءٍ امتُنِعَ به وتُحُصِّنَ به فهو صِيصِيَةٌ.

سلاحهم صاغرين، ولجؤوا للائتمار والدَّسِّ في الخفاء. وقام ابن سبأ بتسقط الأخبار، وتابع بمكر ودهاء ما يجري في المدينة، وجعل يتسمع الأخبار التي تفد إليها من أطراف الدولة، فاعتنى بأحداث التمرّد والانتقاض، وعرف نفسيات مؤججيها، واغتنم وجود بعض النفسيات المريضة ممن قد ظهر أمثالهم في عهد الفاروق، كذاك الذي اتهم سعد بن أبي وقاص بأنه (لا يُحْسِن يصلي)! واستفاد من الموتورين الحاقدين على الولاة ممن طالتهم يد العدالة وأُقيم عليهم الحَدّ. واهتمّ بأولئك الذين حررهم الإسلام من ظلم فارس والروم، فلم تَسَعْهُم أجسامُهم على العيش في ظل عدالة الإسلام! ونصب شباكَه للأغرار والرُّعَاع الذين دخلوا الإسلام مع الأفواج المتزاحمة، ولم يفقهوا روح الدين. ولم ينسَ أولئك الغلاةَ الذين تحجَّرتْ عقولهم، ويبست أفهامهم للنصوص والأحداث. فنظر في المدينة، فوجد أنه لا أَرَب له فيها ولا بأهلها، فانطلق للشام فألفى أهلها أوفياء للولاة والخليفة، فَيَمَّم شطر البصرة، ونزل على (حُكيم بن جَبَلة)، واجتمع إليه نفر من أهلها، وألقى عليهم آراءه ومبادئه، وما خرج منها حتى ترك فيها حواريين له ومؤيدين.

ومن سمومه قوله: (لَعَجَبٌ ممَّن يزعمُ أنَّ عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥]. ومحمد أَحَقّ بالرجوع من عيسى)!.

وقال: (إنه كان ألف نبي، ولكل نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد). و(محمد خاتم الأنبياء، وعليٌّ خاتم الأوصياء)!.

ثم قال: (مَن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة)!.

فأوحى للناس أنَّ علياً مظلوم، ليلتفتوا إليه، ويرددوا النظر بينه وبين عثمان! ومن ثَمَّ صرَّح لهم بعدم شرعية الخليفة عثمان، فقال: (إنَّ عثمان أخذها بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ، فانْهَضُوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤوا بالطَّعْن على أمرائكم، وأَظْهِروا الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، تستميلوا الناسَ، وادْعُوهم إلى هذا الأمر)!!.

● وابتدأ الشغب على الولاة، فثار أهل الكوفة على الوليد بن عقبة، ومن بعده شغبوا على سعيد بن العاص. ونقم أهل البصرة على واليهم أبي موسى الأشعري، وطلبوا من الخليفة عزله، وطعنوا في الصالحين. وفي مصر ـ حيث أقام ابن سبأ، وكان يرسل الكتب إلى أتباعه في البصرة والكوفة ـ شغب أهلها على عمرو بن العاص، وأوقعوا بينه وبين ابن أبي سَرْح، فاضطرّ عثمان لعزل عمرو.

● واستمرَّت المكاتبات بين أهل مصر وأشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة، وجميع مَنْ أجابهم؛ أن يثوروا خلافَ أمرائهم، واتّعدوا يوماً محدداً ـ حيث ذهب أمراؤهم إلى أمير المؤمنين ـ للوثوب على الولاة وخلعهم، وذلك سنة أربع وثلاثين، فلم يستقِم ذلك لأحدٍ منهم، ولم ينهض إلا أهل الكوفة، فنزلوا (الجَرَعة)[1]، وتلقَّوا والي الكوفة سعيد بن العاص وهو قادم من عند عثمان، فمنعوه من دخولها، فرجع إلى الخليفة، وأخبره بأنهم يريدون أبا موسى والياً، فكتب عثمان بتوليته. وبذلك فشل موعد الأحزاب سنة (٣٤هـ)، واقتصرت الفتنة على ما حدث من أهل الكوفة في (الجَرَعة)، فسمِّي ذلك اليوم (يومَ الجَرَعة).

واستمرَّ المنحرفون في مخططهم، وزَوَّروا الكتبَ في عيوب الولاة وسوء الحال، وأرسلوا بها إلى الأمصار. ويكتب أهل كل مِصْرٍ منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأَوْسَعُوا الأرضَ إذاعةً وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرُّون غير ما يبدون! فيقول أهل كل مصر: إنَّا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس!.

فأرسل عثمان محمدَ بنَ مَسْلَمة إلى الكوفة، وأسامة إلى البصرة، وعماراً إلى مصر، وابن عمر إلى الشام، وكانوا على رأس جماعة، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة. ثم عادوا جميعاً وقالوا: (أيها الناس، ما أَنْكَرْنا شيئاً، ولا أنكرَهُ

---

(١) الجرعة: مكان مشرف قرب القادسية.

أعلامُ المسلمين، ولا عوامُّهم، وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، إلا أنَّ أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم).

● ثم تكاتبوا فيما بينهم أن يتوافوا بالمدينة، ليسألوا عثمان عن أشياء يمكنهم إدانته بها. فتوافوا بالمدينة، فقام عثمان فيهم، وناقشهم بالأمور التي ادَّعوا ـ زوراً وبهتاناً ـ أنَّه خالف فيها هديَ النبي ﷺ وصاحبيه، فذكر لهم: (إتمام الصلاة بمنًى، والحِمَى، وجَمْع المصحف، وردّ الحَكَم بن أبي العاص، وعزل الولاة وتولية الأحداث، وإعطاء خُمس الخمس لابن أبي سَرْح، وتفضيل أقاربه بالعطايا. . .)، وفي كل مرة يقول مناشداً الصحابة: أَوَ كذلك هو؟

فيقولون: اللهمَّ نعم!.

● ولما أخفقت محاولتهم (يوم الجَرعَة)، والمحاولة الثانية هذه في المدينة، صَمَّمُوا على قتله، فقالوا في قدمتهم الأخيرة على أمير المؤمنين: (نريدُ أن نذكُرَ له أشياءَ قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنَّا قرَّرْناه بها فلم يخرجْ منها، ولم يَتُبْ! ثم نخرج كأنَّا حُجَّاجٌ، حتى نقدم فنحيط به، فنخلعه، فإن أبى قتلناه)!!.

فخرجوا في شوال من سنة (٣٥هـ)، ونظموا أنفسهم في اثنتي عشرة فرقة: أربع فرق من مصر، وأربع من الكوفة، وأربع من البصرة. وفي كل فرقة مئة وخمسون رجلاً، ومجموع الفرق من الجهات الثلاثة ألف وثمان مئة رجل.

وتوافوا حول المدينة، فتقدّم ناس من أهل البصرة فنزلوا (ذاخُشُب)(١)، وناس من أهل الكوفة فنزلوا (الأعْوَصَ)(٢) وجاءهم ناس من أهل مصر، ونزل الجمهور منهم بذِي المَرْوَة(٣).

فأتى المصريون عليَّ بن أبي طالب، والبصريون طلحةَ بن عبيد الله،

---

(١) ذو خشب: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة.
(٢) الأعوص: موضع بشرقي المدينة على بضعة عشر ميلاً منها.
(٣) ذو مروة: قرى واسعة من أعمال المدينة.

والكوفيون الزبيرَ بن العوام، وعرَّضوا لهم بالخلافة وخلعِ عثمان، فكان جواب الصحابة الثلاثة: (لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ)!!.

فرجعوا إلى معسكرهم.

وأظهر هؤلاء البغاة المنحرفون لأهل المدينة أنهم راجعون إلى بلدانهم، فَقَوَّضُوا خيامهم، وخرجوا عن المدينة، وخرج العراقيون ـ من بصريين وكوفيين ـ في طريقهم نحو الشرق إلى الشمال، متوجهين إلى بلادهم، والمصريون في طريقهم نحو الغرب إلى الشمال، وجهة كل من الفريقين مختلفة، والمسافة بينهما تأخذ بالازدياد كلما أمعنوا في السير.

وقطع كل فريق من الفريقين مراحل، ووصل المصريون إلى (البُوَيْب)[1]، وإذا راكب يتعرَّض لهم ثم يفارقهم مراراً!! قالوا: ما لَكَ؟! قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر. ففتَّشوه فإذا هم بكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامل مصر أن يصلبهم أو يقتلهم، أو يقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

فرجعت قوافل الثوار المصريين إلى المدينة، ومعهم محمد بن أبي بكر[2]، ورجعتْ كذلك قوافل العراقيين، ووصل الجميع إلى المدينة في آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد!! ولم يَرُعْ أهلَ المدينة إلا التكبير في نواحي المدينة، وقد زحف إليها المنحرفون وأحاطوا بها، وجمهورهم عند دار عثمان بن عفان، وقالوا للناس: مَنْ كَفَّ يده فهو آمن.

وصلَّى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناس فكلَّموهم، وفيهم علي فقال: ما رَدَّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بِقَتْلِنا! وكذلك قال البصريون

---

(١) البويب: مدخل أهل الحجاز إلى مصر.
(٢) كان عثمان قد ولاَّه على مصر بطلب من المصريين، بدل ابن أبي سَرْح.

لطلحة، والكوفيون للزبير. وقال البصريون والكوفيون: فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً. فقال لهم علي: **كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سِرْتُم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا واللهِ أمْرٌ أُبرم بالمدينة!!** قَالوا: فَضَعُوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلْنَا!.

● وشدّدوا الحصار على أمير المؤمنين، وحَصَبُوه حتى صُرع عن المنبر مغشياً عليه، فاحتمل فأُدخل داره! وشَمَّر أناس من الناس فاستقتلوا، منهم: سعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، والحسن بن علي، فبعث إليهم عثمان بعزمه لَمَا انصَرفوا، فانصرَفوا.

واستنصرَ عثمان بالولاة، وكتب إلى أهل الأمصار بنجدته، فبعث معاويةُ حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْرِيَّ في جيش، وبعث عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح معاويةَ بن حُدَيج السَّكوني في جيش آخر، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عَمْرو في جيش ثالث.

ثم زاد أولئك الخوارج المنحرفون في حَصْرِ أمير المؤمنين والتضييق عليه حتى منعوه ما يأتيه من طعام، ومنعوه الماءَ والخروجَ إلى المسجد، وتهدَّدُوه بالقتل، فقام وأشرف عليهم من الدار، فوعظهم وتحدَّث بمناقبه وفضائله؛ لعلَّهم يرتدعون عن فعلهم، ويرعوون عن غيِّهم، فناشدهم بالله، والصحابةُ يسمعون ـ وقال: لا أناشد إلا الصحابة ـ فقال:

(أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أنَّ رسولَ الله ﷺ قَدِمَ المدينةَ وليس بها ماءٌ يُستعذَب غيرُ بئر رُومة، فقال: «من يشتري بئرَ رُومة يَجْعلُ دلوه مع دلاءِ المسلمين بخيرٍ لهُ منها في الجنة؟»، فاشتريتها من صلب مالي، وأنتم اليوم تمنعونني أن أشرب منها حتى أشرب من ماء البحر؟! فقالوا: اللهمَّ نعم. فقال: أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أن المسجد ضَاقَ بأهله، فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري بقعةَ آلِ فلانٍ فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة؟» فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعونني أن أصلّي فيها ركعتين؟! فقالوا: اللهمَّ نعم. قال: أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أني جهَّزتُ جيشَ العُسرة من

مالي؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: أنشدكم اللهَ والإسلامَ، هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ كان على ثَبير[١] مكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرَّكَ الجبلُ حتى تساقطت حجارتهُ بالحضيضِ، فركَضَه برجله قال: «اسكُنْ ثَبير! فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدانِ»؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: الله أكبر! شهدوا وربِّ الكعبة أني شهيدٌ. ثلاثاً).

واستمرَّ الحصار بدار عثمان رضي الله عنه حتى مضت أيام التشريق، ورجع القليل من الناس من حجّهم، فأخبروا بسلامة الناس، وأُخبر أولئك الفجرة بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفُّوا عن أمير المؤمنين، وبَلَغَهم أنّ ثلاثة جيوش قادمة لنصرته. فعند ذلك صمّموا على أمرهم، وانتهزوا الفرصةَ لقلة الناس في المدينة، وغيبة أكثرهم في الحج؛ فأحاطوا بالدار، وجَدُّوا في الحصار، وألحُّوا على عثمان بخلع نفسه، فأبى.

وترادفت الأصحاب على نصرته، والقتال دونه، والحفاظ على نفسه الطاهرة ودمه الزكي، فكان يقول: (أنشدُ الله رجلاً رأى لله حقاً، وأقرَّ أن لي عليه حقاً؛ أن يُهَرِيق في سببي ملء مِحْجَمَة من دم، أو يُهَرِيق دمَه فيَّ).

وكان عثمان يقضي أيامه صائماً، وبات من ليلته فرأى رسول الله ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر، فقالوا له: (اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة).

عن مسلم بن أبي سعيد ـ مولى عثمان بن عفان ـ: (أنَّ عثمانَ بن عفان أعتقَ عشرين عبداً مملوكاً، ودعا بسراويلَ فشدَّها عليه ـ ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام ـ وقال: إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ البارحة في المنام وأبا بكر وعمر، فقالوا لي: «اصبرْ فإنك تفطِر عندنا القابلة». ثم دعا بمصحفٍ فنَشَرَهُ بين يديه، فقُتِلَ وهو بين يديه).

وقال عثمان لمن عنده: (إني أشهدكم أني قد أصبحتُ صائماً، وإني أعزم على كل مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخرج من الدار سالماً مسلوماً منه)

(١) ثَبير: جبل بين مكة ومنى، يُرى على يمين الذاهب منها إلى مكة.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن خرجنا لم نأمن منهم علينا! فأَذِنَ لهم أن يكونوا معه في بيت من الدار. ثم أمر بباب الدار فَفُتِح، ودعا بالمصحف فأكبَّ عليه، وعنده امرأتان: بنت الفُرَافِصَة وابنة شيبة. ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً.

● واتخذ المجرمون قرارهم النهائي، فتسوَّروا دار عَمْرو بن حزم ـ المجاورة لدار عثمان ـ ودخلوا بغير إذن كما يقول راعي الإبل النميري:

عَشِيَّةَ يدخلونَ بغيرِ إذْنٍ ... على متوكِّلٍ أَوْفَى وَطَابَا
خليلِ محمدٍ ووزيرِ صدقٍ ... ورابعِ خيرِ مَنْ وَطِئَ التُّرابَا

واقتحموا عليه وقد خلا من حراسه والمدافعين عنه، وكان فيمن دخل عليه: قُتيرة السَّكوني، وسُودان بن حُمران، والغافِقيّ بن حَرْب، وعَمْرو بن الحَمِق، وكلثوم بن تُجيب، ورجل اسمه الموت الأسود[1]، وكِنانة بن بِشْر التُّجيبيّ. وهجموا على عثمان، فمنهم من يَجَؤُه بنعل سيفه، وآخر يلكزه، والمصحف الشريف بين يديه يقرأ في سورة البقرة، وهم يهابون قتله، فانقضَّ «الموت الأسود» فخنقه خنقاً شديداً، وضربه الغافقي بحديدة كانت معه، ورفع أحدهم السيف فاتَّقاه عثمان بيده فقطعها، فقال عثمان: (أمَا واللهِ إنها لأوَّلُ يدٍ خطَّتِ المُفَصَّل)[2]! وجاء رجل بمشاقص[3] فوجأه في تَرْقُوَته، فقال عثمان: (بسم الله توكلت على الله)، وإذا الدم يسيلُ على لحيته يَقْطُر، والمصحف بين يديه، فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: (سبحان الله العظيم)، وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل على المصحف، حتى وقف الدم عند قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة: ١٣٧]!! وضربوه جميعاً ضربة واحدة: فرفع كِنانة بن بِشر مشاقص كانت بيده فوجأ بها أصلَ أُذن عثمان،

---

(١) الأظهر أنه عبد الله بن سبأ، فقد ثبت خروجه مع المنحرفين من مصر، وكان حريصاً على أن لا يظهر فينكشف، حتى يتابع دوره الخبيث.
(٢) المفَصَّل: من سورة (ق) إلى آخر المصحف.
(٣) المشقص: نصل طويل عريض.

فمضت حتى دخلت في حلْقه، ثم ضرب جبينه ومقدَّم رأسه بعمود حديد فَخَرَّ لجنبه، فجاء سُودان بن حُمران ليضربه، فانكبتْ عليه نائلة بنت الفُرافِصة ـ زوجه ـ واتَّقتِ السيفَ بيدها، فتعمدها سودان ونفح أصابعها فقطع أصابع يدها، وولَّت، فغمز أوراكها وقال: إنها لكبيرة العجيزة! وضرب عثمانَ بعدما خرَّ لجنبه فقتله، ووثب عَمْرو بن الحَمِق على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات، وقال: فأما ثلاث منهم فإني طعنتهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتهن إياه لما في صدري عليه!!.

ونادى منادي القوم: أيحلُّ دم عثمان ولا يحل ماله؟! فانتهبوا كل شيء، وأخذوا ما وجدوا في الدار ـ وكان شيئاً عظيماً جداً[1] ـ حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ كلثوم بن تُجيب ملاءة نائلة، وبَصُر به غلام لعثمان فقتله، وقُتل. ثم تنادَوا في الدار: أدركوا بيت المال لا تُسبقوا إليه. فسمع أصحابُ بيت المال أصواتهم، فقالوا: النجاءَ، فإنّ القوم إنما يريدون الدنيا، فهربوا وأتى الخارجون بيت المال فانتهبوه، وكان فيه شيء كثير جداً.

* * *

(١) كان لعثمان عند خازنه ثلاثون مليون درهم وخمس مئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، انتُهِبت كلها!!.

الفَصل السَادس

استشهاده ومراثيه وأسرته

ماذا فعل عثمان حتى يُقتَل؟!:

وقُتل عثمان رضي الله عنه، ومضى إلى ربه شهيداً سعيداً مضرَّجاً بدمه.

فماذا فعل عثمان حتى شَدُّوا إليه الرحال وسفكوا دمه الحرام في شهر حرام وبلدٍ حرام؟!.

عثمان الذي كان واحداً من أبطال المسيرة الأولى الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ.

وكان أول من هاجر بأهله بعد نبي الله لوط عليه السلام.

وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومُبشَّراً بالشهادة.

وهو الذي اشترى بئر رُومة، وجهَّز جيش العُسْرة، ووسع المسجد النبوي.

وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وبايعه المسلمون بعد عمر باتفاق ملئِهم.

وجيَّشَ الجيوش وفتح الأقاليم، وأبلغ دعوة الله حدود الهند والأندلس وعاصمة بيزنطة.

وجمع الناس على المصحف الإمام.

وكان يختم القرآن في ركعة عند مقام إبراهيم عليه السلام.

وأفاض على الناس العطايا والأرزاق، وكساهم الحُلل، ووزَّع عليهم السمن والعسل.

أفبعدَ كل هذه المناقب والفضائل يُقتَل عثمان؟!.

فهل اقترف ذو النورين ذنباً يوجب القتل برأي هؤلاء الطغاة المجرمين؟!.

الخسارة في مقتله:

حقاً لقد كانت خسارة المسلمين بقتله عظيمة وجليلة، ولقد سَنَّ القاتلون سُنَّة كُفْر بما فعلوه، وفتحوا على المسلمين باباً من الشرِّ عريضاً، يصوِّره أيمن بن خُرَيْم بن فاتِك فيقول:

ضَحَّوا بعثمانَ في الشهر الحرام ضُحًى ... وأيَّ ذبحٍ حرامٍ ويلهمْ ذَبَحوا
وأيَّ سُنَّةِ كُفرٍ سَنَّ أَوَّلُهم ... وبابَ شرٍّ على سُلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضلَّ اللهُ سعيَهُمُ ... بسفكِ ذاكَ الدم الزكي الذي سَفحوا

ومن بعد مقتله نزفت الدماء وسالت ولم ترقأ، ولو لم يكن من نتائج قتله سوى توقف حركة الجهاد الإسلامي سنين طويلة، ونشوب الفتن في عهد علي؛ لكفى بذلك شراً وجناية على الإسلام والمسلمين!.

أقوال الصحابة في قتله، وحزنهم عليه:

ولقد كان وقعُ المصيبة على نفوس الصحابة عظيماً، وحزنُهم عليه شديداً.

● فلما جاء الخبرُ إلى علي رضي الله عنه قال: (تبّاً لهم آخرَ الدهر). ثم قام فدخل على عثمان، فأكبَّ عليه وجعل يبكي، حتى ظَنَّ مَن هناك أنه سيلحق به! وكان يقول: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

● وقال حذيفة بن اليمان: (أَوَّلُ الفتن قتلُ عثمان، وآخرُ الفتن خروج الدجّال، والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقالُ حبَّة من حُبِّ قَتْلِ عثمان إلا تَبِعَ الدجَّال إن أدركه، وإنْ لم يدركْه آمَنَ به في قبره)!.

● وخطب ابن عباس الناسَ فقال: (لو لم يطلب الناس بدم عثمان لَرُمُوا بالحجارة من السماء).

● وقال سعيد بن زيد: (لو أنَّ أُحداً انقضَّ لِما صنعتم بعثمانَ، لكان مَحْقُوقاً أن ينقضَّ).

● وقال عبد الله بن سَلاَم: (لقد فتح الناس على أنفسهم بقَتْل عثمان بابَ فتنةٍ لا ينغلق عنهم إلى قيام الساعة).

● وقالت أم المؤمنين عائشة: (قُتِل مظلوماً، لَعَن الله قَتَلَته).

وفَقَد الصحابة بموته الآسي والحاني، القائم بكتاب الله تعالى، القيِّمَ على حدوده، فنَشَجوا عليه وانتحبوا، بل امتنع بعضهم من ملاذِّ الدنيا ومن الضحك حتى لقوا وجَه ربِّهم!:

● فكان أبو هريرة إذا ذُكر ما صُنِع بعثمان بكى، حتى يقول: هاه، هاه، ينتحب.

● وقال أبو حُمَيْد الساعدي لما قُتل عثمان: (اللهمَّ إنَّ لك عليَّ ألاَّ أفعلَ كذا، ولا أفعل كذا، ولا أضحك، حتى ألقاك).

● ومن مراثيهم التي تعبّر عن حزنهم العميق، قول حسان بن ثابت:

أَتَـرَكْتُـمُ غَـزْوَ الـدُّروب[١] وراءَكُـمْ ... وغَـزَوْتُمـونـا عنـد قبـرِ محمَّـدِ
فلبئـسَ هَـدْيُ المسلميـنَ هـديتُـمُ ... ولبئـسَ أمـرُ الفـاجـرِ المتعمِّـدِ
وكـأنَّ أصحـابَ النبـيِّ عشيَّـةً ... بُـدْنٌ تُنَحَّـرُ عنـد بـابِ المسجـدِ
فـابـكِ أبـا عَمْـرو[٢] لِحُسْـنِ بـلائِـه ... أمسـى مُقيمـاً فـي بقيـعِ الغَـرْقَـدِ

وقال حسان أيضاً:

ماذا أردتمْ من أخِي الخيرِ باركتْ ... يـدُ اللهِ فـي ذاكَ الأديـمِ المُقَـدَّدِ[٣]
قَتَلْتُـمْ ولـيَّ اللهِ فـي جَـوْفِ دارِهِ ... وجِئْتُـمْ بـأمـرٍ جـائـرٍ غيـرِ مُهْتَـدِي

(١) الدروب: جمع درب، وهو كل مدخل إلى بلاد العدو.
(٢) أبو عمرو: كنية سيدنا عثمان رضي الله عنه.
(٣) الأديم: الجِلد. المقدَّد: المقطَّع.

فهــلاَّ رعيتــمْ ذِمَّــةَ اللهِ وَسْطَكُــمْ وأَوْفَيْتُــمُ بــالعَهْــدِ عهــدِ محمّــدِ
ألــمْ يَــكُ فيكــمْ ذا بــلاءٍ ومَصْــدَقٍ وأوفــاكــمُ عَهْـداً لَـدَى كـلِّ مَشْهَـدِ
فـلا ظَفِـرَتْ أيْمـانُ قـومٍ تَظَـاهَـرَتْ علـى قَتْـلِ عُثمـانَ الـرشيـدِ المُسَـدَّدِ

وقال كعب بن مالك الأنصاري:

فَكَــفَّ يــديْــهِ ثــم أغلَــقَ بــابَــهُ وأَيْقَــنَ أنَّ اللهَ ليــس بغــافِــلِ
وقــال لأهــلِ الــدارِ: لا تقتلــوهــمُ عَفَـا اللهُ عـن كـلِّ امرئٍ لـم يُقـاتِـلِ
فكيـفَ رأيـتَ اللهَ صَـبَّ عليهـمُ العـ ـداوةَ والبغضـاءَ بعـدَ التـواصُـلِ؟!
وكيـفَ رأيـتَ الخيـرَ أَدْبَـرَ بعـدَهُ عن النَّاسِ إدبارَ النعامِ الجوافلِ؟!

تاريخ استشهاده، وغسله، والصلاة عليه، ودفنه:

استُشهد عثمان بالمدينة النبوية، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلَتْ من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين للهجرة.

وتولى غسلَهُ جُبير بن مُطْعِم، والمِسْوَر بن مَخْرَمة، وحَكيم بن حِزام، وابنُه عَمْرو بن عثمان، وزوجتاه نائلة وأم البنين، وكفَّنوه وصلَّوا عليه، صلَّى عليه حَكيم بن حزام، وقيل: الزبير بن العوام بوصية من عثمان.

وخرج به جماعة من الصحابة فيهم عليّ بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، وجُبير بن مطعم، وحَكيم بن حزام. وخرجت زوجته نائلة بنت الفُرَافِصَة بسراج، فقال لها جُبير: أطْفِئي السراج، لا يُفْطَنُ بنا! فأطفأتْه. وخرجت معهم زوجتُه الأخرى أم البنين.

وحملوه سرّاً على باب، وإن رأسه لَيَقْرَع البابَ يقول: (طق، طق)!! لإسراعهم به، لِما بهم من الخوف العظيم من أولئك القتلة الفَجَرة الذين أرادوا رَجْمَه ودَفْنَه بمقبرة يهود!.

ودفنوه ليلاً للعجز عن إظهار دَفْنِه، بسبب غلبة قاتليه، ودُفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في (حَشّ كَوْكَب)[1].

---

(١) الحَشّ: البستان. وكوكب: رجل من الأنصار. وحَشّ كوكب يقع شرقي البقيع، وقد=

وكان الناس يَتَوقَّون أن يَدفنوا موتاهم فيه، وكان عثمان رضي الله عنه يمرُّ بِحَشّ كَوْكب ويقول : (يُوشِك أن يَهْلِك رجل صالح، فيُدفن هناك، فيأتسيَ الناس به). فكان عثمان أولَ من دُفن فيه!.

وقد اعتنى معاوية رضي الله عنه في أيام خلافته بقبر عثمان، فهدَمَ الجدار بينه وبين البقيع، وأمر الناسَ أن يدفنوا موتاهم حوله، حتى اتصلتْ بمقابر المسلمين، فجزاه الله خير الجزاء.

عمره، ومدة خلافته:

مات عثمان رضي الله عنه وعمره اثنتان وثمانون سنة، فقد وُلِدَ بعد حادثة الفيل بست سنوات ـ فهو أصغر من النبي ﷺ بستة أعوام ـ فيكون عمره يوم توفي رسول الله ﷺ سبعاً وخمسين سنة، وعاش بعده خمساً وعشرين سنة، فيكون عمره اثنين وثمانين عاماً.

وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً.

أزواجه وأولاده:

تزوَّج رضي الله عنه برُقيَّة بنت رسول الله ﷺ، فتوفيت عنده، فتزوج أختها أم كلثوم، ثم توفيت، فتزوج بفاختة بنت غزوان، وتزوَّج أم عَمْرو بنت جُندب، وفاطمة بنت الوليد، وأم البنين بنت عُيينة بن حِصْن، ورملة بنت شيبة، ونائلة بنت الفُرَافِصَة ـ وكانت نصرانية، فأسلمت قبل أن يدخل بها ـ وأم ولد.

وله من الأولاد تسعة ذكور: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وعَمْرو، وخالد، وأبان، وعمر، والوليد، وسعيد، وعبد الملك.

ومن الإناث: مريم، وأم سعيد، وعائشة، وأم أبان، وأم عمرو، وأم البنين.

ومات رضي الله عنه وعنده أربع نسوة، هُن: نائلة، ورملة، وأم البنين بنت عيينة، وفاختة.

= اشتراه عثمان وزاده في البقيع.

تَرِكَته:

كان لعثمان رضي الله عنه عند خازنه يوم قُتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمس مئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، فانتُهِبَتْ وذهبتْ!.

وترك ألف بعير بالرَّبَذة، وترك صدقاتٍ كان تصدَّق بها، قيمة مئتي ألف دينار.

* * *

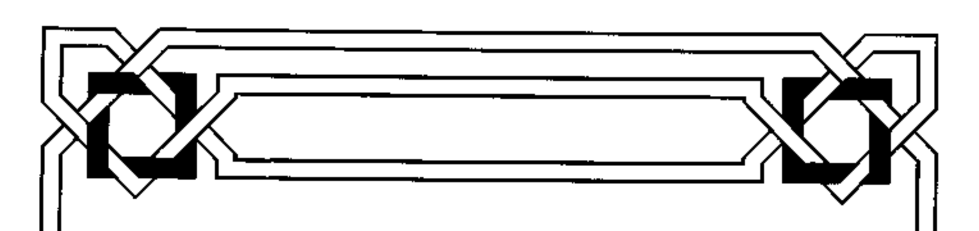
ومضَى عثمان إلى ربّه شهيداً صائماً، وبين يديه الكتاب العزيز الذي كان جليسَه وأنيسَه في الليل والنهار، وحتى عندما تقحَّم عليه البُغاة دارَه كان يُجيل فيه ناظِرَيْه، وتتملَّى روحه معانيه، وهي تترقب وقت الغروب لتُفْطِرَ عند الأحبة.. محمد وصحبه.

رحل عثمان وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية، ورسول الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر ينتظرونه على شوق!.

فيا أيها الخليفة الشهيد، اذهَبْ إلى دار الخلود راضياً مرضياً، والْقَ هناك الرسولَ الحبيب والصاحبين الكريمين، وأمَّا القَتَلَة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾!!.

* * *





الباب الرابع

علي بن أبي طالب

الخليفة الزاهد والمجاهد المقدام

٢٣ ق.هـ - ٤٠ هـ

الفصل الأول : نبعته وحليته ونشأته وإسلامه

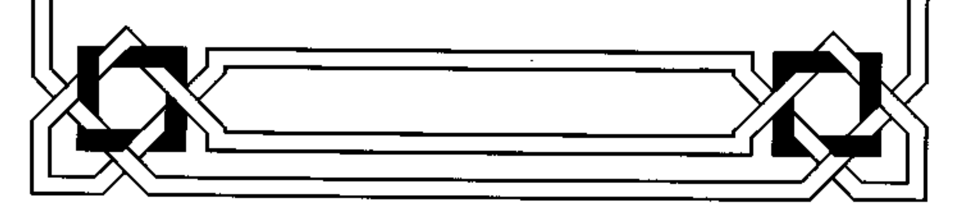
الفصل الثاني : صحبته وهجرته ومشاهده

الفصل الثالث : أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

الفصل الرابع : رابع الخلفاء، وفرية الوصية بالخلافة

الفصل الخامس : هدي الإمام في خلافته، وفتن عاصفة وحقائق كاشفة

الفصل السادس : استشهاده ومراثيه وأسرته





الفَصلُ الأوَّل

نبعته وحليته ونشأته وإسلامه

أسرته التي نشأ فيها:

كان عبد المطلب بن هاشم كبيرَ قريش وعظيمَها، والسيد المُطاع فيها، ذِكْره قد ملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شَذاً وعبيراً، فهو الذي حفر (بئر زمزم)، ولما جاء أَبْرَهَةُ لهدمِ الكعبةِ توجَّه عبد المطلب إلى الله سبحانه، وجأر إليه يدعوه أن يمنع بيته الحرام ويحميه، وأخذ يقول:

لا هُمَّ إن العبدَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلالَكْ[1]
إنْ كُنْتَ تَارِكَهُم وقِبْـ ـلَتَنَا فأمْرٌ ما بَدَا لَكْ

وبلغ من كرمه وسخائه وجودِه درجة وصفوه معها بأنه (الرجل الذي يُطعم الناسَ في السهل، والوحوشَ في الجبال)!.

وكانت إليه السِّقاية والرِّفادة[2]، وشَرُف في قومه شرفاً لم يبلغه أحدٌ من آبائه، فأحَبَّه قومه وعَظُمَ خطرُه فيهم، وكثُرت محامده حتى اشتَهر بـ(شَيْبَة الحمد).

وعندما بُشِّر بمولد حفيده (محمد بن عبد الله) حمله بين ذراعيه، وضمَّه إلى صدره، وأسرع إلى الكعبة، وأخذ يدعو الله ويشكره ويقول:

الحمدُ لله الذي أعطاني هذا الغلامَ الطيِّبَ الأردانِ
قد سادَ في المَهْدِ على الغِلْمانِ أُعِيذُه بالبيتِ ذي الأركانِ

---

(١) **حلال**: جمع حِلَّة وهي جماعة البيوت. أو: القوم الحلول في المكان.

(٢) **السقاية**: هي سقاية زمزم، وكانوا يمزجون ماءها بالعسل أو اللبن أو النبيذ، ويسقونه الحجيج تطوّعاً. **والرفادة**: طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم من الحجيج، إكراماً لهم لأنهم أضياف الله.

ووَرِثَ أبو طالب من أبيه ـ مع المكانة والسيادة ـ الخلال الحميدة والصفات النبيلة، واحتشدتْ فضائل العرب في شخصيته، فَسَادَ في قريش سيادة عظيمة، وكان من الخطباء العقلاء الأُباة.

ولقد تولى رعاية ابن أخيه محمد ـ ﷺ ـ وحَدَبَ عليه حَدَباً عظيماً، ولمَّا نزل عليه الوحيُ هبَّ لنصرته، فبارزتْه قريش بالعداوة، فلم تَلِنْ له قناة. وعندما جاهرتْ قريش بعدائها للنبي ﷺ، راح أبو طالب يلفحها ببأسه وعزمه، مؤكداً أنه غيرُ مُسَلِّمٍ ابنَ أخيه، فقال:

كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ يُبْزَى[1] محمدٌ ... ولمَّا نُطاعِنْ دونَه ونُناضِلِ
ونُسْلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حولَه ... ونَذْهَلَ عن أبنائِنا والحَلائِلِ[2]
ويَنْهَضَ قَوْمٌ في الحَديدِ إليكُمُ ... نُهُوضَ الرَّوايا تحت ذات الصَّلاصِلِ[3]
وأبيضَ يُستسقى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمالَ[4] اليَتامَى عِصْمةً للأرامِلِ

وقال للنبي ﷺ: اذهَبْ يا ابنَ أخي، فقُلْ ما أحببتَ، فوالله لا أُسْلمك لشيء أبداً، ثم أنشد:

واللهِ لن يَصِلوا إليكَ بِجَمْعِهِم ... حتى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفِيْنَا
فامضي[5] لأمركَ ما عليكَ غَضَاضةٌ[6] ... وابْشِرْ وقَرَّ بذاكَ منكَ عُيونا

اسمه ونسبه ومولده، وبداية نشأته:

هذا هو أبو طالب الذي من صُلْبه جاء علي، وذلك هو عبد المطلب جدُّه، وجدُّ النبي ﷺ. هذا هو نَسَب صحابيّنا الجليل علي بن أبي طالب بن عبد المطلب

---

(١) أي: يغلب ويقهر، أراد: (لا يبزى)، فحذف (لا) من جواب القسم وهي مرادة.
(٢) **الحلائل**: الزوجات، واحدتها: حليلة.
(٣) **الروايا**: هي الإبل التي تحمل الماء والأسقية. **والصلاصل**: المزادات لها صلصلة الماء.
(٤) **ثمال اليتامى**: أي يقوم بهم.
(٥) هكذا بإثبات الياء للوزن.
(٦) **غضاضة**: أي نقصان.

ابن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كِلاب بن مرَّة بن كَعْب بن لؤيّ بن غالب، القرشي الهاشمي.

وأمه فاطمة بنت أَسَد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمتْ وصحبتْ رسولَ الله ﷺ، وهاجرت إلى المدينة المنورة، وماتت بها، وصلى عليها النبي ﷺ، ونزل في قبرها، وتولى دفنها، وأَلْبَسها قميصَه، وأثنى عليها خيراً فقال: «إنَّها كانت من أحسن خَلْق الله صنيعاً إليَّ، بعد أبي طالب».

من هذه الأسرة الماجدة العريقة في السيادة والريادة والمكارم جاء علي بن أبي طالب.

وَوُرِّثَ فرعَ المجدِ من آلِ هاشمٍ وجَاءَ كَريماً من كِرامٍ أَمَاثِلِ

فلقد كان أجداد عليّ سَدَنة الكعبة والقائمين عليها، وخَدَمَةَ الحجيج إليها، فكانوا في الذُّؤَابة من قريش، بل كموضع الرأس من الجسد.

ووَرِثَ عليٌّ من أبيه ذلك المَضَاء والحزم والعزم، ودخلتْ تلك الموروثات في بوتقة الإسلام فصَهَرها وأخرجها صافية نقية، فكان ولاؤه للإسلام مبكراً صادقاً شامخاً.

فلقد كان عليٌّ أصغر ولد أبيه، ولد قبل البعثة النبوية بعشر سنين، فكان من تمام نعمة الله عليه أنه تربَّى في حَجْر النبي ﷺ، حيث نزلتْ بقريش ضائقةٌ، وكان أبو طالب كثيرَ العيال، فأسرع الرسول ﷺ إلى عمِّه ليردَّ له جميلَه، فأخذ علياً ليخفِّف عن أبي طالب أعباء الحياة والنفقات، كما أخذ العباس جعفراً وضَمَّه إليه.

وتنامت وارثات علي المجيدة، وبلغتْ أَوْجَها على يدي معلم البشرية الأكبر رسول الله ﷺ، الذي تولَّى تربيته وتنمية ملكاته، فكان عليٌّ فتًى محظوظاً مباركاً ميموناً.

صفته وحليته:

نشأ عليٌّ متين البنيان في الشباب والكهولة، وحافظ على متانة جسمه حتى

الستين، وصفه من رآه في تمام الرجولة، فقال:

كان رجلاً رَبْعَة، إلى القِصَر أقرب، ضخم البطن، ضخم المَنْكِبين، لِمَنْكِبه مُشَاش[١] كَمُشاش السَّبُع الضاري، لا يتبيَّن عضده من ساعده، قد أُدْمِجت إدماجاً، ضخمَ عضلة الذراع، دقيقَ مُسْتَدَقِّها، ضخمَ عضلة الساق، دقيق مستدقها، شَثْن[٢] الكفين، عظيم اللحية، قد ملأت ما بين منكبيه، بيضاء كأنها قطن، أَدْعَج[٣] العينين عظيمهما، أصلع، كثير شعر الصدر والكتفين. له قلنسوة بيضاء مصرية، يتختَّم باليسار، وكان نقش خاتمه (الله الملك)، حسنَ الوجه، كأنه القمر ليلة البدر حُسناً، أَغْيَد، كأنَّ عنقَه إبريقُ فضَّة، ضحوكَ السنّ، إذا مشى تكفَّأ ـ على نحو مشية النبي ﷺ ـ وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفَسه، فلم يستطع أن يتنفس، شديد الساعد واليد، وإذا مشى للحرب هرول، ثَبْتَ الجَنـان، قوياً شـجاعاً، منصوراً على مَنْ لاقاه، رضي الله عنه وأرضاه.

في بيت محمد ﷺ:

انتقل الغلام من بيت أبيه سيد قريش إلى بيت محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين، وهناك فتح عينيه على نمط من الحياة جديد، رأى فيه محمداً باحثاً عن الحقيقة، عابداً على ملَّة إبراهيم، نأى بنفسه عن الجاهلية ووثنياتها، حيث يذهب إلى غار حِرَاء يتعبَّد هناك.

فتعلَّقَتْ نفس الفتى بابن عمّه محمد ﷺ، وكيف لا يحبُّ عليٌّ محمداً ﷺ، وقد أحبَّه القريب والبعيد؟! وكيف لا يحترمه ولا يوقِّره ولا يقتدي به، وقد رضيتْ به سادات قريش أميناً وحَكَماً؟! فكان محمد ﷺ نبراس هُدًى ومعلِّمَ خيرٍ لعليٍّ في بواكير أيامه.

وترعرع الصبي في بيت النبوة، يتفيأ ظلال صاحب الخُلُق العظيم محمد

---

(١) المُشَاش: ما برز من عَظْم المَنْكِب.
(٢) شثن الكفين: أي يميلان إلى الغِلَظ والقِصَر.
(٣) أدعج العينين: أي أنَّ سواد عينيه كان شديداً.

ﷺ، وفي كَنَف السيدة العاقلة الحسيبة الجليلة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فتفتحت حياة علي كالزهرة على نسمات الربيع الحاني، وقطرات الماء الطهور، فكان كالغصن الرطيب تولَّته يدٌ حانية عاقلة ناصحة، فنشأ على هَدْي صالح وسيرة طاهرة لم يُدنِّسها شيء من عَبَث الجاهلية.

فلكأنَّ الأقدار اختارت علياً لينشأ نشأة الرجال الأسوياء العقلاء، فتربَّى في هذا المحضن الطاهر، لم تُعرف له صَبْوَة، ولا سُجِّلت عليه كَبْوَة، ولا عِيب بنَزْوَة.

إسلامه:

ومضت سنوات عشر من عمر الفتى، قضى زُهاءَ ثلثها في حَجْر النبي ﷺ، واهتزَّت مكة للنبأ العظيم الذي روَّعَ كبراءَها، وزلزل وثنيتها، فقد هبط الوحي الأمين على قلب محمد ﷺ، فأصبح رسولَ الله للناس كافة.

وهناك في بيت النبوة تردَّدت الآيات الأولى من التنزيل الحكيم، يتلوها رسول الله ﷺ، فيسمعها عليٌّ غَضَّة عليها أنوار الوحي الأمين.

وقام الرسول ﷺ بإبلاغ الدعوة مبتدئاً بأهل بيته، ومَن يثِق به من أصحابه، والأعيان في مكة، فسارع أهل بيته الأطهار إلى الإيمان: فأسلمتْ خديجة، وعلي، وزيد بن حارثة، وبنات النبي ﷺ الطاهرات. وهناك خارج بيت النبوة سابَقَ أبو بكر فآمن برسول الله ﷺ، ثم أسلم الناس واحداً تلو الآخر.

فكان علي أول من أسلم من الغلمان، كما كان الصدّيق أول الرجال إسلاماً.

أسلم علي وهو ابن عشر سنين، لم يَبلغ الحُلُم، ولم يجرِ عليه القلم، لم يقترف ذنباً، ولم يَلْزمه حَوْب، وما سَجَدَ لصنم، ولا سقط في واحدة من حمأة الجاهلية. فكانت نشأته وبداية حياته نمطاً فريداً، حتى لكأنه ابن الإسلام، وتلميذ الوحي الأمين، وحواري النبي الكريم محمد ﷺ.

* * *

الفَصل الثاني

صحبته وهجرته ومشاهده

هجرته:

استمرَّ علي رضي الله عنه في صحبة رسول الله ﷺ يتلقَّى عنه القرآن الكريم بنفس مرهفة، وقلب واع، وذكاء وقّاد، وعزم أكيد، فتكامل بناء شخصيته في حَجْرِ النبوة، فراح يسطر في تاريخ الدعوة المواقف الرائعة والبطولات النادرة.

ولقد جاءت **حادثة الهجرة النبوية** لتخطَّ لعليٍّ واحداً من أبرز الأمثلة على بطولة روحه، وقوة شكيمته، وشجاعة نفسه، ورباطة جأشه، وصدق افتدائه للنبي ﷺ وطاعته له.

لما عزم رسول الله ﷺ على الهجرة، وأخبر أبا بكر بذلك، وفي الليلة التي سيخرج النبي ﷺ فيها؛ جاءه جبريل يخبره بأن قريشاً قد أجمعت على قَتْلِه، وأحاط الرجال ببيته، وأمره ألا يبيت على فراشه الذي كان يبيت عليه.

قال ابن إسحاق: (فلمَّا كان عَتْمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه؛ فلما رأى رسولُ الله ﷺ مكانَهم، قال لعليّ بن أبي طالب: نَمْ على فراشي، وتَسَجَّ بِبُرْدي هذا الحَضْرميّ الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه منهم).

وخرج النبي ﷺ من بيته وقد أغشى الله على أبصار القائمين على الباب، وحمى الله علياً من أسياف قريش الظالمة. وبقي علي ثلاثة أيام يردّ الودائع التي كانت عند النبي ﷺ لأهل مكة، ثم هاجر إلى المدينة.

قال علي رضي الله عنه: (لمَّا خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة أمَرني أن أقيم بعده حتى أؤدِّيَ ودائعَ كانت عنده للناس، ولذا كان يُسمَّى الأمين،

فأقمتُ ثلاثاً كنتُ أَظْهَرُ، ما تغيَّبْتُ يوماً واحداً، ثم خرجتُ فجعلتُ أتبع طريق رسول الله ﷺ، حتى قدمْتُ بني عَمْرو بن عوف ورسول الله ﷺ مقيم، فنزلتُ على كلثوم بن الهِدْم، وهناك منزل رسول الله ﷺ).

المؤاخاة:

وهناك في المدينة النبوية قام رسول الله ﷺ ـ بعد بناء المسجد ـ بإرساء تلك القاعدة العظيمة التي تربط عناصر المجتمع الإسلامي الجديد، وهي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل أنصاري أخاً من المهاجرين، ليكون الجميع صفاً واحداً، وجسماً متكاملاً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر، وكان علي أخاً لسَهْل بن حُنيف الأنصاري.

زواجه بالسيدة فاطمة:

وزاد إكرام الله سبحانه لهذا الصحابي الميمون بأن أصبح ختناً للنبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة، وكان عمرها آنذاك خمس عشرة سنة وعدة أشهر.

يروي علي أنّ مولاة له جاءته فقالت له: (هل علمتَ أن فاطمة خُطِبَت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد خُطبت، فما يمنعك أن تأتي رسولَ الله ﷺ فيزوجك؟! فقلت: وعندي شيء أتزوّج به؟! فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوَّجك. قال: فوالله ما زالت ترجِّيني حتى دخلتُ على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدتُ بين يديه أُفحمتُ، فوالله ما استطعت أن أتكلَّم جلالةً وهيبةً!! فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بكَ، أَلَكَ حاجة»؟ فسكتُّ، فقال: «لعلك جئتَ تخطب فاطمة»؟! فقلت: نعم، فقال: «وهل عندك من شيء تستحلها بها»؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: «ما فعلتْ درعٌ سَلَّحْتُكَها»؟ ـ فوالذي نفس علي بيده إنها لَحُطَمِيَّة[1]، ما قيمتها أربع مئة درهم ـ فقلت: عندي، فقال: «قد زوَّجْتُكَها، فابعث إليها بها، فاستحلَّها بها». فإن كانت لَصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ)!!.

---

(١) درع حطمية: نسبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم: حطمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع.

وكان علي ـ رضي الله عنه ـ فقيراً، قليل ذات اليد، فقد روت لنا أسماء بنت عُمَيْس، فقالت: (لما أُهديتْ فاطمة إلى علي بن أبي طالب، لم نجد في بيته إلا رَمْلاً[١] مبسوطاً، ووسادة حشوها ليف، وجرّة وكوزاً). فجمع له الأنصار أصْوُعاً[٢] من ذرة، وكبشاً، وأقاموا له وليمة العرس.

وبعث رسول الله ﷺ مع ابنته بِخَميلة[٣]، ووسادة من جلد حشوها ليف[٤]، ورَحًى، وسِقاء وجرّتين!.

والتقى هذان النوران ليكوّنا أسرة عظيمة، كان منها نَسْل رسول الله ﷺ: الحسن، والحسين، ومحسن، وأم كلثوم، وزينب.

ولنتملَّ هذا المشهدَ النبوي الذي حدث مع السيدة الطاهرة، يحدِّثنا عنه علي نفسه، فيروي أن (فاطمة ـ عليها السلام ـ اشتكت مما تلقى من الرَّحى مما تطحن، فبلغَها أن رسول الله ﷺ أُتيَ بسبيٍ، فأتته تسأله خادماً، فلم توافقه[٥]، فذكرتْ لعائشة، فجاء النبي ﷺ، فذكرتْ ذلك عائشة له. فأتانا، وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «على مكانكما»، فقعد بيننا حتى وجدْتُ بَرْدَ قدميه على صدري، فقال: «ألا أدلكما على خير مما سألتماهُ! إذا أخذتما مضاجعكما، فكبِّرا الله أربعاً وثلاثين، واحْمَدَا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتُماه»).

ولقد كان رسول الله ﷺ يتولى هذه الأسرة الكريمة بالموعظة تارة، وبالتسلية وإفراغ الصبر حيناً، وبالتوجيه للمعالي والمكارم في كل حين. وإذا حدث ما يعكر صفوَ الحياة، سارع بنفسه الشريفة لإزالة ما قد يحدث بين الزوجين، مما لا بد منه من البشر، الذين مهما بلغوا من الإيمان والتقوى فليست

---

(١) رمل مبسوط: أي حصير.
(٢) أصوع: جمع صاع، ومقدار الصاع نحو (٢١٧٥ جراماً).
(٣) خميلة: هي كل ثوب له خَمْل.
(٤) الليف: هي قشر النخل وما شاكله.
(٥) لم توافقه: أي لم تصادفه، ولم تجتمع به.

العصمة بواجبة لهم، فقد (جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة، فلم يجد علياً في البيت، فقال: «أين ابن عمك»؟ قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني فخرج، فلم يَقِلْ[(١)]. فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو»، فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شِقِّه[(٢)]، وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «قُمْ أبا تُرَابٍ، قم أبا تراب»).

فما كان لعلي كُنية أحبَّ إليه من (أبي تراب)، وإن كان ليفرح إذا دُعي بها!.

ولقد عرف علي لزوجته الزهراء مكانتها، وعِظَمَ منزلتها من قلب أبيها ﷺ، فلم يتزوّج عليها حتى ماتت، وجَنَّب قلبَ السيدة البتول الغيرةَ من الضرائر.

مشاهده مع النبي ﷺ:

وكان من أبرز صفات علي الشجاعة والبطولة، التي التقت مع بنيانه المكين وتكوينه المتين لقاءً فذاً. ولم تكن الشجاعة عنده اندفاعاً عرمرماً متهوِّراً لا ضابطَ له ولا حدود، إنما كان في كل بطولاته وجولاته وانتصاراته ملتزماً لأبعد مدى بالمنهج الفريد الذي تربى عليه في بيت النبوة، فكان قتاله وجهاده مبنياً على الاستقامة، محمياً بالعدالة، مُصَاناً بالشرف والمروءة، متورِّعاً عن البغي، سليم الصدر من الضغينة والحقد على العدو بعد انتهاء القتال.

ولقد شهد عليٌّ مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها، ما تخلَّف عن واحدة منها، إلا ما كان في (غزوة تبوك)، حيث استخلفه النبي ﷺ على المدينة.

فشهد معه ﷺ: (غزوة بدر) وكانت معه الراية، و(غزوة أُحد) وكان على الميمنة، وحمل الراية بعد استشهاد حاملها مصعب بن عمير. وشهد (يوم الخندق)، وقتل فارسَ العرب عَمْرو بن عبد ودّ. كما شهد (الحديبية) و(بيعة

---

(١) لم يقل: من القيلولة، وهي النوم نصف النهار.
(٢) عن شقه: أي: جانبه.

الرضوان)، و(خيبراً) وكانت له فيها مواقف هائلة، ومشاهد طائلة. ثم شهد (عمرة القضاء) و(الفتح) و(حُنيناً) و(الطائف)، واعتمر مع رسول الله ﷺ من الجِعْرَانة، وحجَّ معه حجة الوداع.

ففي غزوة بدر:

كان عليٌّ معلَّماً بصوفة بيضاء، ودفع رسول الله ﷺ إليه راية المهاجرين، ولما تقابل الجيشان خرج من المشركين ثلاثة منهم، هم: عُتبة بن ربيعة، وأخوه شَيبة، وابنه الوليد بن عتبة، فبارزهم ثلاثة من المهاجرين، هم: عُبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي، فقُتِل المشركون الثلاثة، وعاد الصحابة الثلاثة وقد جرح عُبيدة.

أخرج الشيخان ـ واللفظ للبخاري ـ عن قَيْسِ بن عُبَادٍ قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقْسِمُ قَسَماً: (إنَّ هذه الآية: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في الذين بَرَزُوا يومَ بدر: حمزةَ وعليٌّ وعُبيدة بنِ الحارث، وعُتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة والوليدِ بن عتبة).

وروى البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال: (أنا أولُ مَن يَجْثُو[١] بينَ يَدَيِ الرحمنِ للخصومة يومَ القيامة).

وفي أُحُد:

كان اللواء مع مصعب بن عمير، فلما استُشهد دفعه النبي ﷺ إلى علي، فأخذه وتقدَّم به ونادى: أنا أبو القُصَم[٢]، فدعاه أبو سَعْد بن أبي طَلْحة ـ حامل لواء المشركين ـ للبزار، فأجابه لذلك، وبرزوا بين الصفين، فاختلفا ضربتين، فضربه علي فصرعه، ثم انصرف عنه، ولم يُجْهِز عليه، لأنه استقبله بعورته!.

وثَبَتَ عليٌّ فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ، وقد أصابته في ذلك اليوم ست عشرة ضربة، وتخضَّب سيفه بالدماء، وانحنى لكثرة ما ضرب به هامَ المشركين.

---

(١) يجثو: يقعد على ركبتيه مخاصماً.

(٢) القُصَم: الذي يحطِّم كل ما يلقاه.

فلما عاد من المعركة دخل على زوجه فاطمة رضي الله عنها، وناولها السيف، وقال:

أَفَاطِمُ هَاكِ السيفَ غيرَ ذَمِيمِ فلستُ بِرِعْدِيدٍ[١] ولا بلئيمِ
لَعَمري لقد أبليتُ في نصرِ أحمدٍ ومرضاةِ ربٍّ بالعباد عليمِ

وفي غزوة الخندق:

كانت لعليٍّ بطولات مشهودة مشهورة، من ذلك أنّ فارس الجزيرة العربية عَمْرو بن عبد ودّ ـ الذي كان يقوّم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ـ نادى في المسلمين: من يبارز؟ فقام علي، فأجلسه الرسول ﷺ مرتين قائلاً: «إنه عَمرو»! فامتثل علي للأمر النبوي، وفي الثالثة قال ﷺ: «إنه عمرو»! فقال علي: وإن كان عَمْراً!!.

وبرز عليٌّ، فقال له عَمْرو: مَن أنت؟

قال: أنا علي!

قال: ابن عبد مناف؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال: يا ابنَ أخي، مِن أعمامك مَن هو أسنّ منك، فإني أكره أن أهْرِيق دمك!

فقال له علي: ولكني ـ والله ـ لا أكره أن أهريق دمك!!

فغضب عمرو، ونزلَ وسلَّ سيفَه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضَباً، واستقبله عليٌّ بِدَرَقَتِهِ[٢]، فضربه عمرو في درقته فقدَّها، وأثبتَ فيها السيف، وأصاب رأسه فشجَّه، وضربه عليٌّ على حبل عاتِقه، فسقط وثار العَجَاج[٣]،

---

(١) **الرِّعْدِيد**: الجبَان الكثير الارتعاد.
(٢) **الدرقة**: هي التُّرْس من جِلْد.
(٣) **العجاج**: الغبار.

وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرف المسلمون أنّ علياً قد قتله.

وفي بيعة الرضوان:

حيث بايع الصحابة رسولَ الله ﷺ على الموت، لتأديب قريش، لمَّا بَلَغهم أنَّ عثمان قد قُتل، فسارع عليٌّ للبيعة، فنال بذلك رضوان الله تعالى الذي ذكره في قرآنه: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨].

وفي غزوة خيبر:

تحرّكت جحافل الجيش الإسلامي في أول سنة سبع من الهجرة إلى (خيبر)، وكان علي قد تخلَّف عن النبي ﷺ؛ لأنه كانَ رَمِداً، فلما رأى توجُّهَ المسلمين للجهاد خشي أن يفوته شرف ذلك المشهد، وقال: (أنا أتخلَّفُ عن رسول الله ﷺ)؟! فخرج ولَحِقَ بالنبي ﷺ.

وتحصَّن اليهود بآطامهم، فقامت كتائب المسلمين بمهاجمة تلك الحصون المنيعة، وأبطأ على المسلمين الفتح، عندئذ أطلق النبي ﷺ تلك البشارة العظيمة والثناء البليغ، فيما يرويه سَهْل بن سعد: (أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعْطِيَنَّ هذه الرايةَ غداً رجلاً يفتحُ اللهُ على يديه، يُحِبُّ الله ورسولَه ويُحِبُّه اللهُ ورسولُه». قال: فباتَ الناسُ يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلمَّا أصبحَ الناسُ غَدَوا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب»؟. فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه». فأُتي به فبصق رسولُ الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنْ لم يكن به وَجَعٌ، فأعطاهُ الراية، فقالَ علي: يا رسول الله، أقاتِلهم حتى يكونوا مِثلنا؟ فقال: «انفذ على رِسلِك حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله فيه، فوالله لأنْ يهديَ اللهُ بك رَجلاً واحداً، خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»)(١).

(١) **يدوكون**: يخوضون ويتحدّثون في ذلك. **على رسلك**: على هينتك. **حُمر النعم**: هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وإنه ليس هناك أعظم منها.

وبرز اليهود من حصونهم، وحمل عليهم المسلمون، وأنزل الله نصره على عباده، ورددت القوة المنتصرة في شرفات الحصن التي تهاوت تحت سَنَابك خيول الصحابة هتافات النصر: (اللهُ أكبرُ، خَرِبَتْ خيبر). ورجع علي مع أصحابه بالنصر والفتح، وصدقت نبوءة النبي ﷺ: «لأعطينَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه».

وفي غزوة تبوك:

خلَّفه رسول الله ﷺ على أهله، وأمره بالإقامة فيهم: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف عليّاً، فقال: أتخلِّفُني في الصبيان والنِّساء؟ فقال النبيُّ ﷺ: «ألاَ ترضى أن تكونَ منّي بمنزلةِ هارونَ من موسى؟ إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي»).

إبلاغه البراءة للمشركين سنة تسع:

بعث الرسول ﷺ أبا بكر أميراً على الحج، ليقيم للمسلمين حجَّهم، وأمره أن يؤذِّن في الناس أن: «لا يحجَّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يطوفنَّ بالبيت عُرْيان». ثم بعث ﷺ علياً بعد أبي بكر ليكون معه، ويتولى عليٌّ بنفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين، نيابة عن النبي ﷺ لكونه ابن عمه ومن عصبته.

روى الإمام البخاري عن حُمَيدِ بنِ عبد الرحمن بن عوف: (أنَّ أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجَّة، في مؤذِّنين يومَ النَّحْر، نؤذِّن بمنًى: ألاَ لاَ يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يَطُوفُ بالبيتِ عُرْيان. قال حُميد بن عبد الرحمن: ثم أردفَ رسولُ الله ﷺ عليّاً، فأمَرَه أن يؤذِّن بـ(براءةٌ). قال أبو هريرة: فأذَّن مَعنا عليٌّ في أهل منًى يوم النحر: لا يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُريان).

وروى أحمد والترمذي عن أنس بن مالك: (أن رسولَ الله ﷺ بعثَ (براءة) مع أبي بكر، فلما بلغَ ذا الحُلَيفة قال: «لا يُبَلِّغها إلا أنا أو رجلٌ من أهل بيتي». فبعث بها مع علي بن أبي طالب).

وعند الترمذي من حديث ابن عباس : (فقامَ عليٌّ أيامَ التَّشريق، فنادى : ذِمَّةُ اللهِ ورسولِه بريئةٌ من كلِّ مشركٍ، فَسيحوا في الأرض أربعةَ أشهرٍ، ولا يَحُجَّنَّ بعد العامِ مشركٌ، ولا يَطُوفَنَّ بالبيتِ عُرْيان، ولا يدخلُ الجنةَ إلا مؤمنٌ. وكان عليٌّ ينادي، فإذا عَيِيَ قام أبو بكر فنادى بها).

وأمَّرهُ النبي ﷺ على بعض السرايا، وبعثه إلى أهل اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، فذهب إليهم، ودعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ؛ فأسلمتْ هَمْدان جميعاً. فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ النبي ﷺ الكتاب خَرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على هَمْدان، السلام على هَمْدان».

وانطلق علي من اليمن راجعاً، وأسرع وأدرك الحج، فحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع.

* * *

الفَصل الثالث

أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

أخلاقه:

كانت أخلاقه رضي الله عنه قبساً من نور خلق النبي ﷺ، الذي تربَّى في حَجْره، وعاش في روضة مكارم الأخلاق، وزاد من ذلك مصاهرته إليه ﷺ، حيث كان يتولاَّه وفاطمةَ الزهراء بالمواعظ الرفيعة والآداب العظيمة.

● فلقد كان رجلاً حيياً حياء الأبطال الشجعان، ففي (غزوة أُحُد) عندما بارز أبا سعد بن أبي طلحة وَجَلَدَ به الأرضَ، وأراد أن يجهز عليه، إذا به يتولَّى عنه ويتركه، وعندما سأله أصحابه: لِمَ لمْ تُجْهِزْ عليه؟ قال: (لقد استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله). وفعل مثل ذلك في (الخندق) مع عمرو بن عبد ودّ، وقال: (ضربتُه، فاتقاني بسوءته، فاستحييتُ ابن عمي أن أسلبه).

إنَّ شَرف المقاتِل خُلُقٌ لا ينساه عليٌّ في زحمة النصر ونشوة الظَّفَر، وإن الأبطال الأصلاء أمثال علي ينشدون النصر عَفّاً كريماً، عادلاً شريفاً، وهذا إنما ينبع من أخلاق ومزايا لا تنبت إلا في حِجْر الأنبياء، ولا يتحلّى بها إلا صفوة الأصفياء.

● وعُرف بصِدْقه وصراحته ورفْضِه **التقيّة في أحلك الظروف**، وكان يقول: (علامة الإيمان أن تُؤْثِر الصدقَ حيث يضرُّك على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فَضْل على علمك، وأن تتقي الله في حديث غيرك).

● وبلغت صلة الرحم عنده حد التنافس، بل إنه تنازع مع بعض الصحابة في كفالة عمارة ابنة عمه حمزة رضي الله عنه، ولم يحسم الأمر بينه وبين أخيه جعفر وزيد بن حارثة إلا قضاء رسول الله ﷺ.

روى البخاري عن البَرَاء بن عازب رضي الله عنهما قال : (اعتمرَ النبيُّ ﷺ في ذي القَعْدة، فأبى أهلُ مكة أن يَدَعوهُ يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيمَ بها ثلاثة أيامٍ . . فلما دَخَلَها ومضى الأجلُ، أَتَوا علياً فقالوا : قلْ لصاحبك اخرجْ عنّا فقد مضى الأجلُ . فخرجَ النبي ﷺ، فتبعتْهم ابنةُ حمزةَ : يا عَمِّ يا عَمِّ، فتناوَلها عليٌّ، فأخذ بيدِها، وقال لفاطمة عليها السلام : دونكِ ابنةُ عمّك احْمِليها . فاختصمَ فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ، فقال عليٌّ : أنا أحقُّ بها، وهي ابنة عمي . وقال جعفرٌ : ابنةُ عمي وخالتُها تحتي . وقال زيدٌ : ابنةُ أخي . فقَضَى بها النبي ﷺ لخالَتها، وقال : «الخالةُ بمنزلةِ الأمِّ» . وقال لعليٍّ : «أنتَ مِنّي وأنا منك» . وقال لجعفر : «أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقي» . وقال ليزيد : «أنتَ أخونا ومَوْلانا») .

● وكان من أزهد الناس، يأكل من عمل يده، ويستقي الماء من البئر بنفسه ـ وهو صهر النبي ﷺ ـ وزوجُه فاطمة كانت تطحن الشعير بالرحى حتى مَجِلَتْ[١] يداها .

● وكان يحب الضِّيفان ويَبسط لهم الموائد، ويُسرع في تلبية سؤال ذوي الحاجات ويُكرم وِفادتهم .

يقول رضي الله عنه : (لأن أجمَعَ نَفَراً من إخواني على صاع أو صاعين من طعام، أحبُّ إليَّ من أن أَخرج إلى سوقكم فأعتق رقبة) .

وجاءه ذات يوم رجل فقال له : (يا أمير المؤمنين، إنّ لي إليك حاجة، قد رفعتُها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنتَ قضيتَها ؛ حمدتُ الله وشكرتُك، وإن لم تَقضِها ؛ حمدتُ الله وعذرتُك .

فقال عليّ : اكتب على الأرض، فإني أكره أن أرى ذُلَّ السؤال في وجهك ! .

فكتب : إني محتاج ! .

---

(١) مجلت يداها : ظهر فيهما ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة .

فقال عليٌّ: عَلَيَّ بِحُلَّة، فأُتي بها، فأخذها الرجل، فلبسها، وامتدح علياً بشعر.

ثم قال علي: عليَّ بالدنانير، فأُتي بمئة دينار، فدفعها إليه. فقال له قائل: يا أمير المؤمنين، حُلَّةٌ ومئةُ دينار؟! قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَنْزِلوا الناسَ منازلَهم»، وهذه منزلة هذا الرجل عندي).

إيمانه وتديُّنه وورعه:

● لازَمَ رضي الله عنه المحافظة على صلاة النوافل في الليل والنهار، يصلّي قبل الظهر أربعاً طوالاً، ولما سئل عن ذلك؟ قال: (رأيتُ رسول الله ﷺ يصلّيها). وبقي يداوم على أربع ركعات قبل العصر، وكان يقول: (رحم الله من صلَّى قبل العصر أربعاً). وحرص على صلاة الضحى فما كانت تفوته. ودَأَبَ على الوِرْدِ الذي علَّمه إياه رسول الله ﷺ: (تسبيحات وتحميدات وتكبيرات، مئة مرة)، إذا أصبح، وإذا أمسى، ما تركهنَّ في سفر ولا حضر، ولا في صحة أو مرض؛ حتى قال في ذلك: (ما فاتتني منذُ سمعتُها من رسولِ الله ﷺ إلا ليلة صِفِّين، فإني نسيتُها، حتى ذكرتُها من آخر الليل، فَقُلْتُها).

● وكان رضي الله عنه دائم الصحبة لكتاب الله تعالى، قال: (ما كنتُ أرى أحداً يعقلُ ينامُ حتى يقرأ الآياتِ الأواخرَ من سورة البقرة، فإنهنَّ مِن كنز تحت العرش).

● وكان واسع الصدقة، عريض البذل، نَدِيَّ الكف، سخيَّ العطاء، حتى لقد كثرت وقوفه التي جعلها صدقة جارية، فكان الحاصل من غلّتها أربعين ألف دينار.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤]: نزلَتْ في عليٍّ بن أبي طالب، كان عنده أربعة دراهم، فأنفَقَ بالليل والنهار، وبالنهار واحداً، وفي السرّ واحداً، وفي العلانية واحداً.

● وكان رضي الله عنه ثخين الورع، شديد القناعة، غزير العَبْرَة، حاضر العِبْرة، طويل الفكرة.

جيء يوماً بتمر يابس فأكله، ثم شرب عليه الماء، ثم ضربَ على بطنه وقال: (مَن أدخلَهُ بطنُه النارَ فأبعدَه الله)! ثم تمثَّل:

فإنَّك مهما تعطِ بطنَكَ سُؤْلَه وفَرْجَكَ نَالا مُنْتَهى الذمِّ أجْمَعَا

وخرج إلى المقبرة يوماً لزيارة موتى المسلمين، ومعه كُمَيْل بن زياد، فلمَّا أشرف على المقابر قال: (يا أهلَ القبورِ، يا أهلَ البِلى، يا أهلَ الوَحْشة: ما الخبرُ عندكم؟ فإنَّ الخبرَ عندنا: قد قُسمت الأموال وأُيْتِمَتِ الأولاد، واستُبدل بالأزواج، فهذا الخبر عندنا فما الخبر عندكم)؟! ثم التفتَ إلى كُميل وقال: (يا كُميل، لو أُذِنَ لهم في الجواب لقالوا: إنَّ خيرَ الزاد التقوى)! ثم بكى وقال: (يا كُميل، القبر صندوق العمل، وعند الموت يأتيك الخبر)!!.

ومن دعواته قوله: (أعوذ بك من جَهْدِ البلاء، ودَرْك الشقاء، وشماتة الأعداء، وأعوذ بك من السجن والقيد والسَّوْط).

(اللهمَّ إنَّ ذنوبي لا تضرّك، وإنَّ رحمتك إياي لا تنقصك).

علمه:

● نَهِل علي منذ نعومة أظفاره من مَعين الكتاب العزيز والحكمة النبوية، فأخذ العلم صحيحاً عالياً عن رسول الله ﷺ، وصَدَرَ ريَّانَ ممتلئ الروح والقلب والعقل.

وساعده على ذلك قلب عقول، ولسان سؤول، وأُذن واعية، وبصيرة نافذة، فكان ممن حفظ القرآن الحكيم على عهد رسول الله ﷺ، وعَلِم تفسيرَه وتأويلَه.

وأخبر عن نفسه متحدِّثاً بنعمة الله تعالى عليه، فقال: (واللهِ ما نَزلتْ آيةٌ إلاّ وقد علمتُ فيما نَزَلَتْ، وأينَ نزلتْ، وعلى مَنْ نزلتْ! إنّ ربي وهبَ لي قلباً عَقُولاً، ولساناً طَلْقاً).

وقال أيضاً: (سَلُوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آيةٍ إلا وقد عرفتُ بليلٍ نَزَلتْ أم بنهارٍ، في سَهْل أم في جَبَل).

وزاد من ذلك بركة دعوة النبي ﷺ له عندما بَعَثه إلى اليمن قاضياً، وفي هذا يقول علي رضي الله عنه: (بَعَثَني رسولُ الله ﷺ إلى اليمن، فقلتُ: يا رسولَ الله، بعثتَني وأنا شابٌّ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاءُ! فضَرَبَ صدري بيده، ثم قال: «اللهمَّ اهدِ قلبَهُ، وثبِّتْ لِسانَه». فوالذي فَلَقَ الحَبَّةَ، ما شككتُ في قضاءٍ بين اثنين).

● ولقد أثنى الصحابة على علْمِه، فكان كبارهم يسألونه، ويرجعون إلى أقواله في المسائل والمعضِلات، حتى إنّ عمر ـ وهو من هو بعلمه ـ كان يقول: (عليٌّ أقضانا)، بل إنه ليقول: (أعوذ بالله من معضِلة ولا أبو الحسن لها)!.

ويقول عبد الله بن مسعود: (كنا نتحدَّث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب).

وقال حَبْر الأمة ابن عباس: (إذا حَدَّثنا ثقةٌ عن علي بفُتيا لم نتجاوَزْها).

وتقول أم المؤمنين عائشة: (أَمَا إنه لأعلمُ الناس بالسُّنَّة).

ومع هذا كله لم يكن عليٌّ يهجم على الفُتيا، وإذا سُئل عمَّا لا عِلْمَ له به، قال باطمئنان: لا أعلم.

سُئل مرةً عن مسألة، فقال: (لا عِلْمَ لي بها، ثم قال: (وابَرْدَهَا على الكبد، سُئِلْتُ عما لا أعلم، فقلت: لا أعلم)!.

● روى علي الحديثَ عن النبي ﷺ، وزوجتِه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وروى أيضاً عن أبي بكر وعمر والمِقْداد بن عَمْرو.

وبثَّ علمه الغزير بين الصحابة والتابعين، فروى عنه:

أولاده: الحسن والحسين ومحمد الأكبر ـ المعروف بابن الحَنَفيَّة ـ وعمر وفاطمة، وابن ابنه محمد بن عمر بن علي، وابن أخيه عبد الله بن جعفر، وابن

أخته جَعْدة بن هُبيرة المخزومي، وكاتبه عُبيد الله بن أبي رافع.

ومن الصحابة جَمٌّ غَفير، منهم: عبد الله بن مسعود، والبَرَاء بن عازب، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخُدْري، وصُهيب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وجابر بن عبد الله، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم.

ومن التابعين: زِرّ بن حُبَيْش، وأبو الأسود الدُّؤَلي، والحارث بن عبد الله الأعور، وشُريح بن هانئ، وشَقيق بن سَلَمة، وعامر الشعبي، وعَلْقمة بن قيس، ومروان بن الحَكَم، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، وخلائق كثيرون.

وقد روت له كتب السنّة عن رسول الله ﷺ (٥٨٦) خمسمئة وستة وثمانين حديثاً.

شعره:

وكان علي يَقْرِض الشِّعرَ، ويُحسن النظر فيه، وقد جادت قريحتُه بأشعار رفيعة، وقد نَحَلُوه ديواناً سمّوه: (ديوان علي بن أبي طالب)، فيه قصائد كثيرة ليس بينها إلا القليل مما يصحّ نسبتُه إليه، ومعظمه مدسوس عليه.

ذكاؤه وفراسته:

وفوق كل ما سبق فقد كان الإمام ذا ذكاء لمَّاح، وعبقرية فذّة، وبديهة حاضرة.

جاءه رجل يوماً ـ وكان يكره علياً ـ فأطراه، فقال له علي: (إني لستُ كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك)!.

وقال له رجل آخر ـ وكان يبغضه أيضاً ـ: ثبَّتك الله، فقال علي: (على صدرك)!.

وقال له قائل: ما بالُ خلافة أبي بكر وعمر كانت صافية، وخلافتك أنت وعثمان متكدّرة؟ فقال: (إنَّ أبا بكر وعمر كنت أنا وعثمان من أعوانهما، وكنتَ أنت وأمثالك من أعواني وأعوان عثمان)!!.

وجاء رجل من يهود فقال له: ما أتى عليكم بعد نبيّكم إلا نيّفٌ وعشرون سنة، حتى ضرب بعضكم بعضاً بالسيف! فقال رضي الله عنه: (فأنتم ما جفّت أقدامكم من البحر، حتى قلتم: يا موسى اجعل لنا إلـٰهاً كما لهم آلهة)!!.

المبشَّر بالجنة:

تلك الخِصالُ الحميدة، والشمائلُ النَّبيلة، مع السَّبْق للإسلام والتضحية في سبيله، وحبِّ النبي ﷺ والاقتداء به، أهَّلَ علياً ليكون أحدَ السابقين إلى فردوس الجنة، بشَّره بذلك رسولُ الله ﷺ في مناسبات عديدة، وأحاديث كثيرة.

ففي حديث سعيد بن زيد: أن رسول الله ﷺ قال: «عشرةٌ في الجنة: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان، وعلي، ...» وذكر بقية العشرة.

وروى جابر بن عبد الله قال: (مشيتُ مع النبيِّ ﷺ إلى امرأة، فذَبَحتْ لنا شاةً، قال رسول الله ﷺ: «لَيَدْخُلَنَّ رجلٌ من أهل الجنة»، فدخل أبو بكر رضي الله عنه. ثم قال: ليدخلنَّ رجل من أهل الجنة»، فدخل عمر رضي الله عنه. ثم قال: «ليدخلنَّ رجل من أهل الجنة، اللهمَّ إنْ شئتَ فاجعَلْهُ عليّاً»، قال: فدخل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه).

وقال علي رضي الله عنه: (بينما رسول الله ﷺ آخِذٌ بيدي ونحن في سِكَكِ المدينة، إذ مررنا بحديقةٍ، فقلتُ: يا رسولَ الله، ما أحسنَها من حديقة! قال: «لكَ في الجنة أحسنُ منها»).

مكانته عند النبي ﷺ ومناقبه:

ولقد تبوَّأ عليٌّ عند النبي ﷺ مكانة سامقة، لكثرة مناقبه، وعظمة أعماله، وجليل خصائصه ومزاياه، مع قرابته له ﷺ ومصاهرته إليه. وجاءت في ذلك أحاديث كثيرة، حتى قال الإمام أحمد: (لم يُرْوَ في فضائل أحد من الصحابة بالأسانيد الحِسَان، ما رُوِيَ في فضائل علي رضي الله عنه). وذلك لأنه ـ رضي الله عنه ـ تأخرتْ وفاته عن سابقيه من الخلفاء، ووقع الاختلاف في زمانه، وخرج مَن خرج عليه؛ فقام الصحابة بنشر فضائله، والردّ على من خالفه، وسعى الناس في

طلب تلك المناقب، حتى ذاعت وانتشرت بين الناس.

● وأبلغ ما يُستدَل به على علوّ مكانة علي في قلب رسول الله ﷺ أنه زوَّجه ابنته فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأحبَّ أهل النبيّ ﷺ إليه، فأصبح صهر رسول الله ﷺ، ومن أهل البيت، ولما نزلت الآية الكريمة: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهمَّ هؤلاء أهلي».

وأخذ ﷺ رداءه فوضعه على عليّ وفاطمة والحسن والحسين، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، اللهمَّ أهل بيتي أحق».

وذات مرة أخذ رسول الله ﷺ بيد حَسَنٍ وحُسين فقال: «من أحبَّني وأحبَّ هذين وأباهما وأمهما، كان معي في درجتي يوم القيامة».

● ولما فرغ النبيُّ ﷺ من (حجة الوداع)، وقفَلَ إلى المدينة، خطب الناس بمكان يقال له: (غَدِير خُمّ)(١)، فبيَّن لهم فَضْلَ علي رضي الله عنه، وأخذ بيده فقال: «مَنْ كنتُ مولاه فهذا وليُّه(٢)، اللهمَّ والِ مَنْ والاَهُ، وعادِ مَن عادَاهُ».

● ودعا رسول الله ﷺ الأمة إلى حُبِّ عليٍّ وتوقيره، حتى جعل حُبَّه من علامات صدقِ إيمان المرء، وبراءته من النفاق، فقال: «لا يُحبُّ علياً منافقٌ، ولا يبغضُه مؤمن».

ولقد حدَّث علي بذلك فقال: (والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسْمَةَ إنّه لعهدُ النبي الأمي ﷺ إليَّ: أنْ لا يُحِبَّني إلا مؤمنٌ، ولا يُبْغِضَني إلا منافقٌ).

وعندما توجَّه رسول الله ﷺ إلى تبوك، وخلَّف علياً على المدينة، وطَعَن المُرْجِفُون على عليٍّ رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ ذلك القول الخالد لعلي: «أنت

---

(١) خُمّ: اسم الغَيْضَة، عندها غَدير يُضاف إلى الغَيْضة، ويقع غدير خم شرق الجُحْفَة على بعد (٨كم) من المدينة.

(٢) أي: من كنتُ ناصره فهذا ناصره.

مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبيَّ بعدي» .

● وفي أيام حياته ﷺ أمر بإغلاق الأبواب التي تُفتح على المسجد النبوي ، إلا باب علي ، قال سعد بن أبي وقاص : (أَمَرنا رسولُ الله ﷺ بسَدّ الأبوابِ الشارعة في المسجد ، وتَرْكِ بابِ عليٍّ) ، وذلك لاحتياج فاطمة بنت الرسول ﷺ إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها ﷺ .

● وقد نالته بركة دعوة النبي ﷺ أكثر من مرة ، فيوم خيبر كان يشتكي عينيه ، فدعاه النبي ﷺ وتفل فيهما ، ودعا له ؛ فَبَرَأَ من ساعته .

● وكان رضي الله عنه من كُتَّاب الوحي ، ويكتب بين يدي رسول الله ﷺ الكتبَ والعهودَ والمواثيق ، وهو الذي كتب بنود صلح الحديبية . ولَبِسَ بُرْدَ النبي ﷺ ليلة الهجرة ، ونام مكانه ، وفداه بنفسه ، وشهد بدراً ؛ وقد قال ﷺ ـ مخاطباً عمر ـ : «وما يُدْرِيكَ لعلَّ الله أن يكون قد اطَّلَعَ على أهل بدر فقال : اعمَلُوا ما شِئتُم فقد غفرتُ لكم»؟! وشهد بيعة الرضوان ، فكان ممن قال الله فيهم : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] ، وقال النبي ﷺ : «لا يدخلُ النارَ أحدٌ ممن بايَعَ تحتَ الشجرة» .

وشهد خيبرَ فكان له فيها وسامٌ يعزُّ نظيرُه ، وشهادة ليس فوقها شهادة ، فقال النبي ﷺ : «لأُعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبُّه اللهُ ورسولُه ، ليس بفرَّار ، يفتحُ الله عليه»! .

مكانته عند الصحابة:

● أحبّ الصحابة الكرام علياً لفضائله وسوابقه وقرابته من النبي ﷺ ، ووضعوه من أنفسهم بالمكان الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ :

أخرج أبو يَعْلى عن أبي هُريرة قال : قال عمرُ : (لقد أُعْطِيَ عليٌّ بن أبي طالب ثلاثَ خِصال ، لأن تكون لي خَصْلَة منها أحبُّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم . قيل : وما هنَّ يا أميرَ المؤمنين؟ قال : تزويجه فاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ، وسكناهُ المسجدَ مع رسول الله ﷺ يَحِلُّ له فيه ما يحلّ له ، والراية يوم خيبر) .

ولما تَنَقَّصَ قومٌ علياً في حضرة سَعْد بن أبي وقاص، قال سعد: (لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في عليٍّ ثلاث خِصال، لأنْ يكونَ لي واحدةٌ منهنَّ أحبُّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم، سمعتُه يقول: «إنَّه مني بمنزلةِ هارون من موسى، إلاّ أنَّه لا نبيَّ بَعْدِي». وسمعتُه يقول: «لأعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه». وسمعتُه يقول: «مَنْ كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»).

وعن قيس بن أبي حازم قال: (كنت بالمدينة فبينا أنا أطوف في السوق إذ بلغت أحجار الزيت، فرأيت قوماً مجتمعين على فارس قد ركب دابة وهو يشتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه والناس وقوف حواليه، إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليهم، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل يشتم علي بن أبي طالب، فتقدَّم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه، فقال: يا هذا علامَ تشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول مَن صلَّى مع رسول الله ﷺ؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ ـ وذكر حتى قال: ألم يكن خَتَنَ رسول الله ﷺ على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته؟ ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهمَّ إنَّ هذا يشتم ولياً من أوليائك، فلا تفرِّق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك. قال قيس: فوالله ما تفرَّقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته في تلك الأحجار فانفلق دماغه ومات).

وفي حضرة سعيد بن زيد رضي الله عنه قام رجل فسبَّ علياً، فانتهره سعيد، وروى للناس عندئذٍ حديث العشرة المبشَّرين بالجنة، فذكر علياً رابعهم، ثم قال: (لَمَشْهَدُ رجلٍ منهم مع رسول الله ﷺ يَغْبَرُّ فيهِ وجهُهُ خيرٌ من عملِ أحدِكم عُمُرَه، ولو عُمِّرَ عُمُرَ نوحٍ).

وسأل معاويةُ ابنَ عباسٍ ـ رضي الله عنهما وعن أبيهما ـ عن مناقب علي، فقال ابن عباس: (رحمَ اللهُ أبا الحسن، كان ـ واللهِ ـ علمَ الهُدى، وكَهْفَ التُّقى، ومحلَّ الحِجَى، وطَوْد البهاء، ونور السُّرَى[1] في ظُلَم الدُّجى، داعياً إلى المَحَجَّة العظمى، عالماً بما في الصحف الأُولى، وقائماً بالتأويل والذِّكرى، متعلِّقاً

---

(١) السُّرَى: السير ليلاً.

بأسباب الهدى، وتاركاً للجَوْر والأذى، وحائِداً عن طرقات الرَّدَى، وخيرَ مَنْ آمن واتّقى، وسيِّدَ من تَقَمَّصَ[١] وارتدى، وأفضلَ مَن حجَّ وسعى، وأسمحَ مَن عَدَلَ وسوَّى، وأخطبَ أهل الدنيا إلا الأنبياء والنبي المصطفى، وصاحبَ القبلتين؛ فهل يوازيه موحِّدٌ؟! وزوجَ خير النساء، وأبا السِّبْطين، لم ترَ عيني مِثلَه ولا ترى إلى يوم القيام واللقاء، مَنْ لَعَنَهُ فعليه لعنةُ الله والعباد إلى يوم القيامة).

وأخرج أحمد والطبراني عن رياح بن الحارث قال: (جاء رَهْطٌ إلى عليٍّ بالرَّحْبة[٢]، قالوا: السلام عليك يا مَوْلانا. فقال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟ قالوا: سمعنا رسول الله ﷺ يوم غَدِيرِ خُمٍّ يقول: «مَن كنتُ مولاه فهذا مولاه». قال رياح فلما مَضَوا تبعتُهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: نَفَر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري).

● لكن ذلك لم يكن ليحمل الصحابة على أن يتعدّوا به المنزلة التي تبوّأها، أو أن يروا فيه العصمة؛ بل هو كغيره من الأصحاب، يجوز عليه ما يجوز عليهم:

أخرج البخاري عن ابن عُمَر قال: (كُنَّا في زمنِ النبي ﷺ لا نَعْدِلُ بأبي بكرٍ أَحَداً، ثم عمرَ ثم عثمانَ، ثم نتركُ أصحابَ النبي ﷺ لا نُفَاضِلُ بينهم).

بل إنَّ علياً نفسه لم يرَ تقدّمه على الشيخين رضي الله عنهما، يحدِّث بذلك ابنُه محمد الشهير بابن الحَنَفِيَّة فيقول: (قلتُ لأبي: أيُّ الناسِ خيرٌ بعد رسولِ الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثم عُمَرُ. وخشيتُ أن يقول عثمانُ، قلتُ: ثم أنتَ؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ مِن المسلمين)!.

● والصحيح من قول أكثرِ أهل السُّنَّة أن أفضلية الخلفاء الأربعة حسب ترتيبهم في الخلافة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي. وما ذُكر عن بعض أهل الكوفة من تفضيل علي؛ إنما هو في تقديمه على عثمان لا على أبي بكر وعمر، فهذا لا يقول به أحد من أهل السنَّة.

---

(١) تقمَّصَ: لبس القميص.

(٢) الرحبة: محلَّة بالكوفة.

وقد قال غير واحد من العلماء: (مَن قدَّم علياً على عثمان فقد أَزْرَى بالمهاجرين والأنصار)، لأنهم قد أجمعوا على بيعة عثمان في حضرة علي، ولا يجتمعون إلا على أفضلهم.

* * *

الفَصل الرابع

رابع الخلفاء وفرية الوصية بالخلافة

مع الخلفاء الثلاثة قبله:

كان علي رضي الله عنه مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، على الأخلاق التي تربّى عليها في كَنَف رسول الله ﷺ، يحبُّهم ويبجِّلهم، ويعترف بفضلهم، يُصَدِّقهم بما يقولون، ويَصْدُقهم بما يقول، ويبذل لهم رأيه ونصحه، ويقف معهم في الملمَّات، ولا يُسْلِمُهُمْ لمكروه، بل يفدِّيهم بنفسه وولده، ويبغض من يبغضهم. ولم يعكر صفوَ علائقه معهم إلا افتراءات المفترين، وكذب الكذّابين.

●● يقول رضي الله عنه: (قَدَّمَ رسولُ الله ﷺ أبا بكر يصلِّي بالناس، وأنا حاضِرٌ غير غائب، وصحيحٌ غيرُ مريض، ولو شاءَ أن يقدِّمني لقدَّمَني، فَرَضِينَا لدنيانا مَنْ رَضِيَه اللهُ ورسولُه ـ عليه السلام ـ لِدِيننا).

وبايع أبا بكر في المسجد في أول يوم، أو في اليوم الثاني من وفاة النبي ﷺ، وكان معه: يصلّي وراءه، ويحضر للمشورة، وشهد معه حروب الردة، ولما ركب الصدِّيق في الجيوش الإسلامية شاهراً سيفه من المدينة إلى (ذي القَصَّة)، كان علي يقود براحلة أبي بكر!.

وبقي يعرف لأبي بكر سابقتَه وفضلَه حتى عندما أضحى خليفة، فقد أخرج خيثمة وابن عساكر عن أبي الزِّناد قال: (قال رجلٌ لعلي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، ما بالُ المهاجرين والأنصار قدَّموا أبا بكر وأنت أوفى منه مَنْقَبة، وأقدم منه سِلْماً، وأسبق سابقة؟ قال: إن كنتَ قرشياً فأحسبك من عائِذة؟ قال: نعم. قال: لولا أن المؤمن عائذُ الله لقتلتُك، ولئن بقيتُ ليأتينَّك مني رَوْعة حصراء، ويحكَ! إنَّ أبا بكر سبقني إلى أربع: سَبَقَنِي إلى الإيمان، وتقديم الإمامة، وتقديم الهجرة إلى الغار، وإفشاء السلام. ويحك! إنّ الله ذمَّ الناسَ كلهم ومَدَحَ

أبا بكر، فقال: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾[1] [التوبة: ٤٠].

وعندما سأله ابنه محمد ابن الحنفيّة عن خير الناس بعد رسول الله ﷺ؛ أجابه قائلاً: أبو بكر، ثم عمر.

قال الحافظ ابن كثير: (وقد ثبت عنه بالتواتر أنه قال على منبر الكوفة: يا أيها الناس، إنَّ خيرَ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر ثم عمر، ولو شئتُ أن أسَمِّيَ الثالثَ لَسَمَّيْتُ).

وفُجع بموت أبي بكر، فقال يرثيه: (رَحِمَكَ اللهُ أبا بكر، كنتَ ـ واللهِ ـ أولَ القوم إسلاماً، وأخلَصهم إيماناً، وأشدَّهم يقيناً. صدَّقْتَ رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس، وواسيتَه حين بخلوا، وقمتَ معه حين قعدوا، كنتَ ـ واللهِ ـ للإسلام حِصْناً، وللكافرين ناكباً. لم تَهِنْ حجَّتُك، ولم تضعف بصيرتُك، ولم تجبُنْ نفسُك).

●● وتولَّى الخلافةَ عمرُ رضي الله عنه، فكان علي من جملة من بايعه وشدّ على يمينه، وكان معه يشاوره في الأمور، ويستفتيه في المسائل، واستقضاه في أيام خلافته. وقدم مع عمر إلى الشام، وسمع خطبته بالجابية.

وكان علي أحد من شارك في تحديد عطاء الخليفة الفاروق، وتولى قضاء المدينة، وامتدحه عمر بقوله: (علي أقضانا). كما كان له رأي بارز في توجيه الفتوحات، وكثيراً ما كان عمر يهوى قوله.

عن سويد بن غَفَلَة قال: (مررتُ بقومٍ يذكرون أبا بكر وعمرَ رضي الله عنهما وينتقصونهما! فأتيتُ علياً رضي الله عنه، فذكرتُ له ذلك، فقال: لَعَنَ اللهُ مَنْ أضمَرَ لهما إلا الحسن الجميل، أَخَوَا رسول الله ﷺ ووزيراه! ثم صعد المنبر، فخطب خطبة بليغة فقال: ما بالُ أقوامٍ يذْكُرون سيدَي قريش وأبوَي المسلمين بما أنا عنه متنزِّه، ومنه بريء، وعلى ما يقولون معاقب؟! والذي فَلَقَ الحبّة وبَرَأَ النَّسَمة[2] إنَّه لا يحبُّهما إلا مؤمن تقيّ، ولا يُبغضهما إلا فاجرٌ رديء! صَحِبا

(١) **سلماً**: إسلاماً. **عائذة**: قبيلة من قريش. **روعة**: فزعة.
(٢) **فَلَقَ الحبَّة**: أي شقَّها بالنبات. **وبَرَأَ النَّسْمة**: أي خَلَقَ الإنسان، وقيل: النَّفْس.